رواية بوليسية

ثلاثة أيام وحياة

مكتبة 432

PIERRE
LEMAITRE

بيير لوميتر

ترجمة:
د. غسان لطفي

KALEMAT

الطبعة الأولى

مكتبة 432

ثلاثة أيام وحياة

- ثلاثة أيام وحياة
- بيير لومتر
- دار كلمات للنشر والتوزيع
- الطبعة الأولى ٢٠١٧

دولة الكويت / محافظة العاصمة

تلفون : ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤

تويتر : @Dar_kalemat

إنستجرام : Dar_kalemat

Dar_Kalemat@hotmail.com

© Editions Albin Michel - Paris 2016.

ردمك : ISBN: 978-99966-92-58-1

مكتبة ٢٠١٩٥٦

ثلاثة أيام وحياة

Trois jours et une vie

مكتبة 432

بيير لومتر

Pierre Lemaitre

ترجمة

د. غسان لطفي

٢٠١٧

KALEMAT

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

مقدمة المترجم:

بيير لوميتر ، مؤلف ثلاثة أيام وحياة ، هو روائي وكاتب سيناريو فرنسي حائز على جائزة الغونكور سنة ٢٠١٣ عن روايته الطويلة إلى اللقاء فوق (Au revoir là-haut) وهي أرقى الجوائز الأدبية في فرنسا وهي ليست الوحيدة ، فلقد حصدت رواياتٌ أخرى له الكثيرَ من الجوائز في فرنسا وخارج فرنسا وصار يعتبر من أكبر كتاب الرواية البوليسية في العالم ، حتى أن الكاتب الأمريكي الشهير ستيفين كينغ قال عنه إنه من كُتَّاب رواية التشويق الممتازين ، كما أن رواياته ترجمت إلى لغات عديدة ، من بينها الصينية والعبرية . ولعلَّ الترجمة التي نضعها بين يدي القارئ أن تكون أولَّ ترجمة إلى العربية لرواية من رواياته .

ثلاثة أيام وحياة ، هي أحدث ما كتب بيير لوميتر ، وهي ما بين الرواية البوليسية وما يسمى بالرواية السوداء ، حيث أن القارئ يعرف منذ الصفحات الأولى هويةَ القاتل ، الطفل أنطوان كورتان ذي الاثني عشر ربيعا ، لكن عليه أن ينتظر إلى الصفحة الأخيرة ، بل إلى السطر الأخير ليعرف إلامَ سينتهي به المطاف . هي إذاً قصة طفل في بداية المراهقة يقتل خطأً ، وفي لحظة غضب أعمى ، طفلا آخر أصغر منه سنا ، وتنقلب حياته رأسا على عقب .

يقول بيير لوميتر إن روايته مأساة ، تراجيديا ، بمعنى أن نهايتَها ومآلَها متضمنان في بدايتِها ، وهو ما سيشعر به القارئ عندما يصل

إلى النهاية ، إذ يستعيد عددا من التفاصيل التي قرأها ولم يُلقِ لها بالاً ويكتشف أنها كانت كلُّها دلائلَ ، علامات على ما ستفضي إليه الأحداث . والروايةُ مأساوية أيضا لأن «بطلَها» يرى مصيرَه مربوطا بقوى لا قِبَلَ له بها ويواجهه في صراع محتوم غير متكافئ لا يحدد هُوَ منعطفاتِه ومآلَه بل ترسمها له تقلباتٌ لم تكن في حُسبانه .

يقول لوميتر إن المترجمين هم أفضل القراء ، لأنهم لا يغادرون شيئا في النص إلاَّ انتبهوا له ، وهم بذلك يقرؤونه كلمة كلمة . ولست أدري إن كان المترجم قادرا في كل الحالات على أن يعيد كتابة النص الأصل بكل ما فيه من أوجه تُميزه وتجعله قادرا على إنتاج المعنى وإحداث الأثر ، حتى وإن انتبه لها جميعا . في الكثير من الأحيان ، يتحتم على المترجم أن يختار جانبا من النص يراه حاسما فيركز عمله عليه أكثر من غيره ، دون أن يعني ذلك طبعا أن يهمل جوانب النص الأخرى إهمالا مطلقا تاما . ولعل هذا الجانب في ثلاثة أيام وحياة يتمثل في الجُمل ، في ما يوجد -أو بالأحرى ما لا يوجد- من علاقات بينها : فالجمل هنا كثيرا ما تتابع وتترادف دون أن تربط بينها كلمات تفصح عن العلاقات الزمنية (تتابع الأحداث) أو العلاقات المنطقية (السبب والنتيجة . . . الخ) . ويشعر القارئ بأن الكاتب كتب جمله بهذه الطريقة لكي «يحاكي» حركة الأحداث والأفكار ، فالراوي يصف الأحداث وينظر إليها بعيون الشخصيات وأفكارها ومفرداتها ليمنح القارئ إحساسا بالآنية ، أي الإحساسَ بأن وصف ما يحدث يتم في لحظة حدوثه ، ولذلك فالعلاقات المنطقية بين الجمل مضمرة لأن الشخصيات لا «تفكر» في خضم الأحداث ولا ترتبها ترتيبا منطقيا واعيا .

لقد أكد لي الكاتب إلى حد ما حدسي هذا إذ أخبرني بأنه اجتهد في ثلاثة أيام وحياة أن لا يخرج عن وجهة نظر الشخصيات وخصوصا أنطوان . ولأجل ذلك عملت أنا أيضا على ألا أستسلم للنزعة إلى عقلنة الجمل والمقاطع وإلى إظهار ما هو مضمر ، في نظري على الأقل ، من علاقات بينها . أقول «النزعة» لأن المترجم يجد نفسه مدفوعا بلا وعي منه في الكثير من الأحيان إلى الشرح رغم أنه حاول جاهدا أن يجتنبه ، وهو ما اكتشفته وأنا أراجع الترجمة .

لقد حذفت أو اختصرت أو عدلت العديد من المشاهد الجنسية ، بناء على رغبة الناشر .

غسان لطفي

إلى باسكالين

إلى صديقي جيرار ترومر
مع وُدِّي .

١٩٩٩

١

في نهاية سبتمبر من سنة ١٩٩٩ ، حدثت سلسلة مدهشة من الحوادث في بوفال ، كان أهمها بلا مراء اختفاء الصبي ريمي ديسميد . في هذه المنطقة التي تكسوها الغابات وينظم حياتها إيقاع رتيب ، أثار اختفاء الصبي المفاجئ الذهول واعتبره عدد كبير من السكان نذيرا بين يدي كوارث أخرى قادمة .

بالنسبة لأنطوان ، الذي كان الشخصية الرئيسة في تلك المأساة ، بدأ كل شيء عندما نفق الكلب . كان اسمه أُوليس . ولا يسألن أحد عما دعا مسيو ديسميد ، صاحب الكلب ، إلى أن يُطلق على هذا الهجين الأبيض المتوحش ، الطويل القوائم ، الشديد النحول ، اسم بطل إغريقي . هذا لغز آخر من ألغاز هذه القصة ، وما أكثرها .

كان آل ديسميد جيران أنطوان الذي كان ابن اثني عشرة سنة آنذاك . وما زاد تعلقه بالكلب هو أن أمه لم تسمح أبدا بوجود أي حيوان بالبيت ، لا قطة ولا كلبا ولا حتى هامستر ، لا شيء ، فهي تجلب معها الأوساخ .

كان أوليس يهرع إلى السياج عندما يناديه أنطوان ، وكثيرا ما كان يتبع شلة الأصدقاء إلى المستنقع أو إلى الغابة المجاورة وعندما كان أنطوان يذهب إلى هناك بمفرده ، كان يأخذه معه دائما . ولدهشته ، كان أنطوان يجد نفسه يحدثه كما يحدث أحدنا صديقا

له ، ويرفع الكلب إليه رأسه ، بجد وانتباه ، ثم ينسحب فجأة ، مُؤذِنا بأن ساعة البوح قد انتهت .

وإذ شارف الصيف على نهايته ، انشغل أنطوان مع أصدقائه من المدرسة ببناء كوخ في الغابة ، على مرتفعات سانت أوستاش . كانت تلك فكرته ، لكن ثيو كالعادة نسبها لنفسه ، فصارت إليه بذلك مقاليد عملية البناء . كانت سلطته على الشلة الصغيرة تقوم على أنه أطولهم وأنه ابن رئيس البلدية . تلك أمور يحسب حسابها في مدينة كبوفال (لا يحب الناس أولئك الذين يعاد انتخابهم في كل مرة لكن رئيس البلدية ينظر إليه على أنه قديس شفيع وإلى ابنه على أنه خليفته . هذه التراتبية الاجتماعية ولدت في أوساط التجار وامتدت إلى الجمعيات ثم طالت ، بفعل الجاذبية الشّعرية ، ساحات المدارس) . كان ثيو وايزر أيضا أدنى الطلبة مستوى في قسمه ، وهو ما كان يبدو في أعين أصدقائه دليلا على قوة شخصيته . وعندما ينهال عليه أبوه بالضرب -وكثيرا ما كان يحدث ذلك- فإنه يستعرض كدماته بزهو ، كأنها الضريبة التي يدفعها العباقرة للامتثالية السائدة . كان أثره على الفتيات أيضا واضحا لا ينكر ، ولأجل ذلك كان الصبيان يخشونه ويحسدونه ولا شك ، لكنهم لم يكونوا يحبونه . أما أنطوان فلم يكن يطلب شيئا لنفسه أو يمد عينيه إلى أي شيء . كان بناء الكوخ وحده كافيا لجعله سعيدا ولم يكن بحاجة إلى الزعامة .

لكن كل شيء تغير عندما حصل كيفين على لعبة بلاي ستايشن هديةً في عيد ميلاده . فسرعان ما هجر الأصدقاء غابة سانت أوستاش وراحوا يجتمعون في منزل كيفين ليلعبوا ، وقالت أمه إن ذلك أفضل من ذهابهم إلى الغابة أو المستنقع فلطالما

اعتبرتهما مكانين خطيرين . أما والدة أنطوان ، فلم يكن يعجبها أن ينفق الأولاد سحابة وقتهم عصرَ كل يوم أربعاء متكئين على الأرائك ، هذه الأشياء ستجعلهم أغبياء ، وحرَّمتها على ابنها . واحتج أنطوان على قرار أمه ، لا لأنه يحب ألعاب الفيديو بل من أجل رفقة أصدقائه التي حرم منها . وصار يشعر بالوحدة كلما جاء يوم الأربعاء أو السبت .

وأمضى الكثير من الوقت مع إميلي ، ابنة عائلة موشوت . كان عمرها اثنا عشر عاما هي الأخرى . شعرُها أشقر كأنه زغب كتكوت وموج ، وعيناها متقدتان ، شرسةٌ بكل معنى الكلمة ، من النوع الذي لا يرد له طلب ، حتى ثيو نفسه كان متيما بها . لكن أن يلعب مع فتاة ، تلك مسألة أخرى .

وعاد أنطوان إذًا إلى غابة سانت أوستاش وشرع في بناء كوخ ، في الجو هذه المرة ، بين أغصان شجرة زان وعلى ارتفاع ثلاثة أمتار من الأرض . وكتم أمر المشروع وهو يتلذذ مسبقا بطعم الانتصار الذي سيحققه عندما سيعود الرفاق إلى الغابة ، بعد أن يكونوا قد ملُّوا من ألعاب الفيديو ، ويكتشفون البناء الذي أقامه .

استغرقت هذه المهمة من وقته الكثير . واختلس من ورشة النشر قطعا من الأغطية الكتيمة لكي يحمي الفتحات من الأمطار ، وقطعا من القماش المشمع ليتخذها سقفا ، وأقمشة للزينة ، وهيأ مخابئ ليخفي فيها كنوزه . ولم يكن ليفرغ من مهمته قط ، فهو لم يضع لها خطة عامة ولأجل ذلك ألفى نفسه مجبرا على أن يعيد العمل أكثر من مرة . وشغل الكوخ وقته وتفكيره لأسابيع ، فصار صعبا عليه أن يحتفظ بالسر لنفسه . وهكذا كان أن ألمح في المدرسة إلى مفاجأة ستسيل لعاب الكثيرين لكن ذلك لم

يحدث الأثر الذي أراده ، فلقد كانت شلة الأصدقاء ملتهبة حماسا لنبأ الصدور المرتقب للنسخة الجديدة من لعبة تومب رايدر ، وكان الحديث عنها على كل لسان .

طوال المدة التي أمضاها أنطوان وهو يبني كوخه ، كان الكلب أوليس رفيقه . صحيح أنه لم يكن يعينه على أي شيء لكنه كان حاضرا . وألهم وجودُه أنطوان فكرةَ بناء مصعد للكلاب ليكون أوليس معه عندما يصعد إلى منزله . إلى ورشة النشر مرة أخرى إذًا لاختلاس بكرة وبضعة أمتار من الحبال وما يلزم لصناعة قاعدة للمصعد . واستلزمت هذه الرافعة ، التي كانت اللمسةَ الأخيرة في عملية البناء ، ساعات طويلةً من العمل ، تمثل جانب كبير منه في محاولة الإمساك بالكلب الذي أرعبته فكرة الإقلاع من أول محاولة . ولم تحافظ القاعدة على وضعها الأفقي إلا بوجود عود يثبت زاويتها اليسرى . لم يكن ذلك مرضيا تماما لكن أوليس كان يصل رغم ذلك إلى الطابق . وكان المسكين يطلق ضغيبا مثيرا للشفقة والمصعدُ يرقى به ، وما أن يلحق به أنطوان حتى يدفن نفسه بين أحضانه وهو يرتعد وينتهز أنطوان الفرصة ليتشمم رائحته ويداعبه بينما يغلق الكلب عينيه غبطةً وسعادة . كان النزول دائما أسهل ، لأن أوليس لم ينتظر أبدا أن يلامس المصعد الأرض لكي يقفز هو إليها .

وأخذ أنطوان إلى موقع البناء أدوات جمعها من العلية ، مصباحَ جيب ودثارا وما يحتاجه ليقرأ ويكتب ، أي تقريبا ما كان يلزمه ليحقق ما يشبه الاكتفاء الذاتي .

لكن أنطوان ، مع كل ذلك ، لم يكن محبا للوحدة بطبعه بل مال لها في تلك الفترة بالذات ، دفعته إليها الظروف دفعا ، لأن أمه

لم تكن تحب ألعاب الفيديو . كانت حياته محفوفة بالقوانين واللوائح التي كانت مدام كورتان تفرضها بانتظام لا يضاهيه إلا ما فيها من إبداع وابتكار . وبعد أن كانت امرأة لا تعرف المساومة ، صارت بعد طلاقها امرأة ذات مبادئ ، كما هي غالبا حال الأمهات الوحيدات .

قبل ست سنين ، انتهز والد أنطوان فرصة حصول تبدل في وضعيته المهنية ليبدل معها زوجته ، فكان أن ألحق بطلب نقله إلى ألمانيا طلبا للطلاق من بلانش كورتان التي وقع الخبر عليها كالصاعقة ولم تستطع تجرعه . وكان تصرفها ذلك أمرا عجبا فزواجهما لم يسِر أبدا كما كان يجب له أن يسير ، وبعد ولادة أنطوان لم تعد بين الزوجين علاقة حميمة إلا فيما ندر . ولم يرجع مسيو كورتان أبدا إلى بوفال بعد أن غادرها . كان يرسل بانتظام هدايا بينها وبين رغبات ابنه تفاوت دائم ، لعباً لمراهقين في سن السادسة عشرة عندما كان ابنه في الثامنة من عمره ، ولعباً لأطفال في سن السادسة عندما صار في الحادية عشرة . وزاره أنطوان مرة في منزله بشتوتغارت ، وظل الإثنان ينظران إلى بعضهما شزرا طوال ثلاثة أيام ولم يُعِد أيٌّ منهما الكرة بعد ذلك أبدا ، فكما لم تكن مدام كورتان مستعدة ليكون لها زوج ، لم يكن زوجها مستعدا ليكون له ابن .

مكتبة

وقربت هذه التجربة المذهلة أنطوان من أمه . فعندما عاد من ألمانيا صار يفسر إيقاع حياتها الرتيب والبطيء بالحزن والوحدة اللتين ظن أن أمه تعانيهما ونظر إليها بعين جديدة ، مفجوعة شيئا ما ، وكما كان سيفعل أي ولد في مثل سنه بلا شك ، صار يعتبر نفسه مسؤولا عنها . فمهما كانت أمه امرأة مزعجة (بل في بعض

الأحيان امرأة لا تطاق مطلقا) ، ظن أنطوان أنه يرى في داخلها شيئا يُغتفَر ويتجاوز كل شيء آخر من تفاصيل الحياة اليومية والعيوب والطبع والظروف . . . فلم يعد واردا له أن يحزن أمه أكثر مما ظن أنها حزينة ، وظل ثابتا على يقينه هذا لم يتزحزح عنه قط .

كلُّ هذا ، زيادة على طبيعته المنغلقة ، جعل في نهاية المطاف من أنطوان طفلا مكتئبا بعض الشيء ، ولم يكن لظهور لعبة كيفين إلا أن يزيد الوضع سوءا . فلا عجب إذاً أن صار الكلب أوليس يحتل المركز في مثلث يرسم أضلاعه أب غائب وأم متشددة ورفاق ابتعدوا ، وهزه موته والطريقة التي حدث بها هزا عنيفا .

كان صاحب الكلب ، مسيو ديسميد ، رجلا صموتا نزقا متين البنيان كسنديانة ، له حاجبان كثيفان ووجه ساموراي غاضب ، دائما على ثقة لا تتزعزع بأنه على حق ، ولا يغير رأيه بسهولة ، وفوق كل ذلك كان مشاغبا مشاجرا . عمل حياته كلها في وايزر ، **نصنع اللعب الخشبية منذ ١٩٢١** ، وهي أهم مؤسسة في بوفال ، وتخلل مسيرَته فيها الكثيرُ من الاشتباكات والمشاجرات ، بل إنه تعرض للطرد مرة ، قبل سنتين من وقوع الأحداث التي نرويها هنا ، لأنه صفع رئيس العمال مسيو موشوت أمام زملائهما كلِّهم .

كانت له ابنة في الخامسة عشرة ، اسمها فالانتين تتدرب لتصبح مصففة شعر في سانت هيلار وولد في السادسة اسمه ريمي ، يكن لأنطوان إعجابا لا حدود له ويتبعه كلما سنحت له الفرصة لذلك .

والواقع أن ريمي لم يكن عبئا ثقيلا إذ قُدَّ على صورة أبيه فامتلك في سنه تلك جسدَ حطاب جعله قادرا على أن يذهب دون أن ينال منه التعب مع أنطوان إلى سانت أوستاش بل وإلى

المستنقع . كانت مدام ديسميد ترى في أنطوان ، ولم تكن مخطئة في ذلك ، ولدا جديرا بتحمل المسؤولية وأهلا لأن يؤتمن على ريمي إذا دعت الحاجة . وكان ريمي بكل الأحوال يتحرك بحرية كبيرة ، فبوفال مدينة صغيرة يعرف فيها سكان الحي الواحد بعضهم بعضا . والأطفال ، سواء ألعبوا قرب ورشة النشارة أم ذهبوا إلى الغابة ، أم قصدوا مارمونت أو فوزيلبير ، هم دائما على عين شخص بالغ يعمل أو يمر من هناك .

ويوما اصطحب أنطوان ، الذي لم يعد يطيق الاحتفاظ بالسر لنفسه ، ريمي ليُرِيَه كوخه المعلق . ولم يُخفِ الولد إعجابه بذلك الإنجاز الفني وركب المصعد صعودا ونزولا عدة مرات يغمره حماس جارف . بعد ذلك ، تحدث الولدان حديثا جادا ، ريمي ، اسمعني جيدا ، هذا سر ، إياك أن تخبر أحدا عن هذا الكوخ ، إلى أن فرغ تماما من بنائه ، هل فهمت؟ أيمكنني أن أعتمد عليك؟ لا تحدث أحدا في الأمر ، ها؟ وأقسم ريمي ، مرارا وتكرارا ، أيمانا مغلظة ، صليبا من حديد وصليبا من خشب ، وبرٌّ قسَمَه على حد علم أنطوان . فأن يشاركه أنطوان سرا من أسراره ، كان ذلك يعني بالنسبة له أنه يلتحق بالبالغين ويصبح واحدا منهم . ولقد أثبت أنه أهل للثقة .

كان يوم الثاني والعشرين من ديسمبر دافئا ، درجة الحرارة فيه مرتفعة قليلا فقط عن درجات الحرارة الموسمية المعتادة . كان أنطوان بالطبع متحمسا لمجيء عيد الميلاد (كان يرجو أن يقرأ أبوه رسالته بتمعن هذه المرة ويرسل له بلايستايشن) ، لكن إحساسه بالوحدة زاد بعض الشيء عما هو عليه عادة .

ولم يتمالك نفسه وانطلق ، فحدث إيميلي عن الكوخ .

كانت قد رافقته إلى الغابة قبل أيام وحدقت في البناء بشك وريبة ، هل علينا أن نصعد؟ لم تكن مهتمة بالهندسة المدنية ولم تأت إلا لتغازل أنطوان ، ولم تتصور أن تفعل ذلك على علو ثلاثة أمتار فوق الأرض ، فتغنجت قليلا وهي تلف خصلة شقراء حول سبابتها وعندما رأت أن أنطوان الذي أغاظته ردة فعلها لم يعد يريد أن يجاريها في لعبتها ، انصرفت .

وترك مجيئها أثرا مُرًا في فم أنطوان ، ستحدث إيميلي الآخرين بالأمر ، وشعر بإحساس غامض بالسخف .

وعاد من سانت أوستاش ، لكن لا جوُّ عيد الميلاد ولا فكرة الهدية القادمة استطاعا أن ينسياه إخفاقه مع إيميلي الذي راح يتخذ شيئا فشيئا في ذهنه شكل الإهانة .

والحق أن جو الأعياد في بوفال اصطبغ إلى حد كبير بصبغة القلق . طبعا كان هنالك كل شيء ، الزينة ، شجرة الميلاد في الساحة ، حفل الجوقة البلدية . . . الخ ، واستسلمت المدينة ككل سنة لاحتفالات نهاية السنة ، لكن بشيء من التحفظ ، منذ أن صارت شركة وايزر ، التي أحدق بها الخطر ، تهدد بدورها الجميع . فلم يعد سرا عزوفُ الناس عن اللعب الخشبية . صحيح أنهم يتشبثون بصناعة الدمى والدوامات وقطارات الدردار ، لكنهم يهدون لأولادهم ألعاب الفيديو ويشعرون بأن شيئا ما ليس على ما لا يرام وأن ثمة ما يهدد المستقبل . كانت الإشاعات عن تراجع نشاط شركة وايزر ما تفتأ تسري من حين لآخر . كان عدد العمال قد تناقص من سبعين إلى خمسة وستين إلى ستين ثم إلى اثنين وخمسين ، وسُرِّح مسيو موشوت رئيس العمال قبل سنتين ولم يجد عملا آخر بعد ، حتى مسيو ديسميد ، رغم أنه من أقدم العمال في

المصنع ، انتابه القلق ولم يفارقه . كان يخشى ، مثل آخرين كثر ، أن يقرأ اسمه على القائمة القادمة ، التي ادعى بعضهم أن موعدها قريب ، ما أن تنقضي الأعياد . . .

في ذلك اليوم ، قبيل الساعة السادسة بعد الزوال ، اجتاز أوليس الطريق الرئيسية في بوفال مقابل الصيدلية فدهسته سيارة ، ولم يتوقف السائق .

وحُمِل الكلب إلى منزل آل ديسميد وانتشر الخبر فهرع أنطوان ليرى أوليس ممددا في الحديقة لا يكاد يستطيع التنفس . ورفع رأسه إلى أنطوان الذي وقف عند الحاجز مسمرا في مكانه . كان لا بد من استدعاء البيطري لأن الحيوان كسر له ضلع وساق . ونظر مسيو ديسميد مليا إلى كلبه ويداه في جيبيه ثم دخل إلى بيته وعاد يحمل بندقيته وأطلق عليه في بطنه طلقة من مسافة قريبة جدا ، ثم وضع جثة الكلب في كيس بلاستيكي يجمع فيه الحصى . وهكذا قضي الأمر .

كان كل شيء قد حدث بسرعة كبيرة بغتت أنطوان الذي تجمدت الكلمات في فمه فلم يستطع أن يقول شيئا . وحتى لو فعل فلم يكن سيجد من سيستمع له لأن مسيو ديسميد كان قد دخل إلى بيته وأغلق عليه بابه . كان الكيس الذي يحوي بقايا أوليس يقبع في طرف الحديقة ، مع أكياس أخرى مملوءة بأنقاض الجص والإسمنت من المَكوِ الذي كان مسيو ديسميد قد هدمه قبل أسبوع ليعيد بناءه من جديد .

عاد أنطوان إلى منزله محطما .

كان ألمه كبيرا إلى درجة أنه عندما جاء المساء لم يستطع أن يحدث أمه بما حصل وهي التي لم تنتبه له على أي حال . وشعر

بأنه يختنق وبقلبه مثقلا وهو لا ينفك يستعيد المشهد الرهيب ، البندقية ، رأس أوليس وعيناه تحديدا ، شبح مسيو ديسميد العظيم . . . وإذ لم يستطع أن يتكلم أو حتى أن يأكل ، ادعى أنه ليس لا على ما يرام وصعد إلى غرفته وانخرط في بكاء طويل . ومن الطابق الأرضي جاءه صوت أمه يسأله «أنطوان هل أنت بخير؟» ولدهشته استطاع أن ينطق جملة «نعم أنا بخير» اكتفت بها مدام كورتان . ولم ينم إلا بعد ذلك بوقت طويل وغشت نومَه كلاب ميتة وبنادق ، واستيقظ منهكا مكدودا .

كانت مدام كورتان تخرج باكرا جدا كل يوم خميس للعمل في السوق . كان ذلك ، من بين كل الأعمال الصغيرة التي كانت تحصل عليها هنا وهناك خلال السنة ، الوحيدَ الذي كانت تكرهه حقا . والسبب مسيو كوفالسكي . كانت تعتبره شرها يبخس موظفيه أجورهم ويبطئ دائما في أدائها لهم ويبيعهم بنصف ثمنها سلعا كان الأجدر به أن يرميها . وعليها أن تستيقظ عند الفجر من أجل دراهم معدودات! لكنها داومت على ذلك رغم كل شيء ومنذ ما يقرب من خمسة عشر عاما . هو حس الواجب . كانت تتحدث عن ذلك اليوم منذ عشيته وكان يقض مضجعها . ولم يكن مسيو كوفالسكي بطوله الفارع ونحافة جسمه ووجهه النافر العظم وخديه الهزيلين وشفتيه الرقيقتين وعينيه المتقدتين يوافق الصورة التي يرسمها الناس عادة للجزارين وبائعي الدواجن . أما أنطوان ، الذي كان يراه بانتظام ، فكانت ترعبه سحنته . وكان الرجل قد اشترى مقصبة في مارمونت ، أدارها مع مستخدَمَين بعد أن توفيت زوجته ، بعد سنتين من قدومه ليعيش في الجوار . «لا يريد أن يوظف أحدا آخر ، تتمتم مدام كورتان ، يقول إن عددنا كما هو الآن يكفي

وزيادة» . كان يعرض سلعته في سوق مارمونت وكل خميس يقوم بجولة على بعض القرى تنتهي في بوفال . كان وجه مسيو كوفالسكي الطويل النحيل محل سخرية الأولاد الذين أطلقوا عليه اسم فرانكنشتاين .

في تلك الصبيحة ، استقلت مدام كورتان كعادتها كل أسبوع أول حافلة متوجهة إلى مارمونت . وسمعها أنطوان الذي كان قد استيقظ منذ مدة تغلق الباب بحذر ، فنهض ونظر من نافذة غرفته فرأى حديقة مسيو ديسميد . هناك ، في زاوية لم يكن بإمكانه أن يراها ، كيس الحصى الذي . . .

واغرورقت عيناه بالدموع من جديد . وإن لم ترقأ دمعته فلم يكن ذلك بسبب موت الكلب فقط ، بل لأنه ردد في أرجاء روحه المتألمة صدى الوحدة التي كابدها في الأشهر الأخيرة ، فتراكمت عليه الخيبات والنكسات .

ولأنها لم تكن تعود للبيت قبل بداية الظهيرة ، كانت أمه تسجل المهام التي يجب عليه أداؤها في ذلك اليوم على لوح كبير معلق في المطبخ . وكانت هذه المهام تتضمن دائما بعض الأعمال المنزلية وأشياء يجب إحضارها من مكان ما وبعض المشتريات ووصايا لا تنتهي ، رتب غرفتك ، ثمة بعض الجانبون لك في البراد ، تناول على الأقل علبة لبن رائب وفاكهة . . . الخ .

رغم أنها تعد لكل شيء عدته مسبقا ، كانت مدام كورتان تجد دائما لابنها عملا لتكلفه به ولم تكن تعوزها الحيل لذلك . لمدة أسبوع كامل ، تأمل أنطوان الطرد القابع في خزانته والذي جاءه من أبيه . كان حجمه قريبا من حجم لعبة بلايستايشن عندما تكون في علبتها ، لكن قلبه لم يطاوعه على فتحه . كان موت الكلب

يلاحقه بسبب الطريقة العنيفة والسريعة التي حصل بها . وراح يؤدي ما عليه من عمل ، وقام بالمشتريات دون أن يكلم أحدا ولم يجب الخباز إلا بإيماءة من رأسه فلم يكن قادرا على أن ينبس ببنت شفة .

وفي بداية الظهيرة لم يكن يشغل باله إلا أمر واحد : كان مستعجلا للذهاب إلى ملجأه في سانت أوستاش .

وجمع كل الطعام الذي لم يأكله ليرميه في طريقه إلى هناك . وعندما مر أمام بيت آل ديسميد ، جاهد نفسه ألا ينظر إلى طرف الحديقة الذي جمعت فيه أكياس النفايات ، وحث السير . وتسارع نبض قلبه إذ أجج قربُه من الكيس نيرانَ حزنه من جديد . وضمَ قبضته وانطلق يركض ولم يتوقف حتى صار أمام كوخه . وعندما التقط أنفاسه رفع عينيه فبدا له المخبأ الذي أنفق في بنائه الساعات الطوال قبيحا قبحا مروعا . كل تلك القطع من الأقمشة الكتيمة والمشمعة جعلت كوخه يشبه الأكواخ القصديرية ، وتذكر تعبير الحنق والخيبة الذي ارتسم على وجه إيميلي عندما رأت البناء . . . فاستشاط غيظا وتسلق الشجرة ودمر كل شيء ، فألقى بعيدا قطع الخشب والألواح . وعندما صار كل شيء هباء منثورا ، نزل منهكا وأسند ظهره إلى الشجرة وانزلق إلى الأرض وبقي على حاله مليا وهو يفكر فيما سيفعله ، فلم يعد للحياة عنده طعم .

كان الشوق إلى أوليس يقتله .

وإذ بريمي هو الذي يطلع عليه .

رأى أنطوان شبحه الصغير يتقدم من بعيد . كان يمشي حذرا وكأنه يخشى من أن يسحق فطرا ، ثم صار أخيرا أمام أنطوان الذي أخفى وجهه بين ذراعيه واستسلم لنوبة بكاء عنيفة ، فظل واقفا

وقد أسقط في يده . ونظر إلى أعلى الشجرة فأدرك الدمار الذي لحق بالكوخ وفتح فمه ليتكلم وإذ بأنطوان يقاطعه فجأة ويصرخ في وجهه :

– لِمَ فعل أبوك ما فعل؟ قل ، لم فعل ما فعل؟

كان الغضب قد أقامه . وحدق ريمي فيه بعينين جاحظتين واستمع للومه دون أن يفهمه لأن كل ما قيل له في منزله هو أن أوليس قد هرب ، وكانت تلك عادته من حين لآخر .

في تلك اللحظة ، غمر أنطوان شعور عارم بالظلم واستبد به فصار شخصا آخر . وتحول أثر الصدمة الذي أحدثه موت أوليس إلى غضب أعماه فأمسك العود الذي كان يستخدمه منذ وقت قريب ذراعا للرافعة ولوح به كما لو كان ريمي كلبا وكان هو صاحبه .

كانت تلك أول مرة يراه ريمي فيها على هذه الحال ، فتملكه الرعب . واستدار وخطا خطوة . وإذ بأنطوان يمسك بالعود بكلتا يديه ويضرب به الولد وقد ذهب الغضب بعقله . وأصابت الضربة ريمي في صدغه الأيمن فخرَّ صريعا . واقترب أنطوان منه ، ومد يده إليه وهزه من كتفه .

ريمي؟

كان مغشيا عليه ولا شك .

أداره ليربت على خديه لكن ما أن صار الولد مستلقيا على ظهره حتى رأى أنطوان عينيه المفتوحتين .

عينان كابيتان تحملقان .

وانبجست الحقيقة فجأة في ذهنه : لقد مات ريمي .

٢

أفلتت يداه العود ، ونظر إلى جثة الولد المجندلة غير بعيد عنه . ثمة شيء غريب جدا في وقفته لا يجد له تفسيرا ، استسلاما ربما . . . ما الذي فعلته؟ والآن ماذا الذي علي فعله؟ الذهاب لإحضار النجدة؟ كلا ، لا يمكنه أن يتركه هنا ، لا ، ما يجب فعله هو حمله بسرعة إلى بوفال ، مباشرة إلى الدكتور ديولافوا .

- لا تخف ، سآخذك إلى المستشفى

قال ذلك بصوت خفيض جدا وكأنه يخاطب نفسه .

انحنى وأدخل ذراعه تحت جسد الولد ثم وقف . لم يشعر بقواه وحسنا كان ذلك لأن أمامه طريقا طويلة ليقطعها . . .

وانطلق يركض لكن جسد ريمي صار بين ذراعيه فجأة ثقيلا جدا . وتوقف أنطوان . لا هو ليس ثقيلا بل رخو ، فرأسه مرتدة إلى الخلف تماما وذراعاه مسدلتان على جنبيه وساقاه تتراقصان كأنهما ساقا دمية . كأنه يحمل كيسا .

باخت عزيمة أنطوان دفعة واحدة ، فثنى ركبتيه ووضع ريمي على الأرض رغما عنه .

أحقا . . . مات؟

أمام هذا السؤال ، تعطل ذهن أنطوان وتوقف كل شيء فيه عن العمل ، ولم تنقدح فيه أية فكرة .

داور على الجثة ليتأمل وجهها . وبذل جهدا رهيبا ليجلس

القرفصاء . وتأمل لون البشرة ، والفم المنفرج . . . ومد يده لكنه لم يستطع أن يلمس وجه الولد ، حال بينهما جدار خفي واصطدمت يده بعقبة غير ملموسة منعتها من أن تصل إليه .

وبدأت تبعات ما حصل تتضح في ذهن أنطوان .

قام من جلسته وراح يذرع المكان طولا وعرضا وهو يبكي . ما عاد يستطيع النظر إلى جثة ريمي ، فأخذ يجيء ويذهب وقد تكورت قبضتاه وشُدت عضلات جسده كلها واستثير ذهنه ، ما العمل؟ الدموع تنهمر مدرارا على وجنتيه حتى أنه ما عاد يرى شيئا أمامه ، ومسح عينيه بكم قميصه .

وإذَا بموجة أمل تغمره ، لقد تحرك ريمي لتوه!

ودَّ لو أنه يتخذ كل ما في الغابة شهيدا : لقد تحرك ، أليس كذلك؟ أرأيتموه؟ ومال عليه .

لا ، لم تتحرك شعرة واحدة منه ، لا شيء .

إلا المكان الذي أصابه فيه العود والذي بدأ لونه يتغير ، فصار الآن أحمر داكنا وارتسم علامةً كبيرة تغطي وجنته كلها وتتمدد كبقعة نبيذ على سماط .

لا بد من التأكد ومعرفة إن كان يتنفس أم لا . لقد شاهد أنطوان على التلفاز مرة كيف يتم ذلك ، كان يؤتى بمرآة وتوضع تحت شفتي المرء ليُرى هل ثمة بخار . لكن هنا ، صِدقًا ، من أين له بمرآة . . .

ثمة أمر واحد فقط يمكن فعله : حاول أنطوان أن يركز فمال على الجثة وأرهف سمعه لكن أصوات الغابة ودقات قلبه منعته من أن يسمع شيئا .

ربما ينبغي فعل ذلك بطريقة أخرى . فتح أنطوان عينيه جيدا

ومد يده موسعا بين أصابعه إلى صدر ريمي ، تحت قميصه . وما أن مس صدره حتى تنفس الصعداء : ثمة حرارة! لا يزال حيا! عندئذ وضع يده بثبات أكبر على بطن الولد . أين القلب؟ وبحث عن قلبه هو ليستدل به . أعلى ، إلى اليسار ، لم يكن يرى ، كان يتخيل . . . وإذَا به من فرط ما تحسس ينسى ما الذي يفعله . أخيرا شعرت يده اليسرى بقلبه بينما استقرت يمناه على المكان نفسه من صدر ريمي . لكن بينما شعرت إحدى يديه بالدق عنيفا تحتها ، لم تطبق الأخرى إلا على الصمت . وضغط أكثر ، ثم جس هنا وهناك ، لكن لا شيء ، فألصق كلتا يديه ليلامس سطحهما الجسد ، لكن لا شيء ينبض . لقد مات القلب .

كان ذلك فوق طاقة أنطوان فانهال عليه صفعا ، لماذا مت ، ها؟ لماذا مت؟

ترنح رأس الولد تحت الضربات فأمسك أنطوان . ما الذي دهاه؟ يضرب ريمي . . . الميت!

وقف أنطوان مضنى منهكا .

ما العمل؟ ما انفك السؤال نفسه يحفر ذهنه ، لكنه لم يحر جوابا وظل يراوح مكانه .

وعاد يذرع المكان جيئة وذهابا أمام الجثة وهو يفتل يديه ويمسح دموعه التي سحَّت كالسيل العرم .

عليه أن يسلم نفسه . للشرطة . ماذا سيقول لهم؟ كنت مع ريمي ، وقتلته بضربة عود؟

ثم لمن سيقول هذا الكلام ، فالدرك مقره في مارمونت ، ومارمونت تبعد ثمانية كيلومترات من بوفال . . . ستعلم أمه بالأمر عن طريق الدرك . سيقتلها ذلك ، لن تتحمل أبدا فكرة أن تكون أمَّ

قاتل . وأبوه ، كيف سيستقبل الأمر؟ سيرسل طرودا . . .

أنطوان الآن في محبسه . زنزانة ضيقة يشاركه فيها ثلاثة أولاد أكبر منه سنا ، معروفون بغلظتهم . سحنتهم كسحنة شخصيات أُوز . كان قد شاهد عددا من حلقات المسلسل خفية عن أمه . أحد شخصياته رجل مرعب اسمه فيرنون شيلينغر ، مولع بالغلمان . عندما سيودع أنطوان السجن ، سيجد نفسه وجها لوجه مع شخص مثل هذا ، ما من شك في ذلك .

ومن سيأتي لزيارته؟ مر الجميع أمام عينيه ، الرفاق ، إيميلي ، ثيو ، كيفين ، ناظر المدرسة ، وطبعا مسيو ديسميد ، بهيكله الضخم والبذلة الزرقاء التي يرتديها للعمل ، ووجهه المربع ، وعينيه الرماديتين!

كلا ، لن يذهب أنطوان للسجن ، لن يجد الوقت لذلك أصلا ، فما أن يعلم مسيو ديسميد بما حصل حتى يقتله حتما ، كما فعل مع كلبه أوليس ، بطلقة من بندقيته في بطنه .

ونظر إلى ساعته ، الثانية والنصف بعد الزوال ، الشمس في كبد السماء وأنطوان يتصبب عرقا .

عليه أن يحزم أمره ، لكن شيئا ما يخبره أنه قد فعل : سيعود إلى منزله دون أن يقول شيئا ، ويصعد إلى غرفته كما لو أنه لم يخرج منها قط . من سيخمن أنه هو الفاعل؟ لن يكتشف أحد اختفاء ريمي قبل . . . وحاول أن يجري حسابا ذهنيا لكن كل شيء اختلط عليه ، فعدَّ على أصابعه ، ولكن ما الذي عليه أن يعده؟ كم من الوقت يلزم لكي يجدوا ريمي؟ ساعات ، أياما؟ ثم ما أكثر ما شوهد ريمي مع أنطوان ورفاقه ، ستستجوبهم الشرطة حتما . . . لعل الرفاق كلهم متحلقون الآن حول البلايستايشن في منزل كيفين ،

ووحده هو ، أنطوان ، ليس معهم ، ولأجل ذلك ستتوجه الأنظار كلها إليه .

لا ، ما يجب فعله هو العمل على ألا يجد أحد ريمي .

وعبرت ذهنه صورة كيس النفايات الذي وضعت فيه جثة الكلب الميت .

أن يتخلص منه .

لقد اختفى ريمي ، ولا أحد يعلم ما الذي حل به ، نعم هذا هو الحل ، سيبحث الناس عنه ولا أحد سيتخيل أن . . .

أنطوان لا يزال يغدو ويروح أمام الجثة التي لم يعد يريد النظر إليها ، فمرآها لوحده يرعبه ويشل تفكيره .

ماذا لو كان ريمي قد أخبر أمه أنه ذاهب ليلحق بأنطوان في سانت أوستاش؟

ربما يكون البحث عنه قد بدأ الآن وقريبا سيسمع أصوات تنادي «ريمي! أنطوان!»

شعر أنطوان بالفخ يطبق عليه ، واغرورقت عيناه من جديد . لقد انتهى أمره .

عليه أن يخفي الجثة ، ولكن أين؟ وكيف؟ لو أنه لم يدمر الكوخ لحمل ريمي إليه ، فلن يبحث عنه أحد هناك وستأكله الغربان .

وحطمته الكارثة لهولها . الكارثة . بضع ثوان كانت كافية لتسلك حياته مسلكا آخر . هو الآن قاتل .

صورتان لا تنسجمان . لا يمكن أن تكون قاتلا وأنت في الثانية عشرة من عمرك . . .

وغمره حزن عظيم .

الوقت يمر ، وأنطوان لا يعلم حتى الآن ما الذي عليه أن يفعله ، لا بد أن القلق بدأ ينتاب الناس في بوفال الآن .

المستنقع! سيقولون إنه غرق!

لا ، ستطفو الجثة . ليس لأنطوان ما يجعلها تنزل إلى القاع . وعندما سيستخرجونها سيرون أثر الضربة في رأسها . هل سيصدقون أن ريمي سقط لوحده فارتطم رأسه؟

ضاع أنطوان .

شجرة الزان الكبيرة! أنطوان يراها فجأة كما لو كانت أمامه .

هي شجرة عظيمة مالت منذ بضع سنين . ثم وقعت ذات يوم ودون سابق إنذار ، كما ينطفئ المسنون فجأة ، وجرفت معها قاعدتها وجذورها ، كفطيرة كبيرة من التربة بطول رجُل ، وجرفت معها أشجارا أخرى فنسجت كل هذه الأشجار المتهاوية شبكة من الأغصان لعب فيها أنطوان ورفاقه عددا من المرات منذ مدة . ولم يعد يعجبهم المكان ، دون سبب معين . . . ووقعت الشجرة على ما يشبه الجحر ، حفرة واسعة لم يجرؤ الرفاق ، حتى قبل وقوع الشجرة ، على النزول إليها ، فلا أحد يعلم إلى أين توصل ولا حتى إن كانت عميقة . لكن أنطوان لا يجد أمامه حلا غيرها .

وإذ حزم أمره ، استدار .

تغير وجه ريمي مرة أخرى ، لونه الآن رمادي . وتمدد الورم الدموي وقد صار أدكن فأدكن . وانفرج فمه أكثر فأكثر . وانزعج أنطوان . محال أن يقوى على الذهاب إلى هناك ، على الطرف الآخر من سانت أوستاش ، ففي الأحوال العادية يلزمه ما لا يقل عن ربع الساعة .

لم يكن يتصور أنه لا يزال لديه دموع ليذرفها . لكنها تتهاطل

مدرارا . تمخط بأصابعه ومسحها بأوراق الشجر ثم اقترب من جثة الصبي ومال عليها وأمسك بالرسغين . نحيفان دافئان مرنان كحيوانين صغيرين نائمين .

وشرع أنطوان يسحبه وهو يشيح بوجهه عنه . . .

إن هي إلا خطوات قليلة حتى بدأ يتعثر بالأغصان والجذور . لم تعد غابة سانت أوستاش ملكا لأحد منذ زمن بعيد . هي ركام لا يمكن تخيله من الأدغال الكثيفة والأشجار المتراصة أو المتراكمة فوق بعضها ومن الأشواك . لا يمكنه أن يسحب جثة هنا ، سيكون عليه أن يحملها .

لكن أنطوان لا يريد أن يسلم بالأمر .

الغابة من حوله تطقطق وتَصِرُّ كالسفينة القديمة ، وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى . كيف سيستجمع شجاعته؟

لا يعلم من أين جاءته القوة لكنه مال فجأة ورفع ريمي دفعة واحدة وحمله على ظهره . وطفق يمشي مشيا سريعا متجنبا الأرومات عندما لا يستطيع القفز عليها .

عند أول عثرة ، علقت رجله بجذر شجرة ووقع ، ووقعت جثة ريمي عليه ، ثقيلة كأخطبوط ، رخوة ، غامرة ، فصرخ وأبعدها عنه وقام وهو يصيح والتصق بشجرة يحاول التقاط أنفاسه التي تناثرت منه . . . كان يعتقد أن الجثة جامدة صلبة ، فلقد شاهد صورا عن موتى متيبسين مثل الأبواب . لكن هذه الجثة لدنة كما لو أنها بلا عظام .

حاول أنطوان أن يلملم شتات نفسه . هيا ، يجب إخفاء هذه الجثة ، وسيكون كل شيء على ما يرام بعد ذلك . اقترب وأغمض عينيه وأمسك ريمي من ذراعيه ومال عليه ثم حمله من جديد على

كتفيه واستأنف المشي بحذر . شعر وهو يحمله هكذا على ظهره بأنه رجل إطفاء ينقذ شخصا من حريق . بيتر باركر عندما يحمل ماري جين .

الجو بارد لكنه يتصبب عرقا . أخذ التعب منه كل مأخذ ، قدماه تزنان أطنانا وكتفاه متهدلان . لكن عليه أن يحث السير ، فلا بد أنهم قلقون في بوفال الآن .

ستعود أمه إلى البيت بعد قليل .

وستأتي إليها مدام ديسميد لتسألها عن ريمي .

وعندما سيعود هو ، سيُسأل السؤال نفسه وسيجيب ، ريمي ، لا ، لم أره ، كنت . . .

أين كان؟

وهو يتسلق الأرومات ويتجنب الأشواك التي لا يمكن عبورها ويصطدم بالجذور العارضة التي تجري على وجه الأرض ، مترنحا تحت ثقل الصبي الميت ، راح يسأل نفسه أين تراه يكون إن لم يكن هنا ، لكنه لم يحر جوابا . «ينقصه الخيال هذا الصبي . . . « كانت تلك كلمات معلمه السنة الماضية ، قبيل انتقاله إلى الصف السادس . لم يحبه مسيو سانشيز يوما ، لم يكن يهتم إلا لأدريان ، كان المفضل عنده دائما . بعض الإشاعات كانت تقول إن مسيو سانشيز ووالدة أدريان . . . امرأة تتعطر ، لا وجه للمقارنة بينها وبين والدة أنطوان ، كان الجميع ينظرون إليها عند الخروج من المدرسة ، تدخن في الشارع وترتدي . . .

كان ذلك سيحدث حتما ، وقع ثانية وارتطمت رأسه بجذع شجرة وأفلت حمله وأطلق صرخة وهو يشاهد ريمي يمر فوقه ويقع أرضا . ومد يده دون تفكير . . . بل إنه ظن ، للحظة ، أن ريمي قد

تألم ، لقد فكر فيه كما لو كان حيا .

من مرقده ، أنطوان يرى ظهر ريمي وساقيه النحيفتين ويديه الصغيرتين ، يا له حزن ما بعده حزن .

لم يعد أنطوان يحتمل . فظل على حاله تلك ، ممددا بين أوراق الشجر ، في رائحة التراب التي استنشقها كما كان يستنشق فرو أوليس . ونال منه التعب فوَدَّ لو أنه ينام حيث هو ، وأن ينغمس في الأرض ويختفي هو أيضا .

سيعدل عن الأمر كله . لن يقوى على البلوغ به إلى نهايته .

ووقعت عيناه على ساعته . لا بد من أن أمه قد عادت للبيت الآن . ليس من السهل تفسير ذلك ، لكنه إن استطاع أن يقف على قدميه ثانية ، فلأجل أمه فعل . هي لا تستحق هذا كله . ستموت . سيكون قاتلها هي أيضا ، إن علم الناس أن . . .

قام وهو يتألم . خُدشت ذراعُ ريمي وساقُه . ولا يملك أنطوان إلا أن يتخيل أنه تألم هو أيضا ، مهما بدا ذلك جنونا ، ثمة أمر لا يستوعبه عقله ، أن ريمي مات ، كلا ، لا يمكنه أن يقر بذلك . هذه ليست جثة التي يحملها على ظهره من جديد وينقلها عبر غابة سانت أوستاش ، بل الصبي الذي يعرفه والذي كان يُصعِده على الرافعة مع أوليس فيصرخ واااااااووووو! كان يعشق تلك الآلة .

وبدأت تنتاب أنطوان حالة من الهذيان .

بينما هو يتقدم بخطى واسعة ، رأى ريمي يتقدم هناك ، أمامه وهو يبتسم ويلوح له بيده ، مرحبا ، لطالما كان معجبا بأنطوان . أوه ، عجبا؟ أهذا كوخ؟ ثم يرفع رأسه إلى الأعلى وينظر ، هو ولد مستدير الوجه ، عيناه تقولان أشياء كثيرة وتعبران عما في نفسه . بالنسبة لولد في سنه ، هو شديد الفصاحة . حسنا ، هو صبي لا أكثر ،

ويفكر كما يفكر الصبيان ، لكنه مثير للاهتمام ويطرح أسئلة في غاية الوجاهة . . .

لم يشعر أنطوان بالطريق . هو ذا قد وصل .

ها هي هناك ، شجرة الزان المستلقية .

لكي يصل إلى الجذع وإلى الجحر تحته ، عليه أن يصارع أدغالا كثيفة ، لا سيما وأن الظلمة أكثر حلكة في هذا الجزء من الغابة .

كف أنطوان عن التفكير وتقدم . ترنح أكثر من مرة فتشبث كيفما اتفق وكاد يفلت حمله ومزق كُمَّ قميصه ، لكنه تابع تقدمه . وارتطمت رأس ريمي بشجرة محدثة ضجة مخنوقة . . . وعلقت ذراعاه بالأشواك مرتين ، فكان عليه أن يجذبه لكي يخلصه .

أخيرا ، بعد حرب ضروس ، بلغ مقصده .

على بعد مترين منه ، مباشرةً تحت جذع الزان الضخم ، فجوةُ الجحر السوداء الفاغرة . . . ككهف . لكي يبلغها عليه أن يرقى أكمة صغيرة من التراب .

وضع أنطوان الجثة عند قدميه ثم انحنى بحذر وبدأ يدحرجه كالبساط .

وارتطم رأس الصبي هنا وهناك لكن أنطوان أغمض عينيه واستمر . وعندما فتحهما ، وجد نفسه في منتصف الأكمة . هذا الصدع الكبير المظلم الذي يقترب منه الآن يخيفه ، كأنه فتحة فرن . أو فم غول . لا أحد يعلم ما بداخله . ولا حتى إن كان عميقا . ثم ما هو أصلا؟ لطالما اعتقد أنطوان أنه الحفرةُ التي تركتها أرومة شجرة أخرى اجتثت من جذورها واستلقت شجرة الزان عليها .

حسنا ، لقد وصل الآن .

لم يُشعر ذلك أنطوان بأي راحة . جثة ريمي مسجاة عند قدميه ، على شفا الحفرة ، والإثنان يهيمن عليهما جذع شجرة الزان المستلقية العملاق .

عليه الآن أن يدفعه ، وهو لا يزال يتردد .

ضغط بيديه على صدغيه وهو يصرخ ألما . اتكأ على قشرة الشجرة ، وقد أسكره الحزن ، وقدَّم رجله اليمنى وأدخلها تحت خصر الصبي ورفعها قليلا .

رفع ناظريه إلى السماء ثم مد ساقه فجأة .

تدحرجت الجثة ببطئ ، وعند أقصى حافة الحفرة توقفت كما لو أنها تتردد ، ثم فجأة ، انقلبت وسقطت .

آخر صورة سيتذكرها أنطوان هي صورة ذراع ريمي ، يده التي بدت وكأنها تحاول التشبث بالأرض وتصارع لكي لا تقع .

وتسمر أنطوان في مكانه .

اختفت الجثة . وانتابه الشك لوهلة فجثا على ركبتيه ومد ذراعه ، على استحياء في البداية ، وتحسس الحفرة .

لم تلمس يده شيئا .

انتصب قائما وقد أصابه الذهول . لم يعد هنالك شيء . لم يعد هنالك من ريمي ، لا شيء ، لقد زال كل شيء .

إلا صورة اليد الصغيرة ذات الأصابع الملتوية وهي تختفي رويدا رويدا . . .

استدار أنطوان وقفز فوق الأشواك بعفوية وبخطى عملاقة .

عندما وصل إلى حدود الحَرْجَة ، راح ينزل الهضبة بسرعة ، وهو يركض ويركض ويركض .

لكي يسلك أقصر السبل ، عليْه أن يجتاز الطريق مرتين . ربض

أنطوان خلف حرجة ، ولأنه كان مباشرة أمام منعطف ولا يستطيع أن يرى إن كان ثمة سيارات قادمة ، راح يصيخ السمع ، لكن دقات القلب اللعينة تلك . . .

وقف واستطلع بسرعة على يمينه وشماله ثم حزم أمره ، وعبر الطريق ركضا وغاب في الغابة من جديد وفي اللحظة نفسها خرجت شاحنة مسيو كوفالسكي من المنعطف .

قفز أنطوان في الحفرة وثبت في مكانه . وسارت الشاحنة في طريقها .

لم ينتظر ، واستأنف عدوه . على بعد ثلاثمائة متر من المدينة ، توقف للحظة في الأدغال ، لكنه شعر بأنه لا ينبغي له أن يفكر بل عليه أن يقرر وبسرعة . ترك الغابة ومشى بخطى اجتهد أن يجعلها وئيدة واثقة وهو يفتش عن أنفاسه .

هل يبدو على هيئته المعتادة؟ أعاد ترتيب شعره . ثمة خدوش طفيفة على يديه ، ليس فيها ما قد يثير الانتباه . بيد عجلى نفض التراب والغصينات التي علقت بقميصه وبسرواله . . .

كان يعتقد أنه لن يجرؤ على العودة إلى منزله ، لكن لا ، بل على العكس تماما ، المخبزة ودكان البقالة وباب دار البلدية ، كل هذه الأماكن المألوفة أعادته إلى حياته التي اعتادها ، وأبعدت الكابوس عنه .

ليداري كُمَّ القميص الذي تمزق ، بحث عن الزُّدن ليقبض عليه بكفه .

وخفض عينيه .

لقد أضاع ساعته .

٣

هي ساعة غطس خضراء بإطار أسود وسوار أخضر مشع وعدد مدهش من الوظائف : مقياس لسرعة الدورات ، ونظارة دوارة تحدد الساعة في مختلف بلدان العالم ، وأخرى تقيس الوقت ، وآلة حاسبة . . . كانت ساعة كبيرة جدا لا تناسب معصم أنطوان ، لكن ذلك تحديدا هو ما أعجبه فيها . وليحصل على الإذن بشرائها ، كان عليه أن يلاحق أمه لأسابيع ولم يحصل عليه إلا بعد أن قطع على نفسه العهود والمواثيق وألزم نفسه بأمور شتى وبعد أن سمع موعظة طويلة عن مفاهيم التوفير والضروريات والكماليات وعن إدارة الرغبة ومفاهيم أخرى لم يكد يفقه منها شيئا كانت أمه تجدها فيما ينشر في المجلات من مقالات تعنى بالطفولة والتربية .

كيف سيفسر اختفاءها المفاجئ؟ فأمه ستهتم للأمر لا محالة ، لأن لها عينا لا تخطئ مثل هذه التفاصيل .

هل يجدر به أن يعود أدراجه؟ أين يمكن أن يكون قد أضاعها؟ لعلها وقعت في الحفرة ، تحت شجرة الزان الكبيرة . . . ماذا لو كان قد أضاعها على درب عودته إلى المنزل؟ بل ربما على طريق السيارات؟ ماذا لو وجدها أحدهم ، هل ستكون حجة عليه؟ بل ألن تكون علامة تهدي المحققين مباشرة إليه؟ .

شوشت كل تلك الأسئلة تفكيره فلم ينتبه فورا إلى أن حديقة بيت آل ديسميد عمَّها هرج ومرج غير عاديين .

كان غليان من نوع ما يهيج سبعة أو ثمانية أشخاص ، نساءً في معظمهم ، البقّالة التي لم يرها أحد قط في متجرها ، مدام كيرنيفيل ، كلودين وحتى مدام أنطونيتي العجوز ، التي كانت نحيفة إلى حد التلاشي ، ترتعش وتغرس في ناظريك عينيها الزرقاوين اللتين تشبهان عيون الساحرات ، وفوق كل ذلك كان اللؤم من سُوسِها .

وغطى هذا الخشرم شبح مدام ديسميد التي كان صوتها الأخَنُّ بعضَ الشيء يسمع خافتا . كانت مصابة بالزكام طوال السنة . «الحساسية للنشارة ، كانت تقول دائما بنبرة العارف بالأمور ، ماذا يمكن أن نفعل حيال ذلك في منطقة كهذه المنطقة . . .! « ثم تسدل ذراعيها فتصفق يداها على فخذيها بصوت كصوت اللطمة لتشدد على القدر المحتوم الذي يحيط بها .

عندما رأى كل هذه الجلبة في الحديقة ، أبطأ أنطوان مشيته . وسمع خلفه خطوا حثيثا ، هي إيميلي . كانت قد وصلت إليه ، لاهثة ، عندما صاح صوت :

- عجبا ، ها هو! ها هو أنطوان!

تركت مدام ديسميد الحديقة شقت طريقها في الزحام ومنديلها في يدها وهرعت إليه . وسرعان ما تبعها الحاضرون كلهم .

- هل تعلم أين هو ريمي؟ سألت مدام ديسميد على عجل

علم فورا أنه لن يقوى أبدا على الكذب . هز برأسه وهو يكاد يختنق . كلا . . .

- وإذًا؟ قالت مدام ديسميد

هذه الكلمة لوحدها ، وقد نطق بها صوت مخنوق مبحوح ، كانت تحمل من الجزع ما كاد يجعل أنطوان يجهش بالبكاء . ولم

يتمالك نفسه إلا عندما تكلمت البقالة :

- لم يكن معك . . .

ازدرد ريقه ، وأجال النظر حوله . ووقعت عيناه على إيميلي التي كبحت اندفاعها نحو أنطوان وراحت تتابع المشهد بفضول عظيم . وأجاب أخيرا بصوت خفيض :

- كلا . . .

كان على وشك الانهيار عندما أردفت البقالة :

- أين رأيته لآخر مرة؟

كان سيقول إنه لم يره في يومه هذا . وأشار بغموض إلى الحديقة وقد شحب لون وجهه . وانطلقت التعليقات من جديد :

- ولكن ، صاحت البقالة ، لا يمكن أن يكون قد تبخر ، ذلك الصبي!

- لو كان قد مر من هنا لرآه أحد

- من يعلم . . .!

ظلت مدام ديسميد تتفرس في وجه أنطوان لكنها كانت توحي بأنها تنظر عبره وبأنها بدأت تدرك حقا ما الذي كان يحدث . كانت شفتها السفلى متهدلة ونظرتها جامدة . وأصاب ذهولُها أنطوان في مقتل .

دار على عقبيه ببطء ، واتجه إلى منزله ، دون حتى أن ينظر إلى إيميلي .

قبل أن يفتح الباب ، استدار . ووجد شبها غريبا بين مدام ديسميد وزوجة مسيو بريفيل ، التي كانت أحيانا تفلت من رقابة ممرضتها وينتهي بها الأمر في الشارع تائهة حيرى تنادي ابنتها الوحيدة التي ماتت منذ أكثر من خمسة عشر عاما . بجانب مشهد

التعاسة والذهول ذاك ، كانت شقرة إميلي ونضارتها بمثابة مفارقة مؤلمة .

تنفس أنطوان الصعداء وهو يدخل منزله . في الصالة كانت شجرة عيد الميلاد المكللة بالأشرطة والأزهار تلمع كأنها لافتة محل .

لقد كذب وصدَّقوه ، لكن هل يعني ذلك أنه نجا؟

وتلك الساعة . . .

لم تعد أمه بعد لكنها ستصل قريبا . صعِد إلى غرفته ونضى عنه قميصه وكوَّره ودسَّه تحت فراشه . ارتدى قميصا نظيفا واقترب من النافذة ، وأزاح الستارة بحذر شديد فأبصر في الشارع هيكل مسيو ديسميد الهائل وهو يعود من المصنع ويقترب من الحديقة التي كانت المجموعة الصغيرة قد عادت إليها . كان يطلق من القوة ومن الوحشية ما جعل أنطوان يتراجع . . . فكرة الوقوف بين يدي هذا الرجل كانت تلوي معدته . وانتابه الغثيان ، فسد فمه بيده ، وركض إلى الحمام . . .

سيجدون جثة ريمي لا محالة وسيعودون ليسألوه .

مشى حتى غرفته ، وخارت ساقاه ، وجثا على ركبتيه .

ربما بعد أقل من ساعة ، إن التقطوا ساعته على الطريق ، واكتشفوا أنه كذب . . .

ستحاصر المنزل دورية من الدرك لتقطع عليه طريق الهرب . سيقتحمون المكان ، وسيكونون ثلاثة ، بل أربعة . سيصعدون الدرج ، مدججين بأسلحتهم ، ببطء وظهورهم إلى الحائط ، وفي الخارج ، سيأمره بوق بأن يستسلم ، بأن ينزل رافعا كلتا يديه . . . لن يستطيع الدفاع عن نفسه . سيكبلونه بالأصفاد بلا إبطاء . «أنت

من قتل ريمي! أين أخفيت الجثة؟»

ربما سيغطون له رأسه ليجنبوه الإهانة . سيمر أمام أمه ، المنهارة في الطابق الأرضي ، وهي تنادي أنطوان ، أنطوان ، أنطوان . . . في الشارع ، ستجتمع المدينة كلها ، ستدوي صيحات ، صرخات ، أيها القذر ، أيها المجرم ، يا قاتل الأطفال! سيدفعه معتقلوه إلى الشاحنة ، لكن مسيو ديسميد سيطلع عليه في تلك اللحظة ، وبحركة واحدة سيزيل الستـرة التي وضعت على رأسه ليراه أنطوان وهو يمسك ببندقيته على مستوى خصره ويطلق النار .

شـعـر أنطوان بألم شـديد في بطنه ، وأراد أن يرجع إلى المرحاض ، لكنه بقي حيث هو ، جاثيا على ركبتيه في الغرفة ، مصعوقا ، وقد سمع لتوه صوتا يقول :

- أنطوان ، أنت هنا؟

بسرعة ، يجب ألا تحس بشيء .

قام ، وذهب يجلس إلى مكتبه .

كانت أمه قد وصلت ، وهي ذي تقف عند إطار الباب ، قلقة .

- ما الذي يحصل؟ ثمة هرج ومرج في منزل بيرناديت!

رسم على وجهه تعبير العاجز ، لا أعلم .

لكن مدام ديسميد استجوبته ، فلم يكن يستطيع أن يتجاهل ما يحدث حوله .

- إنه ريمي . . . إنهم يبحثون عنه .

- حقا؟ ولا أحد يعلم أين هو؟

تلك هي أمه .

- أمي ، إن كانوا يبحثون عنه ، فلأنهم لا يعلمون أين هو ، وإلا فلن يبحثوا عنه .

لكن مدام كورتان لم تكن تستمع إليه ، كانت قد اقتربت من النافذة . ووقف أنطوان خلفها مباشرة .

كان عدد المتجمهرين في الحديقة قد زاد منذ أن حضر مسيو ديسميد ، جلساؤه في المقهى ، وعدد من زملائه في المصنع . وركضت في السماء المكفهرة سحب تلونت بلون الفولاذ الرمادي . وفي هذا الضوء الغسقي ، بدا لأنطوان أولئك الناس المتحلقون حول مسيو ديسميد وكأنهم ضُراة يتكالبون عليه . وأخذته رعدة .

- هل تجد بردا؟ سألته أمه

وأومأ أنطوان لها بأن صبره قد نفد .

في تلك اللحظة اتجهت الأنظار كلها في الأسفل إلى العمدة وهو يدخل الحديقة . وفتحت مدام كورتان النافذة .

- رويدكم ، رويدكم ، قال مسيو وايزر الذي كان يردد تلك الكلمة كثيرا .

كانت يده مبسوطة أمام صدر مسيو ديسميد .

- لا يمكننا أن نزعج الدرك دون سبب!

- كيف دون سبب؟ صاح مسيو ديسميد . لأن ولدي الذي اختفى لا يعني لك شيئا . . .

- اختفى ، اختفى

- هل تعلم أنت أين هو؟ صبي في السادسة من عمره لم يره أحد منذ ، كم . . . (نظر إلى ساعته ، وأجرى الحساب وهو يقطب جبينه) . . . ثلاث ساعات تقريبا ، ألا يعني ذلك عندك أنه اختفى؟

- حسنا ، أين شوهد لآخر مرة الصبي؟ سأل مسيو وايزر ، وكان يبدو بوضوح أنه يحاول أن يكون بنّاءً في سلوكه .

- مشى قليلا مع أبيه ، أليس كذلك روجيه؟ قالت مدام ديسميد بصوت متهدج .

وصدَّق مسيو ديسميد على كلامها . كان يعود إلى منزله في الثانية عشرة ، وعندما كان يخرج ليذهب ثانية إلى المصنع ، كثيرا ما كان ريمي يمشي معه بضع خطوات قبل أن يعود أدراجه إلى المنزل بسلام .

- وأين كنت أنت عندما قفل هو راجعا؟ سأل العمدة .

كان واضحا أن مسيو ديسميد لم يعجبه كثيرا أن ينصب مدير المصنع الذي يعمل فيه نفسه محققا ويستجوبه . هل سيصدر له تعليماته الآن بشأن طريقة تسييره لأموره العائلية؟ كان في جوابه غيظ لا يكاد يكظمه :

- أليس الدرك هو من عليه أن يبدأ العمل بدلا عنك؟

كان أطول من العمدة واقترب منه لكي يهيمن عليه أكثر فأكثر . وكان يتكلم بصوت جهوري وبدا جليا أن مسيو وايزر يحاول جاهدا ألا يتراجع أمامه . كانت سلطته ، بل كرامته ، على المحك . تراجعت النساء واقترب الرجال أكثر ، ووجد نفسه محاصرا شيئا ما : كانوا جميعا عمالا في مصنع وايزر ، أو آباء أو إخوانا لعمال فيه . لقد ذكرت هذه المواجهة غير المتوقعة بعضَهم بخطر البطالة الذي كان يجثم بثقله عليهم جميعا . ولم يعد أحد يعرف من كان غاضبا أكثر في مسيو ديسميد ، والد ريمي أم عامل المصنع .

غير عابئة بالسجال الذي اندلع بين مسيو ديسميد ورئيس بلدية بوفال ، اختارت مدام كيرنيفيل أن تبادر ، فدخلت بيتها وأمسكت بالهاتف .

كان وصول الدرك فوق طاقة احتمال مدام كورتان ، فهرعت إلى الخارج .

كـان جـيـران آخـرون قـد اقـتـربوا هم أيضـا ، وتوقف المارة ، واستدعي من كان غائبا ، ورابط من لم يستطع الدخول إلى حديقة آل ديسميد في الشارع . كان كل ذلك الحشد الصغير يغلي ويتكلم وينادي بعضه بعضا ، لكن الأحاديث كانت تدار بصوت خفيض ، همسا ، واتخذت تلك الهسهسة نبرة الوقار والقلق .

تلبد ذهن أنطوان لمرأى شاحنة الدرك .

كانت تمر كثيرا في شوارع المدينة ، وكان الناس يعرفون وجوه من فيها ، كانوا يتوقفون عن طيب خاطر في المقاهي ، ويحرصون على ألا يتناولوا إلا مشروبات دون كحول ، وعلى أن يدفعوا ثمن ما يشربون . أحيانا يتدخلون لفض الشجارات ، أو لتسليم وثائق رسمية . كان مجيئهم دائما حدثا صغيرا ، فيتساءل الناس عمن جاءوا لأجلهم هذه المرة ، ويقتربون من الشاحنة بسرور إن لم تكن قد توقفت بعيدا جدا .

لم يكن أنطوان يعرف الرتب العسكرية وبدا له رئيسهم شابا حقا . وغمره إحساس غريب بالطمأنينة .

أزاح رجال الدرك الثلاثة الحشد من طريقهم ليدخلوا الحديقة .

استجوب الرئيس مدام ديسميد بسرعة . وبينما كانت تجيب وهو يصيخ السمع ، أمسك بذراعها ودفعها لتدخل إلى بيتها . وتبعهما مسيو ديسميد وهو يستدير ليرى العمدة الذي كان هو أيضا يحاول أن يتبع المجموعة .

ثم غاب الجميع . وأُغلق الباب .

انقسم الحشد إلى مجموعات ، كلٌّ وَمن يوافق ، عمال وايزر ، سكان الحي ممن يعرفون بعضهم بعضا ، وأولياء أمور التلاميذ . ولم يبد على أي منهم أنه يعتزم الرحيل .

لاحظ أنطوان أن الجو تبدل . لقد رفع مجيءُ الدرك هذا الظرف العابر إلى مصاف حدث حقيقي . لم تعد المسألة مسألة حادث معزول ، بل أمرا يعني الجماعة كلها . شعر أنطوان بذلك . الأصوات التي ازدادت اعتدالا ، والأسئلة التي صارت قلقة أكثر ، كل ذلك اتخذ في عينيه ، لأنه كان متورطا ، شكل النذير .

أغلق النافذة بسرعة ، كان عليه أن يعود إلى المرحاض . جلس على الحوض ، وثنى نفسه ، لا شيء . كانت معدته مهروسة ، تنتابها تشنجات شديدة الألم . وألصق ذراعيه المضمومتين ب . . .

سمع صوتا . . . زال الألم فجأة ، فرفع رأسه . تذكر أيلاً أبصره على حين غرة في الغابة ذات مرة ، منتصبا على قوائمه ، وهو يدير برأسه ببطء ، ويشمخ بخرطومه ، لعله يسمع ما لم يكن قادرا على رؤيته ، وشعر بوجود أنطوان وفي تلك اللحظة تحول إلى حيوان طريد ، متوتر مجهد ، هائج . . .

أدرك أنطوان من فوره أن أمه لم تكن لوحدها ، كان هنالك ضجيج أصوات ، أصوات رجال . قام ودلف إلى غرفته دون حتى أن يعيد ربط حزام سرواله .

- سأناديه ، قالت أمه وقد شرعت تصعد الدرج .

ارتد أنطوان عن الباب إلى أقصى حد ممكن ، لا بد له من أن يلم شتات نفسه ، لكن الوقت داهمه :

- إنهم رجال الدرك ، قالت أمه وهي تدخل ، يريدون الحديث معك .

لم يكن في صوتها ما يثير القلق . بل إن أنطوان استشعر فيه شيئا من النهم : ولدها ، أي هي أيضا ، موضع اهتمام السلطات التي جاءت لتستفتيهما ، وتسمع رأيهما . لقد صار لهما شأن .

- الحديث معي . . . عمّ؟

- عن ريمي . . . طبعا!

كادت مدام كورتان تصاب بالصدمة من سؤال أنطوان . لكن وصول رجل الدرك زاد من ارتباكهما معا .

- هل تسمحين . . .؟

دخل الغرفة ، متمهلا ، لكن بحزم .

لم يستطع أنطوان أن يحدد عمره ، لكنه على أي حال بدا الآن أقل شبابا منه عندما نظر إليه وهو في الحديقة . اكتفى بأن نظر إلى الصبي وهو يرسم على شفتيه ابتسامة واثقة ، وسرّح بصره بسرعة في الغرفة مستعرضا محتوياتها ، واقترب وركع أمامه . كان وجهه حليقا تماما ، وعيناه متقدتين وثاقبتين وأذناه كبيرتين إلى حد ما .

- قل لي ، أنطوان ، أنت تعرف ريمي ديسميد ، أليس كذلك . . .؟

ازدرد أنطوان ريقه وأجاب أن نعم ، بإيماءة من رأسه . مد الدركي يده إلى كتف الصبي ، لكنه توقف .

- لا تخش شيئا يا أنطوان . . . فقط أخبرني أين رأيته لآخر مرة .

رفع أنطوان عينيه ورأى أمه واقفة عند باب الغرفة تشاهد ما يحصل بشيء من الرضا يكاد يكون زهوا .

- أنا من يجب تنظر إليه ، يا أنطوان . أجبني .

تبدل صوته ، صار أكثر حزما ، كان يريد جوابا . . . جوابا لم يقلبه أنطوان في ذهنه كما يجب . كان الأمر أسهل مع مدام ديسميد . واستدار إلى النافذة ليتشجع :

- في الحديقة ، قال أخيرا ، هناك ، في الحديقة . . .

- كم كانت الساعة؟

استعاد أنطوان رباطة جأشه إذ رأى أن صوته لم يرتعش كثيرا جدا ، ليس أكثر مما ينبغي لصوت أي ولد في الثانية عشرة يستجوبه رجال الدرك .

حاول أن يتذكر : بماذا أجاب مدام ديسميد آنفا؟

- حوالى الواحدة والنصف ، هناك . . .

- حسنا . وماذا كان يفعل ريمي في الحديقة . . .؟

جاء الجواب سريعا :

- كان ينظر إلى الكيس الذي فيه الكلب .

قطب الدركي حاجبيه . كان أنطوان يعلم يقينا أنه إن لم يشرح فسيظل جوابه غامضا .

- أبوه ، أبو ريمي . قَتل كلبَه البارحة ، ووضعه في كيس للزبالة .

ابتسم رجل الدرك .

- عجبا ، ما أكثر ما يقع من أحداث في بوفال ، أليس كذلك . . .

لكن أنطوان لم يكن في مزاج يسمح له بالمزاح .

- حسنا ، قال الدركي ، وأين هو ، كيس النفايات ذاك؟

- هناك ، قال وهو يشير إلى النافذة ، في الحديقة . مع الحصى . قتله بطلقة واحدة من بندقيته ، ووضعه في كيس للنفايات .

- كان ريمي إذًا في الحديقة وكان ينظر إلى كيس النفايات ، هو ذاك؟

- نعم . كان يبكي . . .

زم الدركي شفتيه ، نعم بالطبع ، مفهوم ، مفهوم .
- ولم تره بعد ذلك . . .
- كلا
بإيماءة . كان الدركي يحدق فيه ، زامًا شفتيه ، متفكرا في ما سمعه للتو :
- ولم تر سيارة تتوقف أو شيئا من هذا القبيل . . .؟
- كلا
- أعني ، لا شيء على غير العادة؟
- كلا
- حسنا!
ضرب الدركي فخذيه بكفيه ، حسنا ، ليس هذا كل شيء . . .
- شكرا أنطوان ، سيفيدنا هذا جدا .
نهض ليغادر الغرفة ، وأشار إلى مدام ديسميد التي كانت تتهيأ لتشييعه إلى الدرج .
- آه ، على فكرة ، أخبرني يا أنطوان . . .
كان قد توقف عند عتبة الباب واستدار .
- عندما رأيته ، هناك ، في الحديقة ، أنت . . . إلى أين كنت ذاهبا؟
جاء الجواب لا إراديا
- إلى المستنقع .
وأدرك أنطوان أنه أجاب بسرعة . أسرع مما ينبغي .
فكرر قائلا ، بهدوء أكبر :
- ذهبت إلى المستنقع
هز الدركي رأسه بالإيجاب ، إلى المستنقع ، أُوكي ، حسنا .

٤

عسكر الدركي على الرصيف ، والشك يساوره .

كان ينظر إلى المحتشدين الذين ما فتئ عددهم يتزايد ، وغضبُهم .

وراحت أصوات غاضبة وجهورية تعلق على طريقة سير الأمور . كان النهار قد بدأ يميل وقلل ذلك من فرص عودة ريمي . وماذا فعلت السلطات حيال ذلك؟ من هم الذين يتولون المسألة وما هي مهامهم تحديدا؟ كان العمدة يهرول جيئة وذهابا بين مجموعة العمال وشاحنة الدرك ، ويحاول جاهدا أن يهدئ هؤلاء ويستجوب هؤلاء . . . لم يكن احتمال اندلاع غضب جماعي مستبعدا ، كان كل واحد من المحتشدين ، لأسباب مختلفة دون شك ، يشعر بأنه ظلم ويرى الفرصة سانحة ليبث شكواه .

انتفض الدركي الشاب . صفق بيديه برفق ونادى رفاقه .

في غضون دقائق ، بسطت خارطة ، وخاطب رجل الدرك المتطوعين الذي رفعوا أصابعهم كما في المدرسة . وتم عدهم . ولأن مدام ديسميد كانت قد جابت وسطت المدينة عندما علمت بضياع ريمي ، تلقى كل واحد منهم الأمر بأن يمشط منطقة معينة خارج بوفال ، على الطرق والدروب المؤدية إليها .

هدرت المحركات . كان الرجل منهم يهز كتفيه وهو يجلس خلف مقود سيارته يحسبه الناظر ذاهبا للصيد . وركب العمدة

نفسه في سيارة البلدية ليشترك في البحث . ومع أن دوافعهم جميعا كانت نبيلة ، كان في الجو شيء من الغزو والانتقام ، وتلك الطاقة الأخلاقية الفاضلة التي غالبا ما تفضي إلى المذابح .

من نافذته ، أيقن أنطوان أن كل هؤلاء المبتعدين هم في حقيقة الأمر قادمون إليه .

لم يركب الدركي الشاب سيارته فورا . كان يتأمل مستغرقا كلَّ ذلك الإصرار الجماعي . ربما لن يكون من السهل إيقاف ما بدأ الآن للتو .

وأُطلق الإنذار في المقاطعة كلها .

وزعت صورة الصبي ريمي ديسميد وأوصافه ونشرت في كل الأماكن العامة .

في منزل آل ديسميد ، تناوبت النساء على مؤانسة بيرناديت . مدام كورتان نفسها ، بعد أن أفرغت أكياس مشترياتها ووضعتها في أماكنها وحضرت وجبة العشاء ، صاحت من الطابق الأرضي :

- أنطوان ، أنا ذاهبة إلى منزل بيرناديت!

لم تنتظر الجواب ، ورآها أنطوان تعبر الحديقة بخطى حثيثة .

اهتز أنطوان من زيارة الدركي . كان في ذلك الرجل شيء من نفاذ البصيرة ومن التشكك . . .

لم يصدقه .

خنقته تلك الحقيقة . وقوفه طويلا على الرصيف يقلب في ذهنه ما قاله له أنطوان ، ويتردد في الصعود إليه مرة أخرى لكي يناقشه الحساب .

راح أنطوان ينظر إلى الحديقة التي خلت الآن ، دون أن يجرؤ على الإتيان بحركة . عندما سيستدير ، سيكون الدركي هنا ، في

الغرفة ، سيكون قد أغلق الباب وجلس على الفراش يتفرس فيه . في الخارج ، ستكون المدينة قد استعادت هدوءها بشكل غريب ، كما لو أنها أفرغت من قواها الحية .

للحظة كأنها الدهر ، لن يقول الدركي شيئا وسيفهم أنطوان ، دون أن يستطيع لذلك دفعا ، أن صمته اعتراف .

– وإذاً ، كنت في المستنقع . . .

هز أنطوان برأسه ، أجل ، هو ذاك .

الحزن باد على وجه الدركي . هو ذا يزمُّ شفتيه ويصدر من فمه أصواتا تعبر عن خيبة أمله .

– هل تعلم ما الذي سيحصل يا أنطوان؟

أشار إلى النافذة .

– سيعودون جميعا بين لحظة وأخرى . سيعود معظمهم خالي الوفاض ، طبعا ، لكن مسيو ديسميد ، خلافا لهم ، سيكون قد توقف عند الدرب ، ذاك الذي يؤدي إلى سانت أوستاش .

ازدرد أنطوان ريقه . لا رغبة له في أن يسمع باقي القصة ، لكن الدركي عازم على أن يجرعه الكأس كلها .

– سيجد ساعتك على الطريق ، وسيمشي عندئذ حتى شجرة الزان الكبيرة . سينحني ، ويمد ذراعه ، ويمسك بشيء ، سيسحب ، وما الذي سيظهر له ، يا أنطوان؟ ها؟ ما الذي سيظهر؟ الولد ريمي . . . ميتا بلا رجعة . يداه وساقاه رخوتان ، ورأسه الصغيرة تهتز كما فعلت عندما حملته على ظهرك ، هل تذكر؟

تسمر أنطوان في مكانه لا يستطيع حراكا . فتح فمه ، لكن لا صوت .

– عندئذ ، سيحمله مسيو ديسميد بين ذراعيه ويعيده إلى

المنزل . هل تتخيل المشهد ، مسيو ديسميد يعبر بوفال وابنه الميت بين ذراعيه ، يتبعه كل سكان الحي . . . وماذا سيفعل ، برأيك؟ سيدخل داره بخطى واثقة ، سيضع ريمي بين ذراعي والدته ويخرج مرة أخرى حاملا بندقيته ، يعبر الحديقة ويصعد الدرج ويدخل إلى هنا . . .

في تلك اللحظة ، دخل الغرفة مسيو ديسميد متوشحا بندقيته . هو طويل القامة حتى أنه مجبر على الانحناء ليمر عبر الباب ، بينما الدركي ثابت في مكانه لا يتحرك ، ويحدق في أنطوان ، لقد أنذرتك ، وما الذي تتوقع مني أن أفعله الآن؟

اقترب مسيو ديسميد ، والبندقية على مستوى خصره ، وظِلُّه يُظِلُّ أنطوان والنافذة خلفه والمدينة كلها . . .

انفجار .

أطلق أنطوان صرخة .

جاثيا على ركبتيه ، ممسكا ببطنه ، وقد تقيأ شيئا من الصفراء .

كان مستعدا للتضحية بأي شيء لكي لا يعود حيث هو الآن . . . واستوقفته الفكرة فجأة .

أن يغادر . . .

هذا هو ما كان عليه أن يفعله . يهرب .

رفع رأسه ، وقد أذهلته هذه الحقيقة . لِمَ لم يفكر فيها في وقت أبكر! أخرجته الفكرة من غفلته وخَدَرِه . وعاد ذهنه ، الذي كان قد توقف أو كاد ، للعمل من جديد . كان مستثارا إلى أقصى حد .

مسح شفتيه بكُمِّ قميصه وراح يذرع غرفته طولا وعرضا . ولكي لا ينسى شيئا ، أمسك كراس النصوص وقلم لِبْد وقيَّد بسرعة كل ما عنَّ بفكره : الملابس ، المال ، القطار ، الطائرة (؟) ،

سبايدر مان ، جواز السفر! ورقة ألمانيا ، الغذاء ، الخيمة (؟) ، الحقيبة . . .

كان عليه أن يسرع . أن يغادر في المساء ، الليلة .

غدا صباحا ، إن أحسن التصرف ، سيكون قد ابتعد .

طرد من رأسه فكرة الذهاب سرا ليودع إيميلي ، ستروي كل شيء ، لا داعي لذلك مطلقا . عوضا عن ذلك ، ستعرف في الغد أن أنطوان غادر لوحده على غير هدى ، ولن تسمع به بعد الآن أبدا ، أو لعلها ستفعل ، سيرسل بطاقات بريدية ، من كل مكان في العالم ، وستريها لصديقاتها في القسم وفي المساء تبكي وهي تنظر إليها ، وستخبئها في علبة . . .

أيَّ اتجاه يسلك؟ سيتوقع الناس أنه ذهب باتجاه سانت هيلار ، إذاً سيذهب في الاتجاه الآخر ، ولم يكن يعرف إلى أين يفضي بالضبط ، لأن الخروج من بوفال يكون دائما عبر سانت هيلار . سيتحقق من الأمر في الخريطة .

واتقد ذهنه . وإذ بكل عقبة تعترض طريقه تصبح ذلولا . كانت محطة مارمونت تبعد ثمانية كيلومترات ، سيسير ليلا ، بعيدا عن الطريق بما يكفي . عند وصوله ، سيكون عليه أن يشتري تذكرة ، لكن لكي لا يتعرف عليه أحد ، سيطلب من أحدهم أن يشتريها له ، وسَرَّه جداً أنه اهتدى إلى هذه الحيلة . سيختار امرأة ، ذلك أسهل . سيقول لها إن أمه أوصلته لتوها إلى المحطة ، وإنها غادرت ونسيت أن تعطيه تذكرته ، وسيريها ما معه من مال . . . المال! كم معه من المال في دفتر التوفير؟

وهرع إلى الطابق الأرضي ، وكاد وهو يفتحه أن يوقع درج طبقية المدخل . الدفتر في مكانه! كان أبوه يحرص على ضخه

بالمال كلما حل عيد ميلاده . ١٥٦٥ فرنكا! كان ذلك مجرد مبلغ بالنسبة له حتى الآن . كانت أمه تقول له باستمرار إنه تحت تصرفه لكن «ليس قبل أن تبلغ سن الرشد ، لتشتري به أشياء مفيدة» . ولم تخالف عن قاعدتها ، السنة الماضية (بعد مقاومة وأيِّ مقاومة!) ، إلا من أجل ساعة الغطس .

الساعة . . .

وانتفض أنطوان .

أكثر من ١٥٠٠ فرنك في دفتره! بوسعه الذهاب بعيدا بمبلغ كهذا ، والصمود لمدة مديدة!

حمل الدفتر إلى غرفته ، وقد بلغت الإثارة به مبلغها . هيا ، قليلا من التنظيم ، من المنهجية . كان يتحرق شوقا لاختيار وجهته . القطار أولا إلى باريس؟ أو مرسيليا؟ وبدت له أستراليا وأمريكا الجنوبية آأمن الوجهات ، لكنه تساءل إن كان ممكنا من مرسيليا أن . . . سيرى عندما يصل . الأحرى به أن يسافر بحرا ، يمكنه أن يعرض عليهم العمل مقابل ثمن التذكرة ويستبقي بذلك ماله كاملا لحين وصوله . ومدَّ يده للكرة الأرضية . . . لا ، ليس الآن . . . الليلة . . .

حقيبةً ، كلا ، بل كيس السفر ، البني ، ذاك الذي تخبئه أمه في القبو . بسرعة نزل ، وعندما عاد إلى غرفته أدرك كم هو ثقيل ، يكاد يجره جرا وهو يحمله . وتساءل عما سيظنه الناس به في المحطة إذا رأوه يحمل متاعا أكبر منه . أليس الأحرى به توخيا للحذر أن يحمل متاعا آخر ، جَعبة ظهر مثلا؟ ووضعهما جنبا إلى جنب على سريره . هذا أكبر مما يجب ، وتلك أصغر مما يجب . . . لا بد من الاختيار ، وبسرعة . اختار الجَعبة ودون إبطاء راح يضع فيها

جواربه وقمصانه . ووضع سبايدر مان في الجيب الخارجي ثم نزل ليعيد كيس السفر إلى مكانه ويجلب دفتر التوفير ، وجواز السفر ، والوثيقة التي استصدرتها أمه عندما ذهب ليزور أباه في ألمانيا ، لم يتمكن أبدا من حفظ اسمها ، آه ، هو ذا الاسم ، تصريح بمغادرة التراب الوطني . هل مازال هذا الشيء ساري المفعول؟

بينما هو بعدُ في خضم ريبه وتردده ، انفتح الباب في الأسفل .

عرف صوت أمه ، ومعه أيضا صوت كلودين ومدام كيرنيفيل .

اقترب بحذر في الرواق .

بدأت مدام كورتان تحضر الشاي وراحت النسوة الثلاث يكملن حديثا كن قد بدأنه في الخارج .

– أين اختبأ هذا الولد؟

– في المستنقع ، قالت كلودين ، وإلا فأين؟ لقد وقع فيه ، ما في ذلك شك . . .

– لقد تجاوزنا هذه المرحلة ، يا عزيزتي المسكينة كلودين ، قالت مدام كيرنيفيل ، منذ أن عاود ذلك السائق الأرعن الظهور . . .

– ماذا . . . أي سائق أرعن؟

– ولكن يا كلودين! الذي دهس كلب مسيو ديسميد!

كان الانزعاج يرن بوضوح في صوتها . الواقع أن ما يشفع لكلودين هو أنها فتاة في غاية اللطف والطيبة ، لكنها غبية غباء مطبقا ، ولكي تُفهِمها أمرا ما . . . وتدخلت مدام كورتان بتلك النبرة التعليمية التي تستخدمها لتلقي محاضراتها على أنطوان :

– السائق الأرعن الذي دهس بسيارته كلب آل ديسميد البارحة . . . حسنا ، لقد شاهد أحدهم سيارته صباح اليوم ، مركونة

قرب المستنقع . هو إذاً شخص معتاد على التسكع هنا . . .

– كنت أعتقد أنه قد ضاع ، ذلك الصبي ، وفقط . . .

– كلودين ، فكري : لم يره أحد منذ الواحدة زوالا ، والساعة الآن تشارف على السادسة مساء . لقد بحثوا عنه في كل مكان ، محال أن يكون قد ابتعد ، هو في السادسة من عمره!

– وإذن لقد . . . هو اختطاف إذًا ، يا إلهي ، ولكن لماذا؟

هذه المرة ، لم يُحرِ أحد جوابا .

لم يكن أنطوان ليقدر على أن يفسر الأمر ، لكن تفكير الناس في الاختطاف طمأنه . بدا له أن هذه الفرضية تبعد الشكوك .

سمع السيارات خلفه تقترب . وهرع إلى النافذة .

ثلاثة سيارات . أوقف هبوط الليل عملية البحث . ووصلت سيارة رابعة . ثم جاء دور سيارة البلدية ، يقودها العمدة ، لتركن في الشارع . الرجال يتحادثون بأصوات خفيضة على الرصيف . زال الحزم عن محياهم ، كانوا الآن يبدون متكلفين ونوعا ما آثمين .

لم تنتظر مدام ديسميد أن يستجمع أحدهم شجاعته ليحمل إليها أنباءً لا تنبئ شيئا ، وخرجت بسرعة ، واستقبلت بوجه متشنج بيان هذا وتقرير ذاك . بدا الأمر وكأن كل معلومة تُكوِّمها على نفسها أكثر . هؤلاء الرجال الذين يعودون وهم يجرون أذيال الخيبة ، والليل إذ يرخي سدوله ، والساعات التي تمضي . . . ثم جاء مسيو ديسميد أيضا . خرج من سيارته مهدما . عندما رأته بيرناديت ، ترنحت ، وبالكاد استطاع مسيو وايزر أن يمسكها .

وهرع مسيو ديسميد إلى زوجته وأخذها بين ذراعيه واتجه الموكب الحزين إلى المنزل .

وجهُ بيرناديت الطباشيري ، الدارات الزرقاء حول عينيها ،

الطريقةُ التي تعض بها معصمها ، وإغماءها المفاجئ ، كلُّ ذلك هزَّ أنطوان هزّاً .

ودَّ لو أنه يعيد لها ريمي .

وانخرط في البكاء ببطء ، بصمت ، كان حزنه عميقا لأنه كان يعلم أن بيرناديت لن ترى أبدا ابنها حيا مرة أخرى .

قريبا ، ستراه ميتا .

ممددا على طاولة من الألومينيوم ، مغطى بإزار . ستلتصق بزوجها الذي سيطوقها بذراعه . سيرفع موظف معرض الجثث الإزار ببطئ . ستكتشف وجه ريمي مزرقًّا ، جامدا ، وسترى ورما دمويا هائلا يغشى جانبَ الرأس الأيمن كلَّه . ستندفع تبكي ، وسيسندها مسيو ديسميد . وسيشير ، وهو يغادر ، إلى الدركي الواقف غير بعيد عنهما ، نعم ، إنه هو فعلا ، هو صغيرنا ريمي . . .

بعد بضع دقائق ، وصلت بدورها شاحنة الدرك .

رأى أنطوان النقيب ومعه اثنان من زملائه يعبر الحديقة ويرن جرس الباب . ثم عادوا أدراجهم ، ومعهم هذه المرة مسيو ديسميد يتوسطهم ويمشي بخطى عريضة ، والغضب ينتح منه . وسار الأربعة صوب الشاحنة التي سرعان من تكأكأ عليها كل من بقي من الرجال .

سمع أنطوان صراخا ، ففتح النافذة .

- إلى أين تذهبون به؟

- بأي حق . . .؟

كان العمدة يصيح ، أفسحوا لهم ، وهو يحاول المستحيل ليحول دون أن يتعرض رجال الدرك للهجوم .

- هل أصبح العمدة يقف إلى جانب الدرك؟ في وجه المواطنين؟

تابع رجال الدرك طريقهم ، دون أن يفقدوا زمام أنفسهم أو يشتت انتباهَهم شيء ، وأدخلوا مسيو ديسميد إلى الشاحنة وانطلقوا من فورهم .

ركب معظم الرجال سياراتهم وتبعوا الشاحنة . . .

لم يفهم أنطوان .

لِمَ اقتيد الأب؟ هل هو مشتبه به؟

آه ، لو أنهم يعتقلون شخصا ما ، وخصوصا مسيو ديسميد الذي لشدَّ ما كان يخيفه . . . وفكر ببيرناديت التي شاهدت لتوها زوجها يذهب . . . وتقاذفت أنطوان مشاعر متلاطمة متناقضة فلم يعد يدري أين يبمم وجهه .

كانت كلودين ومدام كيرنيفيل قد رحلتا ، وبدأت مدام كورتان تسخن الطعام .

عاد أنطوان بهدوء ليكمل استعداداته . كانت حقيبة الظهر صغيرة ، ولم تكن لتحمل كل ما أراد أن يضعه فيها ، ولْيَكُنْ ، سيشتري بما معه من مال كلَّ ما سيحتاجه .

عند السابعة والنصف ، نادته أمه ليتناول العشاء .

- يا لها من قصة ، أليس كذلك . . .

كانت تخاطب أنطوان ، ونفسها أيضا .

حتى الآن ، كانت تحمل الأمر على أنه حدث عابر لا أهمية له ، من تلك الحوادث التي تحدث في الجوار ونرويها من حين لآخر بعد سنوات ، لأنها كانت موقنة من أن ريمي سيعود ولأن ذهنها لم يكن ليستوعب أنه اختفى حقا . وتذكرت أمثلة عديدة عن أولاد بحثوا عنهم . . . وهي تعد المائدة ، حكت لأنطوان :

- مثلا ، ابن إحدى جارات خالتك . . . في الرابعة من عمره

كان . نام في صندوق الغسيل ، صدقني! لساعات بحثوا عنه ، وأخطروا الدرك . الكنّة هي التي وجدته . . .

في تلك اللحظة شاهدا أضواءً دوارة تنير النوافذ . قامت مدام كورتان بسرعة وفتحت الباب .

كانت سيارة الدرك تتوقف ، ليس أمام بيت آل ديميد ، بل بيت آل كورتان .

نضت مدام كورتان عنها وزرتها بسرعة . ووقف أنطوان خلفها .

كان الدركي الشاب يتقدم باتجاههما .

ظن أنطوان أنه سيموت .

- مدام كورتان ، أنا آسف لإزعاجكم . الأمر هو أننا نريد أن نتحدث إلى ولدك . . .

قال ذلك وانحنى ليبحث عن أنطوان بنظره . وقطبت مدام كورتان .

- ولكن لماذا . . .

- إجراء شكلي ، لا غير . أنطوان؟

هذه المرة لم يحاول الدركي أن ينحني له وأن يركع أمامه .

- هل لك أن تأتي معي؟

تبعه أنطوان إلى الحديقة المجاورة ، حيث وقف الدركيان الآخران . كان مسيو ديسميد واقفا ينتظر ، هو أيضا ، بوجه جامد . كان يصوب إلى أنطوان عينيه الغاضبتين .

استدار الدركي إلى أنطوان .

- أرني بدقة أين رأيت ريمي لآخر مرة؟

كان الكل ينظرون إليه ، وأمه تقف خلفه .

بماذا أجاب بيرناديت؟ وماذا قال للدركي؟ لم يعد يتذكر على

وجه الدقة ، وخاف أن يختلط عليه الأمر . كان قد ذكر الكلب . ظل أنطوان واقفا لا يتحرك ، وأعاد عليه الدركي سؤاله :

– أنطوان ، أرني بدقة أين رأيته ، من فضلك .

عندئذ فهم أنطوان أن الدركي وقف عامدا متعمدا حيث وقف ليحجب عنه كومة أكياس القمامة . وفجأة بدا له كل شيء أبسط بكثير . خطا خطوة ، ومدَّ ذراعه :

– هنا .

– قف حيث وجدته .

ذهب أنطوان إلى الأكياس . كان يتخيل المشهد . يرى نفسه يمر بالشارع ، ويبصر ريمي قرب الكيس وهو يبكي . . .

واقترب . هنا .

جاء إليه الدركي ، وأمسك بالكيس الأول ، وجذبه إليه ، وفتحه ، وألقى نظرة داخله . كان مسيو ديسميد يشاهد وقد تكتف .

عند باب المنزل ، ارتسم خيال بيرناديت بعكس الضوء . كانت تضم رِفل معطفها إلى رقبتها .

– وما الذي كان يفعله ريمي . . .؟ سأل الدركيُّ

كم كان ذلك طويلا . أن يصمد لبضع دقائق ، كان ذلك ممكنا ، لكن في هذه الحديقة التي لا يضيئها إلا مصباح الطَّنْف ووميض مصابيح الشارع ، أن يشعر هكذا بأنه محط أنظار بيرناديت ومسيو ديسميد والدركي وأمِّه وهي تحاول أن تفهم جدوى كل هذا . . . والناس الذين يتوقفون الآن في الشارع ليشاهدوا .

واندفع يبكي .

– لا بأس عليك يا ولدي ، قال الدركي وهو يمسك به من كتفه .

في تلك اللحظة سمعت خفقات مخنوقة ، كأنها جناحا طائر بعيد . كانت طائرة هليكوبتر تحلق هناك ، فوق الغابة ، من جهة سانت أوستاش ، وتسلط على الأرض ضوءا متذبذبا .

كان قلب أنطوان يخفق بنفس إيقاع شفرات المروحية المحتجبة بينما كانت المروحية ترسم دوائر في السماء الليلية .

نظر الدركي إلى مسيو ديسميد ، وصوب إبهامه إلى كِبِّيته .

- شكرا على تعاونك . . . لقد أعطي الإنذار ، وسنعلمك إن جدَّ جديد ، طبعا .

عاد إلى شاحنته مع زميليه وغادر .

وذهب الجميع إلى منازلهم .

- إنهم يحاولون أن يفهموا كيف حصل ما حصل . . . ، قالت مدام كورتان .

أغلقت الباب وأدارت المفتاح وعادت إلى الصالة .

بقي أنطوان واقفا عند مدخل الغرفة ، وعيناه مشدودتان إلى شاشة التلفزيون التي كانت تعرض صورة ريمي ، باسما ، وخصلة شعره مرتبة كما يجب ، كانت صورة مدرسية تعود للعام السابق . كان أنطوان يعرف هذا القميص الأصفر الذي طبع عليه فيل أزرق صغير .

كان المعلق يصف الصبي : ماذا كان يلبس عندما اختفى ، والافتراضات التي يمكن اعتمادها بشأن الطريق التي يكون قد سلكها . كان طوله مترا وخمسة عشر سنتيمترا .

فطر هذا الرقم قلب أنطوان ، لماذا؟ الله وحده يعلم .

وأذيع بلاغ يهيب بكل من يملك معلومة أن يتقدم ويدلي بها ، وركض رقم هاتفي في أسفل الشاشة . وطرح احتمال الاستعانة

بغواصين ونقلِهم إلى المستنقع . تخيل أنطوان أعوان الحماية المدنية وشاحناتِهم ذاتَ الأضواء الدوارة مركونةً على الدرب المؤدي للمستنقع ، ورجالَ الضفادع الجالسين على حافة زوارقهم المطاطية إذ ينقلبون إلى الوراء بحركة سريعة ودقيقة . . .

الصحفية التي تتحدث هي امرأة في الأربعين من عمرها رآها أنطوان كثيرا على شاشة التلفزيون ، لكنه اليوم ينظر إليها بعين مختلفة لأنها تتحدث عنهم ، بصوت خفيض يكاد يكون رسميا : « ظلت عمليات البحث الأولى بلا طائل . . . »

وعُرضت لبوفال بعضُ الصور القديمة بعض الشيء ، استخرجت من الأرشيف ولا شك . وبعضُ المنظورات التي تظهر عددا من سيارات الدرك التي يفترض فيها أنها تجوب ضواحي المدينة .

« . . . وأجبر الليل المحققين على تأجيل ما بقي من بحث إلى يوم غد . »

لم يستطع أنطوان الانفلات من الشاشة . لدهشته كان يشعر وكأنه شاهد ذلك من قبل ، إذاعة خبر كهذا عن حادث مأساوي كثيرا ما يذاع مثله ، لكنه هذه المرة معني به بشكل مباشر لأنه هو القاتل .

« . . . تَحَتْ نيابة فيلنوف تحقيقا قضائيا لمعرفة أسباب اختفاء الطفل . »

– أنطوان ، ألا تجلس إلى المائدة؟ قالت مدام كورتان .

نظرت إليه ، ووجدته شديد الشحوب . t.me/ktabpdf

– أتعلم ، لن أدهش البتة إن تبين أنك مريض . . .

٥

كان عشاء أنطوان خفيفا ، أي أنه لم يتناول شيئا . لستُ جائعا .

- باه! طبعا ، قالت أمه ، مع كل ما يحدث حولنا . . .

ساعدها أنطوان في إخلاء الطاولة ثم اقترب منها كما يفعل كل مساء ومدَّ لها وجنة قبَّلتها وصعد إلى غرفته .

كان عليه أن يستعد ، وينتهي من حزم حقيبة الظهر ، متى يمكنه أن يرحل دون أن يراه أحد؟ ليلا . . .

أخرج أشياءه من تحت الفراش وإذ بالشك يجتاحه فجأة : كيف سيسحب المال من الدفتر؟

كلما قبلت أمه ، استثناءً ، بأن يقتطع منه مبلغا من المال - ليشتري ساعته مثلا- كانت هي دائما التي تذهب لمكتب البريد ، لا يمكنك أن تفعل ذلك بنفسك ، يجب أن تكون قد بلغت سن الرشد . . . سيتقدم إلى الشباك ، وسيطلبون منه هويته ، لا ، لن يحتاجوا حتى لذلك ، يكفي أن ينظروا إليه ، لا ، لا يمكنك يا صغيري ، يجب أن تحضر مع أمك أو أبيك . . .

دون مال ، لا مجال للهرب .

وتقوضت خطته . لقد حكم عليه بأن يبقى وينتظر أن يأتوا لاعتقاله .

أحبطه الأمر ، ما في ذلك من شك ، لكن أقل مما كان يتصور .

نظر إلى ديكور غرفته بعين جديدة . وسرعان ما استسخف منظر حقيبة الظهر المحشوة بالجوارب والقمصان ودمية سبايدر مان التي تطل عليه من الجيب .

لقد أسكرته فكرة الرحيل ، الهرب ، لكن هل صدقها حقا؟

وانتابه فجأة تعب غامر . لم تعد له دموع ليذرفها . لم يتبق له إلا التعب .

رمى بحقيبة الظهر تحت السرير ، ودسَّ دفتر التوفير والأوراق في درج مكتبه واستلقى على فراشه .

وعَرَا نومَه منظرُه وهو يتقدم نحو الشجرة الكبيرة النائمة حاملاً ريمي على ظهره . دون توقف كانت صورة ذراعي الصبي المتمايلين والرخوين تمر أمام ناظريه .

ولم يتقدم قيد أنملة . رغم كل جهوده ، كانت المسافة تمتد أمامه كاملة من جديد ، فينظرُ إلى قدميه حيث سقطت ساعته . كانت كما هي في الواقع تماما ، بسوارها الأخضر اللماع ، لكنها أكبر ، كان مستحيلا ألا يراها .

وإذ بريمي قد اختفى من على ظهره . بدلا منه ، كان أنطوان يحمل تلك الساعة الضخمة الأثقل وزنا من الصبي . ويمشي في الغابة ، مبتعدا عن سانت أوستاش ، ثم يتوقف ، إذ يسمع صوتا قادما من مكان ما ، ويستدير .

كان ذلك ريمي ، ممددا على بطنه في الحفرة المظلمة . لم يكن ميتا ، بل جريحا فقط ، لكنه كان يتألم ألما شديدا ، فلقد كسرت ساقاه وأضلعه . ويمد يديه إلى مدخل الحفرة ، إلى النور . إلى أنطوان . ويستغيث ، لعل أحدا يعينه على الخروج من الحفرة ، فهو لا يريد أن يموت .

أنطوان!

كان ريمي يصرخ دون توقف .

ويحاول أنطوان أن يمد له يد العون ، فتأبى قدماه أن تتحركا ، ويرى الولدَ الصغير يمد له ذراعيه ، ويسمع توسلاته التي أصبحت صرخات . . .

أنطوان!

أنطوان!

- أنطوان!

استيقظ فزعا . كانت أمه جالسة على حافة سريره وتنظر إليه بجزع . يداها كانتا مضمومتين .

- أنطوان . . .

اعتدل في جلسته ، وقد أفاق من نومه فورا . وتذكر كل شيء . كم كانت الساعة؟

لم يكن يضيء الغرفة إلا نور الطابق الأرضي الأصفر الذي يصل إلى الطابق العلوي .

- لقد أفزعتني وأنت تصرخ هكذا . . . أنطوان ، أبك شيء . . .؟

ازدرد أنطوان ريقه ، وأومأ برأسه أن لا .

- ها؟ أبِكَ شيء؟

هل حان الوقت ليعترف بكل شيء؟ لو أنه أفاق تماما من نومه ، لاستسلم بلا شك لإغراء التخفف من هذا الحمل الثقيل عليه ، ولأخبر أمه بكل شيء ، كل شيء . لكنه كان يجد صعوبة في فهم ما يدور حوله .

- تنام بثيابك ، ودون أن تخلع حذاءك . . . هذا ليس من

عادتك . . . إن كنت مريضا لماذا لا تخبرني؟

وضعت أمه يدها على ذراعه ، وسحبها بحدة . لم يكن يحتمل ملامستها له . ولم تغضب ، هكذا هم المراهقون ، لقد قرأتْ عددا من المقالات عن هذا الموضوع . يجب ألا تُحمل هذه الأمور على محمل شخصي ، سنُّ المراهقة هو السبب ، ولن يدوم ذلك .

- لستَ بخير؟

- بلى ، أنا على ما يرام ، أجاب أنطوان .

وضعت مدام كورتان يدها على جبين أنطوان ، كما تفعل دائما .

- أنت أيضا ، طبعا ، تنغصِّك هذه القصة . وفوق ذلك يستجوبك رجال الدرك ، حتما ، نحن لم نعتد ذلك . . .

كانت تتفرس فيه وهي تبتسم بحنان . كان تصرفها هذا يزعج أنطوان عادة ، لا تنظري إليَّ هكذا ، لم أعد طفلا ، لكنه استسلم هذه المرة لإغراء المؤاساة . وأغلق عينيه .

- هيا ، قالت أمه أخيرا ، اخلع ثيابك ونم .

أطفأت النور وتركت الباب مشرعا .

لم ينم أنطوان ثانية حتى انبلج الصبح .

٦

عادت طوافة الحماية المدنية لتحلق منذ فجر اليوم التالي . كان الناس يرونها تمر بانتظام ، فيرفعون رؤوسهم ويشيعونها بنظراتهم . وجاء عدد من رجال الدرك من المقاطعة ليمدوا يد العون لزملائهم في بوفال . كانت الشاحنات والسيارات الزرقاء تروح وتجيء وسط المدينة وهي ذاهبة لتجوب الطرق المجاورة .

لم يكن قد بقي وقت كثير قبل أن تمر أربع وعشرون ساعة على اختفاء ريمي .

عند التجار الذين كانوا يتناقلون الأنباء ، كان التشاؤم هو السيد . ومعه غضب غامض ينصب حينا على الدرك وتارة على البلدية . فالدرك استغرقوا كثيرا من الوقت لكي يولوا المسألة اهتمامهم ، أليس كذلك؟ كان عليهم أن يبدؤوا البحث عنه فورا ، هذا الصبي . كانت الآراء متضاربة بشأن الوقت الذي استغرقوه لكي يتدخلوا . البعض قالوا ثلاث ساعات (ثلاث ساعات وقت طويل عندما يختفي ولد في السادسة!) ، وقال آخرون بل هي خمس ساعات ، والواقع هو أن كلاً منهم كان يحسب الوقت على طريقته ، لأن كلاً منهم كان يبدأ العد من لحظة معينة . متى انتبهوا إلى اختفائه ، ذلك الصبي ، عند الثانية عشرة؟ لا ، كانت ذلك عند الثانية زوالا على أقل تقدير ، أحدهم شاهد مدام ديسميد تجوب المتاجر جزعة . كلا البتة ، لقد رافق ريمي أباه ، الذي يعود إلى

عمله في المصنع في الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة . حسنا ، قالت مدام كيرنيفيل ، فيما يتعلق بالوقت ، لسنا متأكدين تماما ، لكن البلدية هي التي كان عليها أن تفعل شيئا . أما ذلك ، فكان الكل جميعا متفقين بشأنه ، مسيو وايزر لم يكن حتى يريد إخطار الدرك! كان يقول إن الصبي سيعود وإننا سنظهر بمظهر الأغبياء إذ استدعيناهم من أجل لا شيء!

لم يغادر أنطوان غرفته . كان يحاول التركيز على لعبة المتحولين وفي الوقت نفسه يراقب حديقة الجيران التي لم يكن يحدث فيها شيء . كان مسيو ديسميد قد ذهب منذ الفجر يمشط الطرق بحثا عن ريمي ، ولم يره أحد منذ ذلك الوقت .

أما والدة أنطوان ، فكانت تعود إلى البيت بانتظام وتأتي كل مرة بأخبار جديدة تناقض التي سبقتها .

مع نهاية الصباح ، وصلت سيارة تابعة للتلفزيون المحلي ، واستجوبت صحفيةٌ المارة ، وجاء الفريق ليصور منزل آل ديسميد ثم غادر .

رجعت مدام كورتان إلى منزلها في حدود الثانية عشرة ظهرا وقالت إن الدرك يستجوب معلم مدرسة منذ بداية الصبيحة ، لكنها لا تعرف اسمه .

بعد ذلك ، انتشرت الأنباء : سيصل غطاسو الحماية المدنية إلى المستنقع في حدود الثانية زوالا .

ذهبت مدام كورتان إلى منزل بيرناديت لتنصحها (ولم تكن الوحيدة التي فعلت ذلك) ألا تذهب إلى هناك ، لكن عبثا . عند الواحدة والنصف ، انطلق معها من الحديقة حوالى اثنا عشر شخصا ، هذا ليساعدها ، وذاك ليشد من أزرها . وغادروا يحسبهم

الناظر إليهم موكبا جنائزيا . لم يكن ذلك تصرفا يبعث على الطمأنينة والثقة .

شاهد أنطوان المجموعة وهي تبتعد . هل يذهب هو أيضا؟ ما أقنعه بأن يفعل هو يقينه بأنهم لن يجدوا شيئا .

كان هنالك حشد في الطريق إلى المستنقع . من بعيد ، لم يكن ممكنا معرفة إن كان ذلك موكبا أم حدثا سياحيا .

جالسةً فوق الرصيف على كرسيها المقشش ، كانت مدام أنطونيتي تنظر إلى سكان بوفال يمرون أمامها ، باحتقار صارخ لم يعد أحد يلقي بالا له منذ زمن بعيد .

كان رجال الدرك قد وضعوا حواجز أمنية ليمنعوا الأهالي من الاقتراب من حافة المستنقع ، ليدعوا الغطاسين يؤدون عملهم . عندما وصلت بيرناديت ، مستندة على مدام كورتان وكلودين ، لم يعرف المكلف بالحراسة ما الذي عليه أن يفعله . ولكن ، لا يمكنكم أن تمنعوا أمه من أن تكون حاضرة ، قال الناس من حوله باستنكار . وظل العون يتردد ، لكن الحواجز راحت تهتز ، ودوت صرخات هنا وهناك ، وطارت شتيمة . . . وبدأت حالة العصبية التي رافقت الأحداث منذ الدقائق الأولى تعود شيئا ما . وفضل الموظف أن يتنحى جانبا فطُرِح السؤال : لمن سيُسمح بالدخول إلى المنطقة المسيجة برفقة بيرناديت؟

لحسن الحظ ، وصل قائد الدرك . أمسك بيرناديت من ذراعها بحزم وقادها بنفسه إلى الشاحنة ، حيث سقاها شايا من كظيمته . من مجلسها ذاك ، لم تكن لترى ما كان يحدث في المستنقع ، لكنها كانت هناك .

ظل أنطوان بعيدا . ولحقت به إيميلي . حاولت أن تبدأ حديثا

معه ، لكن الوقت لم يمهلها ، كان ثيو قد وصل ، ثم كيفين وسرعان ما لحقهما الآخرون ، الصبيان والفتيات ، كل منهم يحاكي سحنة أبويه ويتكلم بكلامهما . ومنهم من لم يكن يعرف ريمي إلا معرفة سطحية عابرة لكن كان هنالك إحساس عام بأن ريمي هو للأطفال كلِّهم بمثابة الأخ الأصغر مثلما أنه صار لكل البالغين بمثابة الإبن .

– مسيو غينو هو الذي اعتُقل ، قال تيو .

صدمهم هذا الإعلان . الرجل الذي ذكره تيو هو أستاذ علوم بالغ السمنة وتنتشر بشأنه إشاعات كثيرة . ثمة من رآه ، في سانت هيلار ، يخرج من أماكن . . .

مندهشة نظرت إيميلي إلى تيو :

– مسيو غينو ليس معتقلا عند الدرك ، ثمة من رآه صباح اليوم!

أجاب تيو جازما :

– إن كنتِ رأيته صباح اليوم ، فهو لم يكن قد اعتقل بعد . أما أنا فيمكنني أن أؤكد لك أنه بحوزة الدرك وأنَّ . . . حسنا ، لا يمكنني أن أقول أكثر مما قلت .

كانت مضجرةً ، طريقتُه تلك في حبس الأخبار عنده تمنُّعا منه لا غير ، لكنه كان دائما هكذا ، يحب أن يعطي لنفسه شأنا وأهمية . كانوا بحاجة إلى أن يعرفوا ، وارتفعت عدة أصوات تلح عليه . كان ثيو يحدق في قدميه ، وشفتاه مزمومتان كأنه يفاضل بين الصمت والكلام :

– حسنا . . . ، قال أخيرا ، لكن احتفظوا بما سأقول لأنفسكم ، ها؟

وسُمع هسيس من الوُعود . أخفض ثيو من صوته حتى لم

يكد يُسمع ، فكان عليهم أن ينحنوا ليسمعوه :

– غينو . . . شاذ . يقال إنه سبق له أن فعل أشياء مع عدد من التلاميذ . . . ورفعت شكاوى ، لكنها خنقت في مهدها . فعل ذلك مدير المدرسة طبعا! يبدو أنه يحبهم صغارا يافعين ، إن كنتم تفهمون ما أعنيه . لقد شوهد أكثر من مرة بجانب منازل آل ديسميد . بل لعل المدير نفسه ، قد يكون هو أيضا . . .

ذهل الجميع مما سمعوا .

أما أنطوان ، فلم يعد قادرا على فهم ما يجري . في اليوم السابق ، بدا رجال الدرك وكأنهم يضايقون مسيو ديسميد ، وما لبثوا بعد ذلك أن تركوه وشأنه . وهذا الصباح ، جاء الدور على مسيو غينو . وربما مدير المدرسة أيضا . كان البحث جاريا في جهة المستنقع حيث يعلم أنطوان أنهم لن يجدوا شيئا . للمرة الأولى منذ أربع وعشرين ساعة ، شعر بصدره ينشرح قليلا . هل ابتعد الخطر؟ لم يكن الهرب متاحا له ، لكنه لم يستطع أن يبعد عن ذهنه السؤال : ماذا لو لم يجدوا ريمي أبدا؟

طوال اليوم ، صار هذا المكان القريب من المستنقع والذي لم يكن يتيح لمن يقفون فيه أن يروا أي شيء مما كان يحدث ولم يكن يوصل إلى أي مكان ، صار وكأنه ملحق لبوفال . كانت الأخبار تأتيه من سلسلة لا أحد يستطيع أن يقتفي أثرها ، وتغادره محملةً بالتعليقات ، أي جديدة كليا تقريبا .

في منتصف الظهيرة ، ارتبط البحث الذي كان رجال الضفادع منهمكين فيه هناك عند المستنقع ارتباطا وثيقا باعتقال رجل ظلت الآراء بشأن هويته ، رغم تأكيدات ثيو ، منقسمة . في ذلك السباق نحو الإدانة بالجرم ، كان مسيو غينو متقدما ، لكن السائق الأرعن

كان يلاحقه عن قرب ، ذلك الذي دهس كلب مسيو ديسميد قبل يومين . قُتل من فوره ، قال بعضهم . ولم يعد أمام المسكين روجيه خياراً إلا أن يدس كلبه في كيس للنفايات ، وهل توقف ليعتذر ، ذلك الرجل ، وكأن شيئا لم يكن! وهنا بيت القصيد ، فلقد رأى أحدهم تلك السيارة عند مخرج بوفال ، كانت سيارة فيات . أو ربما سيتروان . لونها أزرق ممعدن . رقم تسجيلها ٦٩ ، كلهم سواق رُعْن هناك . لكن هل حدث ذلك في اليوم نفسه؟ ألم يقتل الكلب عشية اختفاء الصبي؟ لكنها عادت ، سيارة الفيات ، ألا تفهمون؟!

حاول البعض إلحاق بعض الأسماء بقافلة المرشحين للإدانة ، مثل مسيو دانيزي ، صاحب منشر الجسر ، لكن هذا الخبر لم يكن موثوقا ، فلقد كان رولان مصدره ، وهو عامل تشاجر معه قبل أسابيع بسبب اتهام له بالسرقة لم تتبين صحته من كذبه . الشائعة صلصة هشة ، إما أن تَعقِد فتثبت وإما لا . أما هذه الشائعة فلا .

أما مسيو ديسميد ، فقد كان يُنظر إليه على أنه غريب لا يوثق به . كان فظا ، يغلب عليه العنف ولا يرى بأسا في الشجار بل يندفع إليه عن طيب خاطر ، فلم يكن محبوبا ، لكنه كان يملك ميزةً لا مراء فيها ، أنه من بوفال ، أي أنه كان مشتبها به بدرجة أقل من مسيو غينو القادم من ليون ، وبالأحرى من السائق الأرعن الذي لم يكن قادما من أي مكان . لم يعتقد أحد بحق أنه قد يختطف ابنه ويقتله ، لم قد يفعل ذلك؟ لقد مشط رجال الدرك الطريق التي يكون قد سلكها مع ريمي للذهاب إلى المصنع ولم يجدوا شيئا . والحق أنه حتى أولئك الذين لم يكونوا يحبون مسيو ديسميد كانوا يجدون صعوبة في اتهامه .

كانت مجرد فكرة أن أحدهم ربما يكون قد قتل ريمي ، الصبي

الذي يقطر لطفا والذي يعرف الجميع وجهه المستدير وعينيه المتقدتين ، تصيب أحاديث الناس فتجمدها ، وتحل فترات طويلة من الصمت على الصورة التي لم يكن بوسع أحد تخيل مدى بشاعتها . حتى أنطوان لم يكن ينجح في ذلك ، لأن نظرته لما يحصل راحت تتبدل مع مرور اليوم . كان الشخص ما قبل الأخير الذي رأى ريمي حيا . وكان النقاش يحتد بشأن ذلك أحيانا . هل رأى أنطوان ريمي قبل أن يقطع الصبي مع أبيه تلك المسافة أم بعد ذلك؟ لأجل ذلك ، ولأكثر من مرة ، كان على أنطوان أن يعيد رواية ما حدث . كانوا يتحلقون حوله ويستمعون للمرة الألف روايته عن لحظة خروجه من منزله ، ويشاهدون معه من جديد ريمي وهو يقف متسمرا قرب الأقفاص التي هدمها والده ، ويتخيلون أكياس القمامة التي كان أحدها يحوي جثة الكلب . وانتهى الأمر بأنطوان إلى أن يصدق فعلا قصته المتخيلة تلك . عندما كان يرويها ، كان يراها ، كان يحياها ، وتتخذ قصته في عينيه كما في أعين من يستمعون له كثافة تقترب من الحقيقة شيئا فشيئا .

وينكمش ثيو وايزر ، الذي ما عادت الأضواء مسلطة عليه . وينظر أنطوان إليه من طرف خفي ، بينما يهمس ثيو إلى أصدقائه من المدرسة أو الثانوية الذين كانوا يحيطون به دائما وهو ينظر له شزرا . . .

دونما سبب واضح ، لم يتفق هو وثيو أبدا . كان هو وإيميلي وثيو ، يشكلون ثلاثيا غير رسمي وغريبا : أنطوان تلميذ نجيب أنهى لتوه السداسي الأول من الصف السادس محصلا درجات ممتازة في كل المواد تقريبا . إميلي تلميذة متوسطة ، من تلك اللائي يتم توجيههن في الصف الثالث إلى الشعبة التي يختارها الجميع في

تلك السنة . أما ثيو فتلميذ كسول ، لكنه كان يملك ما يكفي من الحيل في جعبته لكي لا يرسب إلا في سنة واحدة . كان يكبر الآخرين بسنة واحدة ، ولم يكن في الصف نفسه مع أنطوان وإيميلي . كان في صف كيفين وبول .

كان حرياً بهذا الوضع ، أي كونهما الوحيدَيْن من بوفال اللذين يدرسان في الصف السادس ، وأنهما يعرفان بعضهما منذ ولادتهما ، وأنهما يلتقيان كل يوم ، أن يقرب بين أنطوان وإيميلي ، لكن عبثا كان يحاول . . . آخر محاولاته لدعوتها للخروج معه باءت ، تحت كوخ سانت أوستاش ، بفشل ذريع . بشكل عام ، لم يكن يحسن التعامل مع الفتيات . مع إيميلي ، كان الأمر أسوأ . وهي التي كانت ، قبل أن يحدث كل ما حدث ، كلَّ أحلامه وكلَّ تخيلاته . . .

توقف الغطاسون قبيل الخامسة من بعد الظهر وقرر من بقي هناك من السكان العودة إلى بوفال .

حث أنطوان السير ليلحق بإيميلي التي كانت تمشي برفقة بضعة فتيات . وشعر فورا بالنفور في استقبالهن له . لم ينظرن إليه مباشرة ، ولم يخاطبنه . هل جاوز الحد عندما رضي بأن يروي مرارا وتكرارا قصته الصغيرة؟ هل كن يحملن عليه أنه جذب إليه كل ذلك الاهتمام؟ ولم يعد يحتمل الانتظار ، فجذب إيميلي من ذراعها عنوة وأرغمها على الابتعاد بضع خطوات .

- ثيو هو السبب ، قالت أخيرا .

كان ذلك متوقعا .

- إنها الغيرة ، لا أكثر .

- كلا! صاحت إيميلي . ليس الأمر كذلك . . .

خفضت بصرها ، لكنها في دخيلة نفسها كانت تتحرق شوقا لأن تقول لأنطوان الحقيقة ، ولم يحتج الأمر مزيدا من الإلحاح .

– يقول هكذا إنك أنت آخر من رأى ريمي و . . .

– وماذا؟

صار صوت إيميلي خفيضا ، عصبيا :

– وأن ريمي كان يوافيك كثيرا إلى الغابة . . .

تشنج أنطوان ، كما لو أنه تجمد ، أو أصيب بنزلة برد .

– ويقول . . . إنه بدلا من أن يكرِّوا المستنقع ، الأجدر بهم هو أن يبحثوا في جهة سانت أوستاش . . .

كانت تلك كارثة .

تفرست فيه إيميلي ملياً ، ومالت عليه برأسها قليلا ، لعلها تجلو الحقيقة من الكذب . ولبرهة بقي أنطوان مسمرا من هول ما سمعه . ما أشد خبث هذا الفتى ثيو وما أقذر غيرته ، ولم يدر بخلد أنطوان أبدا أن ثيو ، دون حتى أن يعلم ، كان يقول الحقيقة .

ما جعله يحزم أمره ويتخذ قراره هو نظرات إيميلي المتسائلة .

ودون أن يفكر في العواقب ، راح يركض خلف المجموعة . وهو يركض ، مد كلتا ذراعيه وضرب بهما ثيو على ظهره ودفعه دفعة قذفت به مترين إلى الأمام . ارتفع صوت الفتيات بالصراخ . وأسرع أنطوان إلى ثيو وبرك على صدره وراح يدك وجهه بكلتا قبضتيه . كان ذلك يصدر أصواتا لم يكن يعرفها أحد ، مخنوقة ، عضوية . . . كان ثيو أطول قامة من خصمه وأقوى منه جسدا ، لكن الهجوم أخذه على حين غرة . وعندما نجح في إبعاد خصمه عنه ، كان وجهه ملطخا بالدم . ووجد أنطوان نفسه ممددا على جنبه ، ورأى ثيو يستعد للقيام ، وسبقه . وقف ، ونظر حوله ، وبحث عن حجر ،

ووجد عودا سميكا بعض الشيء ، وخطا خطوة ، وأمسك به وبينما كان ثيو يتقدم نحوه مترنحا ، رفعه بكلتا يديه وهوى به على الجانب الأيمن من وجهه .

كان عودا طوله أربعون سنتيميترا تقريبا ، سميكا إلى حد ما ، لكن مهترئا تماما .

تكسر على رأس ثيو محدثا صوتا إسفنجيا . وإذ بأنطوان يحمل في يده قطعة خشب ممزقة بلون الفطر .

بلغ ذهول المجموعة الصغيرة مما يحدث أمامها مبلغه فلم ينتبه أحد إلى مدى سخف الوضع . فحتى وإن آل هجومه مآلا سيئا ، لقد تجرأ أنطوان لتوه على سلطة لم ينازعها أحد حتى الآن قط .

وجاء بعض الراشدين ليفضوا الاشتباك . صرخات ، وهَرَع ، ومناديل ، وأزيلت الدماء ، ولحسن الحظ لم يكن إلا جرحا طفيفا ، شفةً مشقوقة .

وسرعان ما استأنفوا طريقهم إلى بوفال .

انقسمت مجموعة الأطفال من تلقاء نفسها إلى مجموعتين . كان عدد من انحازوا إلى أنطوان أكبر من عدد الذين تبعوا ثيو .

كان أنطوان يمرر يده في شعره بعصبية ، حائرا مشوشا بسبب التشابه الغريب . . . في ظرف يومين ، ضرب مرتين ولدا بعود . أما أولهما ، الذي لم يكن يستحق ذلك ، فلقد أرداه قتيلا .

هل سيتحول إلى ضارب بليد ، أعمى ، كأولئك الذين نراهم في باحات المدارس في فترات الاستراحة؟

انتبه إلى أن إيميلي تمشي إلى جانبه ، ولم يكن ذلك ليطمئنه . يا للفتيات وليلهم إلى المشاغبين . . .

قبيل الخامسة مساء ، أعادت شاحنة الدرك بيرناديت ديسميد

إلى منزلها . كان مرآى هذه المرأة وقد هدَّها القلق يقبض الصدور .

في انتظار عودة والدته ، فتح أنطوان التلفزيون وتابع نشرة الأخبار ، والتقرير عن الاختفاء المقلق للصبي ريمي ديسميد . وتتابعت بعض الصور للمدينة ، الكنيسة والبلدية أولا . ثم الشارع الرئيسي . وفي محاولة منه لإلباس الحدث لبوسا مسرحيا (وكان ذلك مثيرا الشفقة لأنه لم يكن للصحفي ما يعرضه أو يقوله) ، تبع التحقيقُ خطَّ سير يبدأ من وسط المدينة ويقترب شيئا فشيئا من منزل الطفل ريمي .

واختنق أنطوان لمنظر الشارع الرئيسي ، والساحة ودكان البقالة ثم المدرسة تتالى كلها هكذا أمام عينيه . . .

راحت الكاميرا تقترب لا من منزل الصبي بل منزله هو .

لم تكن تبحث عن الصبي ، بل عنه هو .

أظهرت الصور أخيرا حيَّهم ، منزل آل موشوت ذي المصاريع الخضراء ، ثم حديقة آل ديسميد . ولكي تجسد الفراغ الذي تركه غياب الولد الصغير وتزيدَه اتساعا ، أظهرت الكاميرا محيطه ، مركزة على الأرجوحة لتبرز ما تكابده من هجر ، وعلى باب الحديقة الذي فتحه من دون شك لكي يخرج . . .

عندما توسَّعَ إطار الصورة ليضم جزءا من حديقة آل كورتان ، توقع أنطوان أن تركز الكاميرا على منزله ، أن تمسح واجهته ، أن تبحث عنه ، أن تجده أخيرا خلف النافذة ، أن تتقدم وتنهي جولتها بصورة مكبرة على وجهه : «وهو ذا الولد الذي قتل ريمي ديسميد ودفن جثته في غابة سانت أوستاش ، حيث سيجدها الدرك غدًا ما أن ينبلج الصبح .»

لم يتمالك أنطوان نفسه أن تراجع وركض ليختبأ في غرفته .

عادت مدام كورتان أخيرا من المدينة ، وقد أنفقت من الوقت في التبضع ثلاثة أضعاف ما تنفقه عادة . وسمعها أنطوان تُعيِّث وتُنبِّش في المطبخ ثم صعدت لتوافيه . كان وجهها منقبضا .

– ليس معلم المدرسة هو من اعتقله الدرك . . .

ترك أنطوان لعبة المتحولين ونظر إلى أمه .

– إنه مسيو كوفالسكي .

٧

زعزع هذا الاعتقال مدام كورتان وابنها . ولام أنطوان نفسه أن فكر في ذلك ، لكن لم يكن بيده حيلة : إن أدين مسيو كوفالسكي -ولَمْ يسأل نفسه كيف يكون ذلك ممكنا- ، فلن ينزعج كما كان سيفعل لو أن شخصا غيره هو من أدين . كانت أمه دائما تشعر بالتعاسة لكونها مجبرة على العمل عنده ، وكان ذا سمعة سيئة ووجه كريه بشع . البحث الذي لم يسفر عن شيء ، والمستنقع الذي كُري عبثا ، والآن اعتقال فرانكنشتاين . . . وبدأ أنطوان يتخيل أن هذا الكابوس ربما سينتهي بهذه الطريقة ، وأنه سيبقى في مأمن ، لكن كان هنالك ثيو ، الذي قد توصلهم تلميحاته المسمومة إليه . كم تراه سيتمادى؟ ماذا لو أفضى بها لأبيه؟ أو للدرك؟

لام أنطوان نفسه أن استسلم للغضب وأن اشتبك معه ، كان عليه أن يترك الأمور على حاله ، كم كان غبيا .

- لم أتوقع ذلك . . . ، تمتمت مدام كورتان . مسيو كوفالسكي . . .

كان واضحا عليها التأثر من الخبر .

- أنت لم تحبيه أبدا ، قال أنطوان ، لمَ تهتمين بالأمر؟

- نعم ، لا شك في ذلك! ولكن . . . يختلف الأمر عندما يحدث هذا لشخص نعرفه .

صمتت مليا . ظن أنطوان أن أمه كانت تتخيل عواقب هذا

الاعتقال على حياتها ، وربما على عملها . بدت قلقة .

– ستجدين عملا آخر . كنت لا تكفين عن الشكوى ، ولم تكوني يوما سعيدة بالذهاب إلى هناك .

– حقا؟ وتعتقد أنه من السهل أن تجد عملا ، ها؟

كانت غاضبة .

– قل ذلك للعمال الذين سيسرحهم مسيو وايزر مع بداية العام الجديد . . .!

كان قصة التسريح هذه تطوف كالشبح في بوفال منذ أسابيع . عندما كان يسأل ، كان مسيو وايزر يجيب بغموض . لا علم له بعد ، ذلك رهن بأمور كثيرة ، يجب انتظار حسابات الثلاثي . . . ولاحظ العمال في الشهرين الأخيرين أن الطلبيات كانت تترا وتتزايد باطراد ، لكن كانت تلك هي الحال في كل سنة مع اقتراب عيد الميلاد . وكان على مسيو وايزر أن يوظف مرة أخرى ، لساعات كل أسبوع ، عمالا سرحهم قبل ثلاثة أشهر ، وحتى مسيو موشوت عاد للعمل لبضعة أسابيع ، هل كان ذلك تعويضا عن أزمة الخريف الذي شهد انهيارا في دفتر الطلبيات؟ لم يعد أحد يفهم شيئا .

كثيرا ما كان أنطوان يسأل نفسه إن كانت أمه حقا بحاجة للعمل . ظلت تلعن مسيو كوفالسكي طوال خمسة عشر عاما ، وكم كانت تجني؟ لم يكن لأنطوان بذلك علم على وجه اليقين ، لكنها لم تكن تجني الكثير ولا شك ، وهل كانوا فقراء إلى هذا الحد؟ لم يحدث أبدا أن اشتكت مدام كورتان بشأن دفع النفقة المترتبة على زوجها . أحيانا كانت تقول «بهذا الشأن ، على الأقل ، سلوكه لا غبار عليه» دون أن يفهم أنطوان حقا بأي شأن آخر كان يمكنها أن تلومه .

– حسنا ، دعنا من هذا ، قالت أخيرا ، عليك الآن أن تستعد .
لكنها قالت ذلك وهي تفكر في أمر آخر .

بالتناوب مع المدن الأخرى ، كان قداس عيد الميلاد سيقام تلك السنة في بوفال . كان موعده الساعة السابعة والنصف مساء فلقد كان على الكاهن أن يجوب المقاطعة من أقصاها لأقصاها ليلقي ستة قداسات الواحد تلو الآخر .

كانت علاقة مدام كورتان بالدين حذرة ووظيفية . أرسلت أنطوان إلى التعليم الديني تحسبا ، لكنها لم تلح عليه عندما لم يعد يرغب في الذهاب . كانت تزور الكنيسة كلما أرادت غوثا . مَثَلُها ومثَلُ الله كالجار البعيد شيئا ما ، نجد سعادة في لقائه ولا نأنف من أن نسأله أن يؤدي لنا خدمة صغيرة من حين لآخر . كانت تذهب لحضور قداس عيد الميلاد كما يزور أحدنا قريبا له مسنا . وكان في هذا الاستعمال النفعي للدين جزء كبير من الامتثالية والتقليد . لقد ولدت مدام كورتان هنا ، وهنا كبرت وعاشت ، في مدينة ضيقة ، كل من فيها يراقب غيرَه ويراقبه غيره ، ورأيُ الناس فيها حملٌ ثقيل . قبل كل شيء ، كانت مدام كورتان تفعل ما يجب عليها فعله ، لا لشيء إلا لأن ذلك هو ما كان يفعله كل من حولها . كانت تتمسك بسمعتها كما تتمسك بمنزلها وربما كما تتمسك بحياتها أيضا ، لأنها بلا أدنى شك كانت ستموت لو أنها فقدت احترام الناس لها . ولم يكن قداس منتصف الليل في نظر أنطوان إلا واجبا من واجبات أخرى كثيرة يؤديها طوال السنة لكي تبقى أمه ، في نظره ، امرأة تُصادَق .

كما في كل مكان آخر ، لم يعد المؤمنون كثيرين في بوفال كما كانوا في السابق . وإن كان قداس الأحد خلال السنة يفلح في

جمع عدد لا يستهان به من المصلين ، فذلك لأنهم كانوا يأتون من مارمونت ومونجو وفوزيلييز وفارين ، وبوفال .

كان النشاط الديني موسميا إلى حد ما . معظم المؤمنين كانوا يؤوبون إلى القداس عندما يصيب الزراعة بأس ، وعندما تنكمش أسعار الماشية أو تهيِّئ مصانع الناحية نفسها لتسريح عدد من العمال من مناصبهم . كانت الكنيسة تعرض خدمة وكانوا يتصرفون معها كما يتصرف المستهلكون . وحتى المناسبات الدورية الكبرى كعيد الميلاد وعيد الفصح وعيد صعود العذراء لم تكن تستثنى من هذه القاعدة النفعية . كان تلك بالنسبة للمنخرطين طريقتهم في تسديد الاشتراك الذي يسمح لهم ، خلال العام ، باللجوء إلى الخدمات متى احتاجوها . وكان قداس عيد الميلاد دائما ينجح في هذا الباب نجاحا باهرا .

في السابعة مساء ، أفاض عدد كبير من سكان بوفال إلى وسط المدينة . كانوا سيفرحون برؤية كنيستهم ملأى بالناس لكن فرحتهم أفسدها أن عددا كبيرا منهم ليس من هنا .

كانت النساء يدخلن إلى الصحن حال وصولهن ، وأما الرجال فيتسكعون قليلا في الساحة ، يدخنون ويتصافحون ويتقصون الأخبار ، هذا يلتقي زبونا لم يعد يراه ، وذاك امرأةً كان على علاقة بها في غابر الأيام ، أو بعض الأصدقاء ، حتى وإن كان الزمن قد أرخى حبل الصداقة فلم يعد كما كان .

كان اختفاء الطفل ريمي ديسميد قد أثار الفضول ولأجل ذلك أيضا نجح القداس في جمع كل هذا الحشد . كان الناس كلهم قد شاهدوا التقرير الذي أذيع في نشرة الأخبار عن بوفال ، وجاء إليها الكثيرون من غير سكانها لعلهم يقرِّبون في أذهانهم بين صورتين

متنافرتين : ما كان معروفا عن بوفال من أنها مدينة ليس فيها ما يختلج القلب له ، وصدى المُصَاب الذي ما فتئ يتخذ بمرور الساعات بُعدًا مأساويا .

بعد ثلاثين ساعة من حدوثه ، لم يعد ممكنا ألاَّ يُنظر إلى اختفاء ريمي بعين الجزع .

وراح الجميع يتساءلون عن مآل كل ذلك .

متى سيجدونه؟ وماذا سيجدون؟

في الساحة ، لم يكن لأحد من حديث إلا هذا واعتقالُ مسيو كوفالسكي الذي كان ، حقيقة لا مجازا ، يمغنط الحديث . وجحظت عينا مدام موشوت الزرقاوان وهي تستمع إلى كلودين التي اتفق بمعجزة أنها كانت موجودة في المحل عندما جاء رجال الدرك .

– لم يلزمهم أكثر من خمس دقائق ، أقسم لكم . أما الجزار فكان مذعورا كفأر في مصيدة . . .

وسألت مدام كورتان :

– ولكن . . . بم يؤاخذونه تحديدا؟

كان المشكل في إثبات الغياب . كان أحدهم قد سمع بأن شاحنته شوهدت غير بعيد عن بوفال ، متوقفة على جانب الغابة .

– وأين كان في ذلك الوقت ، ذلك الحيوان؟ قال أحدهم .

– ليس هذا دليلا ، على أي شيء! قالت مدام كورتان . أنا لا أدافع عنه ، أما هذا ، فلا ، ولكن بحقكم! عندما لا يعود بإمكان أحدنا أن يتجول بسيارته دون أن يُتهم باختطاف الأطفال ، حينئذ أنا . . .

– ليس الأمر هكذا! قالت مدام أنطونيتي .

كانت تتكلم بصوت حاد وتلفظ كل حرف كما لو كان آخر ما

ستنطق به ، فكان لكلامها نبرة مقطعة مبتورة وحاسمة تؤثر على الكثيرين . لم يمر تدخلها مرور الكرام ، فنظر إليها الجميع :

- الأمر هو أن كوفالسكي هذا (الذي لم تطأ قدماي أبدا محله ، هذا ما ينقصني . . .) لم يحر جوابا عندما سئل عما كان يفعله أثناء الساعات التي اختفى فيها الولد! لقد شوهدت سيارته ، أما هو فلا يتذكر ماذا كان يفعل . . .

كانت سلطتها عليهم كبيرة إلى حد أن أحدا لم يكن ليفكر مجرد التفكير في سؤالها عن مصدر هذه المعلومات . كما أنها كانت دائما من أوائل من يصلهم الخبر في بوفال ومن أكثرهم دقة في تحريه ، وهو ما جعلها تختم بنبرة الواثق المطمئن :

- الأمر غريب ، أليس كذلك؟

هزت مدام كورتان برأسها ، نعم فعلا ، هذا غريب ، بل يبدو مثيرا للشبهات . . . لكنها لم تبد مقتنعة تماما .

ترك أنطوان أمه وذهب ليلحق بعدد من أصدقاء المدرسة المهندمين والذين جاءوا إلى القداس رغما عنهم . كانت إيميلي ترتدي فستانا مشجرا كأنه خيطَ من القماش الذي تصنع منه الستائر ، وبدت أكثر تجعدا مما كانت عليه في العادة ، وأكثر شقرة وأكثر حياة ، وجميلة جمالا غير معقول ، وهو ما أكدته اللامبالاة الصارخة التي بارزها بها كل الأولاد الحاضرين . لم يكن أبواها شديدا التدين يفوتان قداسا واحدا ، وكانت إيميلي مجبرة على تلقي التعليم الديني منذ نعومة أظفارها . كانت مدام موشوت تزور الكنيسة حتى ثلاث مرات في اليوم ، وزوجُها الرجلَ الوحيدَ الذي ينشد في الجوقة . كان له صوت جهير يطلقه بلا حياء ليعلو على كل الأصوات بقوة تعبر عن مدى عمق إيمانه . أما إيميلي ، فلم تكن

تؤمن بالله ، لكنها كانت تمحض أمها حبا عميقا وتتعلق بها إلى حد أنها لو طلبت منها أن تترهب لفعلت .

حل صمت عميق عندما انضم أنطوان إلى المجموعة . كان ثيو ، الذي فاحت منه رائحة التبغ ، مطرق الرأس ينظر إلى موضع قدميه . شفته منتفخة ومكتسية بحمرة داكنة مع جلطة صغيرة في أعلاها . ولم يتمالك نفسه فرشق أنطوان بنظرة تقطر حقدا . لكنه كان ذكيا بما يكفي ليفهم أن اعتقال فرانكشتاين المفاجئ يشغل الأذهان أكثر من خلافاته مع أنطوان . ثم إن كيفين لم يلبث أن خاطبه :

– وإذا؟ ألم تر أن مسيو غينو ليس هو من اعتقل ، أنت تهرف بما لا تعرف!

كان لثيو عيوبه ، من بينها أنه دائما على حق . كان يشابه أباه في ذلك ، وكانت تلك علامة مسجلة عند آل وايزر ، فهم لا يخطئون أبدا . وفي ظل ظروف كهذه ، كان من المهم بالنسبة له أكثر من أي وقت مضى أن يستعيد زمام الأمور .

– ليس صحيحا بالمرة! أجاب . لقد اعتقلوا غينو أولا ، ثم أطلقوا سراحه ، لكنهم يراقبونه ، أؤكد لك ذلك . الرجل شاذ ، هذا لا شك فيه . إنه رجل غريب الأطوار . . .

– نعم ، لكن! رد كيفين الذي تملكته سعادة ما بعدها سعادة أن صار له ، أخيرا ، على ابن العمدة مَمسَك .

– لكن ماذا؟ لكن ماذا؟ صرخ ثيو

– باه ، لكنهم اعتقلوا فرانكشتاين!

وسرت همهمة تصديق في المجموعة الصغيرة . لقد رسخ هذا الاعتقال الاعتقاد العام الذي أوجزه كيفين إيجازا بليغا بجملة واحدة :

- مع سحنته تلك . . .

لم يكن ثيو ، الذي فقد سيطرته على مجريات الأمور ، ينوي البتة أن ينسحب من المعركة ، فجرب مناورةَ التفاف بارعةً وأعلن قائلا :

- أنا أعلم منكم بهذا الأمر! الصبي . . . ميت!

ميت . . .

أثارت الكلمة شعورا بالدوار .

- ما معنى ذلك ، ميت؟ سألت إيميلي

انقطع الحديث . لقد وصل الأستاذ فالينير لتوه . كان مرأى الموثِّق يدفع ابنته على كرسيها المتحرك يفرض الصمت . هي في الخامسة عشر من عمرها ، شديدة النحافة ، حتى أن معصميها كانا لِيَلِجا في حلقة من تلك التي تعلق فيها المناشف . كان شغلها الشاغل هو تزيين كرسيها . لم يرها أحد تفعل ذلك ، لكن كان يقال إنها طلبت قناعا خاصا لتتمكن من طلائه بالرذَّاذ . وصار الكرسي مَعلَماً غريبا يتجدد باستمرار . كانت قد ركبت عليه منذ مدة قصيرة هوائيات راديو كبيرة مرنة من تلك التي تستخدم في السيارات ، وصار يبدو وكأنه حشرة ضخمة متعددة الألوان . كان بعض الأطفال يسمونها ماد ماكس . كان المرح الذي يشع من تحفتها يتناقض مع وجهها الذي كان دائما مستغرقا في التفكير ، لا يلقي بالا للعالم ، وكان يقال عنها إنها شديدة الذكاء ، ولكن كان يقال أيضا إنها ستموت وهي في ريعان الصبا ، وحقا كان من الصعب تصور أن هبة ريح عنيفة لن تذهب بها يوما ما . كانت تِرباً لعدد كبير من الأطفال في بوفال ، لكنها لم تكن تصادق أحدا . أو ربما لم يكن يصادقها أحد ، وصارت تأتيها معلمة للبيت منذ بداية مرضها .

كان في منظر هذا الكرسي الغريب وهو يدخل الكنيسة شيء من الاستفزاز . وتساءل الناس إن كان الله لن يؤاخذها بأنها لم ترتد من الملابس ما يليق بظرف كهذا . كانت تتبعها وأباها مدام أنطونيتي ، الحية التي لم تكن بأي حال من الأحوال لتوفت على نفسها فرصة التفرج على هذا النفر الذي كانت تبغضه منذ الأزل ، حتى النخاع .

– وهل مات يقينا؟ عاد كيفين يسأل بصوت يكاد يكون خفيضا بعد أن مرَّ الجميع .

كان سؤالا غبيا طبعا فالجثة لم يعثر عليها ، لكنه كان أصدق تعبير عن القلق الذي ألقت فكرة الجريمة المجموعة في لجه . كانت الكلمة تحبس الأنفاس . وتساءل أنطوان إن كان ثيو قد قال ما قاله ليبقى في مركز الاهتمام أم إن كان يتحدث بعلم .

– ثم من أين لك هذا؟ عاد كيفين ليسأل بإلحاح .

– أبي . . . ، قال ثيو

ترك الكلمة معلقة في الهواء ، ثم نظر إلى الأرض بوقار وهز رأسه بالنفي ، بهيئة من يعلم لكنه لا يملك أن يتكلم . ولم يعد أنطوان يحتمل :

– ما به أبوك؟

منذ المشاجرة التي نشبت في الظهيرة ، لم يعد لتدخل أنطوان الوزن نفسه ، وصار ثيو مجبرا على المزايدة عليه . وألقى نظرة حوله ليتأكد من أحدا لم يكن يسمعه .

– لقد تحدث إلى قائد الدرك . . . وهم يعلمون كيف حدث الأمر .

– ما الذي يعلمونه؟

– لنقل إنهم . . . (وأخذ ثيو نفسا عميقا متأنيا) . . . يملكون أدلة . صاروا الآن يعلمون أين يجب البحث عن الجثة . إن هي إلا ساعات و . . . لكن لا يمكنني أن أقول أكثر من ذلك .

نظر إلى أنطوان ، إلى إيميلي ، والآخرين وأضاف :

– آسف . . .

ثم استدار على عقبيه ببطء ، وعبر الساحة ودخل الكنيسة .

كانت تلك خدعة طبعا ، ولكن لم نظر ثيو إلى أنطوان أولا هكذا؟ أمسكت إيميلي بين إبهامها وسبابتها بخصلة من شعرها وراحت تفتلها بتأمل . إن كانت على علاقة مع ثيو (لم يزل ذلك لغزا بالنسبة لأنطوان) ، فهل كانت على اطلاع هي أيضا؟ لم تشترك في الحديث ، لم تقل شيئا . . . ولم يجرؤ أنطوان على النظر إليها .

– حسنا ، سأدخل . . . ، قالت أخيرا .

تركت المجموعة ودخلت بدورها إلى الكنيسة .

ود أنطوان لو أنه يهرب . وكان سيفعل دون شك لو أن أمه لم تظهر في تلك اللحظة .

– هيا ، أنطوان . . !

حوله ، سحق هذا عقب سيجارته وخلع هذا قبعته أو عمرته ، ثم أُغلق باب الكنيسة .

هل لك ، يا مريم ، هل لك أن تحملي الولد الذي ينتظره شعبك منذ زمن بعيد . . .؟

كان أنطوان يجلس ، إلى جانب أمه ، غير بعيد عن صف المقاعد المركزي ، أمامه مباشرة ، أو تكاد ، رقبة إيميلي التي كانت عادة تؤثر فيه أيما تأثير ، إلا في هذا المساء . كانت كلمات ثيو تدور

في رأسه . بحوزتهم أدلة . . . ووجد نفسه يتحسس معصمه . لو كان ذلك صحيحا ، فماذا كانوا ينتظرون؟ لِمَ لَمْ يأتوا فورا ليقتادوه؟

ربما هذا القداس . . .

أهلا بكم جميعا ، في ليلة عيد الميلاد هذه إذ نحتفل بميلاد يسوع المسيح .

كان الكاهن شابا أمرد ، بدينا ، ممتلئ الشفتين وذا نظرة مضطربة . كان يتحرك منحرفا بعض الشيء ، كأنه خجل يخاف أن يزعج أحدا ، لكن الناس كانوا يعلمون أن قلبه يضطرم بإيمان ضيق الأفق ، متزمت ومتشدد ، يتناقض تناقضا عجيبا مع مظهره . وكان من السهل تخيله عاريا ، مستديرا ، منتفخا ، يجلد نفسه في صومعته .

. . . الذي ينادينا ويحمل إلينا الفرح والسلام والأمل .

على يسار المذبح ، تحلقت نسوة حول مسيو موشوت الذي تطاول عليهن برأسه وكتفيه ، وأمامهم آلة الأرغن الصغيرة التي كانت مدام كيرنيفيل تعزف عليه منذ ثلاثين عاما .

كانت بعض الرؤوس تستدير من حين لآخر نحو باب الكنيسة . كانت خيبة الأمل كبيرة لغياب الزوجين ديسميد . كان غيابهما مفهوما ، لكن صدقا! قداس عيد الميلاد . . . ظلت الرؤوس تستدير إلى الباب ، وسرى الهمس .

ثم جاءا أخيرا .

كان كلاهما ممسكا بذراع الآخر كزوجين قديمين . بدت بيرناديت وكأنها تضامَّت وانكمشت بسنتيميترات عديدة . كان وجهها بلون الطباشير ، وارتسمت تحت عينيها دوائر عريضة . أما مسيو ديسميد ، فزم شفتيه ، كما يفعل رجل لا يكاد يكبح جماح

نفسه . وتبعتهما فالنتين ، ابنتهما ، ترتدي سروالا أحمر بدا شاذا غريبا في هذه الكنيسة وفي هذا الظرف . كانت إيميلي ، متبعة في ذلك الرأي السائد ، تقول عنها إنها «ماري اضطجعي هنا»[1] ، وهو ما كان يفزع أنطوان ويصدمه ، ويغذي مع ذلك أحلامه واستيهاماته .

وشعر ، إذ مروا به ، برائحة مسيو ديسميد القوية ، اللاذعة والعنيفة .

عندما تجاوزوه ، رأى أنطوان قوام فالنتين الجميل . . .

مولانا يسوع الذي أرسله الأب ليشفي البشر ويخلصهم . . .

سار آل ديسميد ببطء يقطعون الصف المركزي الطويل .

ورغم أن القداس لم يكن ليتوقف لأجلهم ، خلق مرورهم صمتا مختلفا ، صاخبا ، محملا بالإجلال والإعجاب ، موجعا واحتفاليا .

إلهنا ، يا من جعلت هذه الليلة المقدسة تسطع بالنور الحق ، أنعم علينا ، نحن من انكشف لنا هذا السر في الدنيا فنوّرنا ، بأن نذوق في السماء اكتمال فرحته . بحق ابنك الحبيب ، إلهنا يسوع المسيح .

كان في الهيئة التي دخل بها آل ديسميد شيء يشبه مجيء التائبين . كانت بيرناديت تجاهد لتمشي ، أما مسيو ديسميد ، فراح يتقدم ببطئ ، لكن بتصميم غريزي ، مطرقا هامته ، بخطى ثقيلة ، يحسبه المرء متوجها للقاء الكاهن ، مستعدا لأن يحسم المسألة برمتها مع ذات الله العلية نفسِها .

---

(١) عبارة تقال للمرأة الشبقة . - المترجم

عند بلوغهم طرف الممشى ، توقفوا . لم يكن قد بقي مكان شاغر في الصف الأول ، فاستداروا ليواجهوا الصحن ، كما لو كانوا يتهيأون ليعودوا أدراجهم ويخرجوا . فالنتين الآن تقف إلى جانب أمها . كان ثلاثتهم مصطفين يواجهون الجمع ، وكان في مشهد هذا الثور الكاظم غضبَه ، والمرأة المحطمة وابنتهما الغضة التي تنضح أنوثة وخيبة ، شيء يقطع نياط القلب . كأن هذه العائلة ، التي كان ينقصها ريمي بوضوح ، كانت تقدم لله عرضا عن نكبتها وكربها .

لم يكن أحد يعلم ما الذي سيحدث . وشعر أنطوان ، رغم أنه كان يجلس بعيدا ، في جسده بالطاقة الشرسة العنيفة التي كانت تنبعث من مسيو ديسميد عندما رفع هذا رأسه وحدّق بالحاضرين . ورغما عنه صوب نظرة إلى مسيو موشوت الذي صار ، منذ تلك الحادثة في المصنع عندما صفعه مسيو ديسميد ، يمقت والد ريمي مقتا شديدا . والحق أنه من فرط ما افتعل من مشاكل ، صار لمسيو ديسميد أعداء ألدَّة في بوفال . لكن رؤيته بهذا الشكل جعلت الصف الأول يضطرب فجأة ، وقام عدد من الجالسين ليفسحوا أماكنهم وجانَبُوا الصحن عبر الرواق الجانبي ليذهبوا إلى مؤخر الكنيسة . واتخذ آل ديسميد أماكنهم . أمام الكاهن الذي كان منهمكا في إقامة مراسيم القداس .

لأ نه يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا . . .

عندما غاب آل ديسميد عن مجال نظر أنطوان ، استدارت إيميلي إليه وحدقت فيه بإلحاح غريب .

أكان ذلك سؤالا؟ ماذا كانت تعلم؟

بحث عن معنى لتلك النظرة بعصبية ، لكنها كانت قد أشاحت بوجهها عنه . أكانت تلك رسالة ما؟ ماذا أرادت أن تقول له؟

لقد لزمت صمتا غريبا عندما قال ثيو : «صاروا الآن يعلمون أين يجب البحث عن الجثة» . وصوَّب ، بحركة لا إرادية ، نظره نحو باب الكنيسة .

« بحوزتهم أدلة» . . .

وإذ بالأمر كأنه انفجار : لقد فهم أنطوان أن إيميلي كانت تشير عليه بنظرها ألا يبقى هنا .

أن يهرب! نعم! كانوا ينتظرون نهاية قداس عيد الميلاد ليعتقلوه . لقد نصبوا له فخا ووقع فيه . في الخارج ، سيحيط رجال الدرك المكان بشريط . . .

غدا ستمحى الخطيئة من على وجه الأرض ويحكمنا مخلص العالم .

سيجد أنطوان نفسه محاصرا بجموع المؤمنين وهم يتقدمون نحو الباب ليخرجوا . وشيئا فشيئا ، ستبحث الأنظار عن سبب مجيء قوات حفظ النظام في غسق الليل ، أمام الكنيسة ، في أمسية عيد الميلاد . وسرعان ما سيجد أنطوان نفسه وحيدا في الممشى إذ يفرج له الجميع ليمر . . .

ستدوي الصرخات . . .

لن يبقى أمامه من خيار إلا أن يسلم نفسه للدرك أو أن ينتظر إلى أن تأتيه خطى مسيو ديسميد الثقيلة من خلفه . سيستدير أنطوان . سيكون والد ريمي قد أسند بندقيته إلى كتفه ، وستكون الفوهة على مستوى جبينه .

ندت عن أنطوان صيحة ، لكنها اختفت تحت أخرى .

ريمي!

في الصف الأول ، قامت بيرناديت لتنادي صغيرها . وإذ

جذبتها فالنتين من كم ثوبها ، عادت لتجلس ببطء .

وبغتت مدام كيرنيفيل الصيحةُ فكفت عن العزف ، وانطفأت أصوات الجوقة دون نظام .

عندئذ سمع صوت مسيو موشوت الراعد ، تبعه الأرغن فورا ، واستأنفت الجوقة النشيد الذي انقطع بتصميم أريد منه حث الجميع على رص الصفوف في وجه المحنة .

الله ، مخلصنا ، يظهر لنا دائما لطفه وإحسانه . هو من خلصنا! هو الذي . . .

كان الكاهن يقيم القداس ويتلقى كلا من هذه البوادر ، دخولَ آل ديسميد ، شرود الأورغن والجوقة . . . الخ . بابتسامة لا تكاد ترى ، تعبر عن فرحته أن فوضه الله ليمثل الصرامة الأخلاقية أمام محفل كان واضحا أنه ضل طريقه . وأكدت الفوضى التي سادت القداس حاجة رعيته إلى أن تجد فيه أخا ، أباً يَدلُّهم على الطريق . أما المؤمنون ، الذين وقفوا حيارى أمام ظروف تتجاوز قدرتهم على الفهم ، فراحوا يتابعون القداس باستسلام من لا يملك لقضائه دفعا ولا ردا .

وأثناء ذلك ، استعاد أنطوان رباطة جأشه ، كلا ، لا يمكن أن يؤجل اعتقال قاتل أطفال ، هذا مستحيل . عندما نتأكد ، نرسل الدرك ونعتقله . أما تأكيدات ثيو ، فكان يراد منها أن تحفظ له ماء وجهه . وحتى التلميحات التي نشرها في الليلة السابقة فلقد ألغاها الخبر الرئيسي ، خبر اعتقال فرانكشتاين . كان أنطوان يعلم أنه لم يكن لجزار مارمونت ما يعترف به ، ولم يكونوا ليستبقوه طويلا لديهم . ما الذي سيحصل عندئذ؟

. . . وإذا ملاك الرب وقف بهم ، فقال لهم الملاك : «فها أنا

أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب : أنه ولد لكم اليوم مخلص هو المسيح الرب .»

بدأ الكاهن الذي كان يعتقد أنه يمسك بزمام محفله عظته بصوت خفيض ، مسؤول ، تحمله المشيئة الإلهية التي أوكل إليه أن ينقلها .

كان بالطبع على علم بما يحدث في بوفال منذ اليوم الماضي (فلقد عرف عنه أنه أكثر سكان المقاطعة اطلاعا على ما يحدث فيها) ، وكان يعرف الصغير ريمي الذي كان يرافق أمه إلى قداس الأحد (أما الزوج فكان أقل ترددا على الكنيسة) . في أمسية عيد الميلاد تلك ، كان يعتبره ولا شك شيروبا ، ملاكا صغيرا مجنحا من نوع ما ، وينظر إلى الصفوف الأول محدقا بعائلته وبالوجوه الواجمة المتألمة حولها ، كما لو أن حزنهم ، بفعل الشَّعرِية ، قد تفشى في الحاضرين جميعا . وراعه أن لا يرى شيئا من الفرح الذي يفترض في مجيء يسوع أن يثيره فيهم .

كان ذلك واضحا ، لقد أعمت المؤمنين محنةُ الحوادث التي ألمت بهم ، فلم يفهموا معناها . وصمت مليا .

– ما تفتأ الحياة تمتحننا . . . قال أخيرا .

صار صوته فجأة قويا واضحا ، يرن في أرجاء الكنيسة كأنه الصدى ، يزيده وقعا أنه يطيل المكث عند أواخر الكلمات بعض الشيء :

– لكن تذكروا : «وأما ثمر الروح فهو : محبة فرح سلام طول أناة . . .» . طول الأناة! انتظروا ، وسترون!

لكن الناظر إلى وجوه الرعية كان سيرى أن الرسالة لم تصلهم بعد . كان الشرح واجبا ، فاندفع إليه الكاهن ، ممتلئا عزما . كان في

هذا القس الريفي مبشر ينتظر الفرصة ليتفتح ويظهر .

– يا إخوتي وأحبتي ، أنا أعرف أيَّ ألم يبرِّحُ بكم ، وأشارككم فيه . وإني آلم لما تألمون له .

كان ذلك أقرب مأخذا ، ووشت النظرات بأن الكلام لاقى استحسانا . وشجعه ذلك .

– لكن الألم ليس عرضا أو صدفة . . . ما هو الألم؟ هو أعظم جنود الله ، لأنه يقربنا منه ومن كماله .

ونغَّم كلمة «أعظم» بشكل رائع . لقد انطلق ، وتخلى عن الخطاب الذي كان قد أنفق وقتا طويلا في إعداده ليردده في كل كنائس الأبرشية . إيمانه الآن يتكلم عنه والله يهديه . وأحس ، كما لم يفعل من قبل أبدا ، بأنه قد أوكل بمهمة سامية .

– أجل! لأن التعب والألم والحزن هي كفارتنا وتوبتنا . . .

ترك الصمت ينسرب قليلا ، واتكأ بمرفقيه على القمطر ، وانحنى على مستمعيه وتابع بصوت عذب هادئ :

– وما فائدة الكفارة والتوبة؟

تبع السؤال صمت طويل . ولم يكن أحد ليدهش لو رأى يدا ترتفع ، كما في المدرسة . واستقام الكاهن ، ورفع فجأة سبابته نحو السماء وقال بصوت لا يقبل النقاش :

– لننتصر على الشر الكامن في كل منا! الله يختبرنا ليدعنا نريه عمق إيماننا!

استدار وخاطب ببعض الكلمات الصامتة مدام كيرنيفيل ، التي أجابت بهزة من رأسها .

وعاد الأورغن ليصدح من جديد ، يتبعه صوت مسيو موشوت الرنان . ولحقت الجوقة بنشيد الحمد في منتصف الطريق :

إلهنا يفعل دائما ما هو خير للبشر
هلليلويا ، سبحوه!
هو يوجِد جسد الأطفال من نعمته
هلليلويا ، سبحوه!
ليبادله الحب الذي يحب به العالم . . .

مكتبة

انضم المؤمنون إلى الجوقة ، الواحد تلو الآخر . كان من الصعب معرفة إن كانت الجوقة تمارس عليهم أثرا مهدئا ، لائماً ، أم أنها كانت فقط التعبير الواضح عن خضوعهم وطاعتهم ، لكن الكاهن كان سعيدا . لقد أدى ما عليه .

بعد الفراغ من الصلاة الأخيرة ، شوهد وهو يفض ورقة كما كان يفعل عادة للإعلانات الخورنية .

– من أجل إيجاد عزيزنا الصغير ريمي ديسميد ، ستنفذ غدا عملية تمشيط . الدرك يدعو إلى المشاركة فيها كل المتطوعين القادرين على ذلك . موعدكم التاسعة صباحا أمام دار البلدية .

ووقع النبأ على أنطوان كالصاعقة .

سيمشطون الغابة ، وسيجدون ريمي . الأمر ، هذا المرة ، واقع لا دافع له .

وكان للنبأ وقعه على جمهور المصلين أيضا ، محدثا جلبة سرعان ما أوقفها الكاهن بإشارة حازمة منه .

ثم بدأ بالتبريك . كان عليه أن يذهب إلى مونتجو ، وكان متأخرا عن موعده .

٨

كان الرجال ، وهم يخرجون من الكنيسة ، يربتون على كتف مسيو ديسميد ويهمسون له بكلمات متكلّفة . وكانت بيرناديت قد غادرت دون أن تنظر لأحد . أما ابنتهما فالنتين ، فظلت واقفة على الرصيف المقابل ، ولا أحد كان يعلم ما الذي تنتظره . باستخفاف مدروس ، ويداها في جيوب قميصها ، كانت تشاهد الجموع وهي تغادر الكنيسة .

أما أنطوان فكان يشعر بالألم يعتصر بطنه . كان خائفا ، ولم يكن هناك من يمكنه أن يفضي إليه بذات نفسه ، وأحس بوحدة رهيبة تلفه . ولم يتأخر في المغادرة والذهاب لبيته ، وراح يندس بين الجموع .

كان ثيو ، محاطا بحاشيته المعتادة ، لا يزال بلا تحفظ يفشي أسرارا تصيب من حوله بالدهشة . وتابع أنطوان طريقه بخطى سريعة . كان يمكن الشعور بالعداء بينه وبين ثيو حتى في الهواء الذي يلفهما . عندما سينتهي الأمر بأنطوان إلى أن ينكشف أمره ، سيتوج ثيو ملكا على المدرسة ، على المدينة ، ولن يصبح بعد ذلك بإمكان أيٍّ كان ، أبدا ، أن يناقش سلطته .

أحس أنطوان بنفسه مهزوما ، مسحوقا ، منهكا .

عند باب الحديقة استدار ورأى أمه خلفه على مسافة بعيدة ، تمسك بيرناديت من ذراعها . كانتا تمشيان ببطء .

كان لرؤية ذينك الشبحين المتألمين وقع السيل الجارف على أنطوان : مدام ديسميد ، تبكي ابنها القتيل ، وإلى جانبها مدام كورتان والدة القاتل . . .

دفع أنطوان الباب .

كان المنزل يعبق برائحة الطائر الذي كانت أمه قد وضعته في الفرن قبل أن تغادر . وأمام شجرة عيد الميلاد رزم كانت تتفنن دائما في وضعها دون أن ينتبه لها . لم يشعل الإضاءة ، وبقيت الغرفة مظلمة لا ينيرها إلا وميض أسلاك الزينة . كان قلبه مثقلا بهمومه .

بعد أن قاسى محنة القداس ، جاء احتمال قضائه سهرة العيد مع أمه ليجهز عليه .

قليلة هي الأشياء التي لم يكن يطالها هوس مدام كورتان بتحويل كل أحداث الحياة اليومية إلى طقوس بعينها ، وكانت سهرة عيد الميلاد تقام بالطريقة نفسها كل سنة . ما كان زمنا طويلا في نظر أنطوان فرحة صادقة وبريئة تحول بمرور السنوات إلى مجرد شكليات ثم صار له بمثابة العقاب . وكانت السهرة ، والحق يقال ، طويلة جدا . برنامج القناة الأولى ، ثم العشاء على العاشرة والنصف ، ثم الهدايا عند منتصف الليل . . . لم تفرق مدام كورتان أبدا بين ليلة عيد الميلاد وليلة رأس السنة ، كانت تنسجهما على منوال واحد ، ما عدا الهدايا .

صعد أنطوان إلى غرفته ليأتي بما اشتراه لأمه . هذا أيضا كان مهمة مقدسة ، أن يشتري لها كل سنة شيئا مختلفا عما اشتراه السنة السابقة . أخرج من خزانته رزمة لم يعد يتذكر ما فيها . كان مكتوبا على البطاقة المذهبة الملصقة بطرفها «تبغ يانصيب هدايا - ١١ شارع جوزيف-ميرلان» . كان ذلك محل مسيو لوميرسيي ، له

واجهة في المدخل على اليسار ، عرضت فيها سكاكين وساعات منبهة وسماطات ودفاتر . . . لكن أنطوان لم يستطع أن يتذكر ما الذي اشتراه هذه السنة .

سمع أمه تفتح باب الحديقة ، فهبط الدرج مسرعا ووضع رزمته مع باقي الرزم .

فيما مدام كورتان تعلق معطفها على المشجب .

- يا إلهي ، يا لها من قصة . . .

قلبت عودتُها مع بيرناديت كيانَها رأسا على عقب . تلك الليلة الثانية التي مضت على غياب الصغير ريمي ، ذلك القداس ، والكاهن إذ يدعو رعيته إلى أن يتوقعوا أسوأ الاحتمالات ، حسنا ، هو لم يقلها صراحة ، لكنه لم يقصد شيئا آخر بكلامه ، ثم اعتقال شخص من معارفها ، كل ذلك جعل بلانش كورتان تشعر بأنها تصطدم بشيء لا تفهمه ولا تدرك معناه .

خلعت قبعتها وعلقت معطفها وانتعلت خفيها وهي تهز برأسها .

- لا أكاد أصدق . . .

- ماذا؟

شدت مئزرها على وسطها .

- أن يختطف صبي هكذا . . .

- أوه ، أمي ، توقفي . . .!

لكن مدام كورتان كانت قد انطلقت . كانت دائما بحاجة ، لكي تفهم ، لأن تخلق لنفسها صورا :

- ولكن ، هل تتخيل أنت ذلك ، أن يختطف صبي في السادسة . . .؟ ثم لم قد يفعل أحد ذلك . . .؟

وانقضت عليها رؤيا ما . عضت معصمها ، وانفجرت بالبكاء .

لأول مـــرة منذ سنين عـــديدة ، ودَّ أنطوان لو أنه يأتي إلى جانبها ، ويضمها إليه ويطمئنها ويستسمحها ، لكن وجه أمه المدمَّر جعل قلبه يهتز فظل مسمرا في مكانه لا يجرؤ على الحركة .

- سيجدونه ميتا ، هذا الصبي ، لا شك في ذلك ، لكن بأي حال سيكون عندما يجدونه . . .؟

ثنت أطراف مئزرها لتمسح عينيها . أما أنطوان فترك الغرفة منهارا ، وركض صعودا إلى غرفته وارتمى على فراشه ، وانفجر بالبكاء هو أيضا .

لم يسمعها تدخل . لم يشعر إلا ويدها تلمس عنقه . لم يزحها عنه . أكانت تلك لحظة الاعتراف؟ أراد أنطوان ذلك أكثر من أي وقت مضى وراح ، وهو يدفن وجهه في وسادته ، يفتش عن كلماته . لكن لحظة الخلاص لم تك قد حانت بعد .

قالت مدام كورتان :

- يا عزيزي المسكين ، أحزنتك أنت أيضا هذه القصة . . . هذا الولد الصغير كان لطيفا جدا ، أليس كذلك . . .

صارت الآن تتحدث عنه بصيغة الماضي . وراحت تفكر مليا في مدى قسوة ما فعلت ، بينما كان أنطوان يسمع دمه يخفق ويدق صدغيه دقا عنيفا حتى أن رأسه صارت تؤلمه .

ولأول مرة ، تبدلت طقوس نهاية السنة .

فتحت مدام كورتان جهاز التلفزيون ، لكنها لم تتفرج . كان الطير كبير الحجم كما في السنوات السابقة (كان عليه حتما أن يشبه ديكا روميا أمريكيا ضخما كما في الرسوم المتحركة ، ويكفي طعاما لأسبوع كامل) ، وجلسا إلى المائدة دون أن يسألا عن الوقت .

لم يأكل أنطوان شيئا . ومضغت أمه قطعة من الصدر وهي تنظر إلى الشاشة . كانت موسيقى المنوعات تملأ غرفة الطعام صخبا ، مع ضحكات وهتافات . كان عدد من مقدمي البرامج يتألقون وهم يمسكون بالميكروفونات كما لو كانت كرات بوظة ويهتفون بالشعارات المناسبة .

ونظفت أمه صحنها بذهن شارد ودون أن تنبس ببنت شفة ، وهو ما لم يكن من شيمها . وأحضرت حطبة الميلاد ، الحلوى التي طالما كرهها أنطوان ، ثم قالت بصوت مليء بالطيبة ، صوت جَهِدت أن تجعله مقنعا جذابا :

– والآن ، ماذا لو فتحنا الهدايا؟

لأول مرة ، لم يخطئ أبوه . كان الطرد يحوي فعلا لعبة البلاي ستايشن التي طلبها منه ، لكن أنطوان لم يشعر إلا بسعادة مبهمة لأنه كان يحسن بالوحدة . مع من كان سيلعب؟ لم يستطع أن يتخيل أن ثمة غدا ينتظره . عندما يعتقلونه ، هل سيسمحون له بأن يأخذ اللعبة معه؟

– تذكر أن تهاتف أباك ، قالت له مدام كورتان وهي تفتح هديتها .

كانت تبالغ في إظهار لهفتها ، ماذا يمكن أن تكون الهدية . . . وتذكر أنطوان أخيرا ما الذي اشتراه : كوخاً خشبيا صغيرا ينفتح سقفه فينبعث منه لحن موسيقي .

– يا لها من تحفة! صاحت أمه . أين وجدته ، إنه رائع!

دورت الآلة وراحت تستمع إلى اللحن باسمة وهي تفتش في ذاكرتها . كان ذلك اللحن من النوع الذي سمعه كل واحد منا ألف مرة دون أن يهتم لاسمه .

– آه ، أنا أعرفه ، تمتمت مدام كورتان وهي تبحث عن دليل الاستعمال .

وقرأت :

– إيديلفايس (ريتشارد روجرز) . نعم ، ربما . . .

قامت وقبلت أنطوان الذي كان قد بدأ يركب لعبة البلايستاشن . ولأن أباه هو من أرسلها له ، كان لا بد من وجود خلل ما : كان يتمنى الحصول على **كراش تيم ريسينغ** لكنه حصل على **غران توريسمو** ، وهي نسخة العام الماضي من اللعبة .

فرغت مدام كورتان من إخلاء الطاولة ، وغسلت الصحون ثم عادت إلى غرفة الاستقبال مع كأس نبيذ كانت قد صبته لنفسها أثناء العشاء ولم تتناول منه شيئا . رأت أنطوان يحمل بيده مقابض اللعبة ، لكن عينيه كانتا فارغتين . كان يحدق في نقطة غامضة في مكان ما وراء الجدار . كانت ستفتح فمها لتسأله عندما رن جرس الباب .

انتفض أنطوان مذعورا .

من تراه يكون ، في ليلة كهذه ، في ساعة كهذه . . .؟

حتى مدام كورتان ، التي لم تكن جبانة ، ترددت وهي تتقدم عبر الرواق . أزاحت الغطاء عن العينية ووضعت جبينها على الباب وفتحت بسرعة .

– فالنتين . . .!

قالت الفتاة معتذرة :

– إنها أمي ، لقد حبست نفسها في غرفتها ، ولا تريد أن تفتح لأحد ، ولا ترد على أحد . . . أبي يسأل إن . . .

– أنا قادمة!

راحت مدام كورتان تجيء وتذهب بين المدخل والمطبخ ، وهي تنضو عنها مئزرها وتبحث عن معطفها . . .

– ادخلي ، فالنتين!

من مسافة قريبة ، ظهرت الفتاة بوجه مختلف عن ذاك الذي رآها به في وقت سابق من المساء ، بتكشيرته المتعجرفة ونظرة الاحتقار تلك . كان الأحمر على شفتيها ، ذو اللون القاني ، يظهر شحوب وجهها . وكانت عيناها ، اللتان ارتسم تحتهما خط عريض داكن الزرقة ، مغرورقتين . خطت خطوة إلى غرفة الاستقبال ، ونظرت إلى أنطوان الذي استوى قائما . واكتفت بإيماءة من رأسها رد عليها أنطوان بحركة سريعة من يده . وراح يحدق بالفتاة التي صارت الآن تتخذ هيئة أقل اكتراثا ، كما لو أنها كانت وحدها ، لا يراها أحد .

كانت ترتدي الملابس نفسها التي جاءت بها إلى القداس آنفا ، سروالَ الجينز الأحمر ، وقميصَ الرياضة المصنوع من السكاي والذي فتحته وهي تتنهد ، وكأنها أحست فجأة بالحرارة الخانقة في الغرفة ، لتكشف عن كنزة من صوف موهير وردي اللون تصف جسدها الجميل . كان عطرها مستوحى من زهرة معروفة ، أما عن اسمها . . .

– ولكن ، قالت مدام كورتان وقد ارتدت معطفها ، ألست جاهزا بعد؟

– هل آتي أيضا؟

– نعم بلا شك ، ستأتي! في ظروف كهذه . . .

ونظرت إلى فالنتين محرجة .

لم يفهم أنطوان كيف تجعل «ظروف كهذه» وجوده لازما . هل

قالت ما قالته لأن فالنتين كانت معهما؟

- حسنا ، سأذهب أنا ، أنطوان الحق بي ، ها؟

كانت فكرة دخوله إلى بيت الجيران ووجوده أمام مسيو ديسميد تتلف معدته .

صُفق الباب .

سرح نظره بحثا عن مخرج .

- ما هذا؟

استدار بسرعة . فالنتين لم تذهب مع والدته ، كانت هنا ، أمامه . كانت تمسك بيدها مقبض البلايستايشن ، ومسكتاها موجهتان إلى السقف . وأمسكت بإحداهما ، كما لو أنها أمسكت بعصا مطرقة وتظاهرت بالفضول الشديد . ثم راحت يدها الصغيرة الرشيقة تجسها ، وتتبعها بسبابة ممدودة وكأنها تستكشف معالمها وتحاول قياسَ مدى انصقالها وتلمُّسَ نسيجها ، لكنها وهي تفعل ذلك ، سددت نظرها إلى عيني أنطوان .

- ما هذا؟ عادت تقول .

- هذا . . . لكي نلعب به . نطق أنطوان .

ابتسمت وحدقت به ، دون أن تتوقف عن تحريك العصا .

- آه ، لكي نلعب به . . .

أومأ أنطوان أن نعم ، ثم فرَّ وصعد الدرج بسرعة ودخل إلى غرفته وأخذ نفسا عميقا ، كان قلبه ينبض بسرعة جنونية . وبحث عما جاء لأجله . آه نعم ، الحذاء . وجلس على فراشه .

تملكه الإنهاك مرة أخرى ، ولم يستطع أن يقاوم رغبته في الاستلقاء وإغماض عينيه .

لم تفارقه صورة يد فالنتين ، وكان لا يزال يشعر بحضورها

الجاذب . كانت البلبلة التي استبدت به قوية ومؤلمة حتى أنه استعاد لهفته .

لهفته إلى أن يؤخذ بجرمه ، إلى أن يعتقل .

لهفته إلى الاعتراف . إلى أن يتخلص من حمله أخيرا . وأن ينام ، ينام .

كانت تبعات اعترافه المخيفة تتلاشى أكثر فأكثر أمام استحالة أن يحيا حياة كهذه ، في رعب كهذا ، مع صور كهذه . حالما كان يغمض عينيه ، كما فعل الآن ، كان ريمي يظهر له .

الصورة نفسها دائما .

الولد الصغير الممدد في الحفرة السوداء يمد إليه يديه . . .

أنطوان!

- ما أسرع ما نمت!

انتصب أنطوان كما لو أن الكهرباء صعقته .

كانت فالنتين تقف عند إطار الباب ، وقد نضت عنها قميصها الرياضي وألقته بلا مبالاة على كتفها وأمسكته بسبابتها المنثنية .

تفحصت الغرفة بفضول لا علاقة له بالفضول وخطت بضع خطوات ، بمشية انسيابية وراقصة لم يعهدها أنطوان فيها . كان العطر الذي وجده منها منذ قليل يعبق المكان كله .

لم تكن فالنتين تنظر إليه . وراحت تطوف في الغرفة ببطء ، مثل زائرة لاهية ولا مبالية في متحف .

أحس أنطوان بحرارته ترتفع وحاول جاهدا أن يستعيد رباطة جأشه . انحنى والتقط حذاءه وشرع يربط الشراك ، محنيا هامته مثبتا نظره على الأرض .

شعر بفالنتين تقترب وتدخل مجال رؤيته رغم أنه اجتهد أن

يضيقه ما وسعه ذلك . تسمرت أمامه ، وساقاها منفرجتان قليلا . لم يكن يرى منها إلا حذاء الرياضة الأبيض ، وأسفل سروالها الأحمر المبتل بعض الشيء . لو أنه رفع رأسه ، لجاء نظره على مستوى خصرها .

تابع عمله لكن يديه المرتجفتين لم تعودا تطيعانه ، وتملكه نَعْظٌ كاد يؤلمه . أما فالنتين فظلت ثابتة لا تتحرك . بدت وكأنها تنتظر بصبر أن يمر الأمر . عندئذ قام أنطوان بوثبة واحدة ، والتف حولها لكي لا يلمسها ، لكن مجال المناورة كان ضيقا جدا فاختل توازنه وهوى على فراشه . وتقلَّب بحدة سمكة أخرجت من الماء ، لكي لا تُبصر الفتاة ما اعتراه . قام من رقدته ، وسرعان ما بلغ الباب . . .

لم تستدر فالنتين ، كان قميصها قد وقع أرضا . وكان هو يراها من الخلف .

بساقين راسختين ثابتتين وقفت ، قبالة الفراش ، وصلَّبت ذراعيها أمامها وغطَّت كتفيها .

لاحظ أنطوان أظافرها المطلية بالوردي .

أحس بتوعك يعتريه . ولم يستطع أن يعرف إن كان على وشك فقدان توازنه أم إن كانت فالنتين هي التي تترنح وتهز وسطها رويدا رويدا ، في رقصة ثابتة ، صامتة ومغرية .

استند أنطوان إلى كِفاف الباب . كان بحاجة إلى الهواء . لا بد من الخروج . حالا .

نزل الدرج بسرعة واندفع إلى المطبخ وفتح حنفية الماء مشرعة ودفن وجهه بين يديه . ثم انتفض ، وأمسك بالفوطة وتنشف .

عندما وضعها ، لمح خيال فالنتين يعبر الرواق متوجها إلى

الباب . دخل الهواء الغرفة فركض أنطوان . كانت فالنتين قد خرجت وراحت تمشي بخطى ثابتة دون عجلة . ودلفت إلى حديقة البيت وعبرتها بلا مبالاة ودخلت إلى المنزل دون حتى أن تهتم بإغلاق الباب إذ كانت على يقين من أن أنطوان يركض وراءها .

قبل أن يدرك ذلك ، كان في بيت آل ديسميد .

وصفعته رائحة البيت الفريدة من نوعها على وجهه . لم يكن يطيقها قط ، كانت مزيجا من الكرنب والعرق والشمع . . .

خطا أنطوان خطوة وتوقف فورا .

أمامه ، على الطرف الآخر من طاولة غرفة الاستقبال الطويلة ، جلس مسيو ديسميد يحدق به .

وأيقن فجأة أن فالنتين لم تأت إلى منزله في الحقيقة إلا لتحضره إلى هنا ، أمام أبيها .

تظاهرت الفتاة بالتسكع في أرجاء الغرفة ، ففتحت جهاز التلفزيون بلا مبالاة ، ومررت سبابة لاهية على زاوية جهاز التحكم . ثم راحت تتفرس في أنطوان . لم تعد الفتاة ذاتها . لقد لحق بالمراهقة العابثة ظِلُّ أخيها الصغير وراح يحوم في الغرفة كما تحوم النُّذُر . وأشاحت عنه فجأة ثم صعدت الدرج وغابت دون أن تندَّ عنها حركة أو تلقي نظرة .

– هم هناك في الأعلى ، قال مسيو ديسميد بصوت أجش .

أشار بحركة من رأسه إلى الطابق الذي كانت تصل منه همهمات مبهمة . لم يكن ينير غرفة الاستقبال إلا لمبة المطبخ وشريط شجرة عيد الميلاد ، تماما كالذي عند آل كورتان ، ولا شك في أنهما ابتيعا من متجر واحد .

وقف أنطوان مشلولا . كانت أمام مسيو ديسميد كأسه الفارغة

وزجاجة خمرة ، وقد أخفض عينيه متفكرا . وظل على حالته تلك مليا ثم بدا وكأنه تذكر فجأة أنه لم يكن لوحده . أشار إلى الكرسي القريب منه . وخشي أنطوان أن يقوم الرجل ويأتي إليه عند الباب ليجبره على الجلوس . تقدم على استحياء . وكلما اقترب ، وكلما رآه عن كثب ، ازداد خوفا من ذلك الرجل الضخم العنيف .

- اجلس . . .

أحدث الكرسي الذي جذبه أنطوان صريرا كصرير قطعة الطبشور على اللوح الأسود . ونظر إليه مسيو ديسميد مليا .

- أنت تعرفه جيدا ، ريمي . . . ها؟

زم أنطوان شفتيه قليلا ، نعم ، معرفة كافية ، أعني ، قليلا . . .

- أتتخيله يهرب من المنزل ، هذا الولد؟ وهو في السادسة؟

أومأ أنطوان برأسه أن لا .

- أتتخيله يغادر هكذا بعيدا جدا؟ وأن يضل طريقه وهو الذي ولد هنا؟

أدرك أنطوان أن أسئلة مسيو ديسميد لم تكن أسئلة ، بل أفكارا كان يقلبها في ذهنه منذ ساعات . ولم يجب .

- ولِمَ لا يبحثون عنه ليلا ، ها؟ ألا يملك الدرك مصابيح؟

رفع أنطوان يديه بهيئة من لا حيلة له ولا جواب يَحيره .

كانت رائحة مسيو ديسميد مزعجة جدا ، وانضافت إليها رائحة الخمر التي بالغ في شربها بلا شك .

- سأذهب . . . ، تمتم أنطوان .

وإذ لم يتحرك مسيو ديسميد ، قام أنطوان بحذر شديد ، كأنه لم يكن يريد أن يوقظه .

وإذا بمسيو ديسميد يستدير إليه ، ويمسكه من وركيه ويشده .

وأحاطت به ذراعاه من خصره ، ودفن رأسه في صدره وانخرط في البكاء .

كاد أنطوان أن يرتخي لكنه صمد . كان يرى رقبة والد ريمي البيضاء العريضة وقد هزها النحيب ، ويتنشق رائحته النفاذة .

وإذ وجد نفسه أسير ذلك الرجل وساعديه المتينين ، ودّ لو يموت .

على الخزانة ، كانت صور العائلة موضوعة في أطر متباينة . كان أحدها فارغا ، ذاك الذي كان يضم الصورة التي تسلمها الدرك وعرضت في نشرة الأخبار ، ريمي بقميصه الأصفر ، وخصلة شعره . . .

لم تُزحزح الأطر الأخرى من مكانها لملء الفراغ ، بانتظار أن ترجع صورة ريمي إلى مكانها ، وأن تعود الأمور إلى نصابها أخيرا .

٩

بدا وكأن النهار لم يكن يريد أن يطلع أبدا . كانت تُظِل المدينة سماء تلونت بأبيض لبني ومتجانس . عندما وصلت أول دفعة ، كان مسيو ديسميد يقف مقابل حديقته ، تحت ضوء الطنف ، منتعلا جزمة غليظة ، متلفعا بسترة جلدية سمراء فاتحة . كان وجهه متجهما متحجرا كما جرت عادته عندما يمر بأيام عصيبة .

لم يكن في الجمع إلا القليل من النساء ، وبعض الفتية أيضا ، أكبر سنا من أنطوان ، فتية في السادسة عشرة ، والثامنة عشرة ، لم يكن يعرفهم إلا معرفة عابرة .

لم يغمض لأنطوان جفن في ليلته تلك . كان خائر القوى تماما .

ما أن رأى ، من نافذته ، كل المحتشدين أمام بيت آل ديسميد والمتهيئين للمسير إلى البلدية ، حتى انهارت عزيمته .

- كيف؟ ألن تأتي؟

كانت مدام كورتان تتميز غيظا . كيف سينظر الناس إليه إن لم يذهب ، ماذا سيظنون به ، بها ، بهما؟ إن لم يكن لشيء ، فلأجل بيرناديت على الأقل . . . المدينة كلها ستشارك في عملية التمشيط تلك ، إنه واجب!

- آل موشوت ليسوا ذاهبين! قال أنطوان

حجته لئيمة ، وكان يعلم ذلك . لم يكن أحد يكره آل

ديسميد أكثر من آل موشوت ، بل لقد قيل إنه من حسن الحظ أن وجد بيت آل كورتان ليفصل بين منزلي العائلتين ، ولولا ذلك لكان الرجلان قد اقتتلا منذ زمن بعيد .

– ولكن ، قالت مدام كورتان ، أنت تعلم حق العلم أن . . .

وحسماً لأي نقاش ، استسلم أنطوان ونزل .

صافح عددا من الأيدي واجتهد أن يبقى أبعد مسافة ممكنة من آل ديسميد ، الذين كانوا على أي حال ، محاطين بأناس كثر . كانت فالنتين لا تزال ترتدي سروال الجينز الأحمر لكن لونه ، بسبب ضوء الصباح الحزين ، بدا متغيرا ، أما الفتاة نفسها التي ابتلعها الحشد الصغير ، فقد بدت أكبر سنا ، وفي غير محلها ، ثانوية .

سار الموكب نحو مكان التجمع .

وبقدر الصمت المهيب الذي التزمه المحيطون بديسميد وزوجه ، لم يتوقف من كانوا بعيدين عنه عن إرسال التعليقات والإشاعات . أولا ، هذا المستنقع . . . في نهاية المطاف ، مضت سنوات وهم يتحدثون عن ضرورة سد المنافذ إليه ، لكن البلدية لا تحرك ساكنا .

وعملية التمشيط هذه ، هل البلدية هي التي بادرت إليها أم المحافظة؟

لقد وجد سخط السكان الذي راح ينتشر منذ يومين متنفسا جديدا في هذا الظرف الاستثنائي ، وانهالت سهام النقد على البلدية ، أي على رئيس البلدية ، أي على صاحب شركة وايزر . كان في ذلك الغضب المبهم كلُّ العداوة التي جعلها خطر الطرد تخيم منذ مدة طويلة على الجماعة كلها والتي لم تستطع أن تفصح عن نفسها ، فوجدت في هذه الحادثة ذريعة لها .

كانت الحماية المدنية قد نصبت خيمتين كبيرتين بيضاوين أمام دار البلدية ، وعسكر رجال الإطفاء والدرك . ولكن ، أين الكلاب؟ سأل أحدهم . كانت مدام كورتان والبقالة تتحدثان ، وأنطوان يحاول استراق السمع ، لكن عبثا ، كان يشعر في رأسه بقرع خفيض واهتزاز لا يتوقف ، وكانت الأصوات تأتيه مبطنة ، فيلتقط كلمة من هنا ، عبارة من هناك ، أنطوان! واستدار . كان ذلك ثيو .

- لا مكان لك هنا!

فتح أنطوان فمه ولِمَ لا . . . كان ابن رئيس البلدية يقف متعاظما ، سعيدا بإعلانه خبر السوء .

- يلزم أن تكون بالغا لكي تستطيع المشاركة . قال ثيو وكأن هذا القيد لم يكن يعنيه .

استدارت مدام كورتان نحوهما بسرعة :

- هل هذا صحيح؟

وجاء رجل الدرك ، نفسه الذي استجوب أنطوان قبل يوم .

- يجب أن تكون في السادسة عشرة على الأقل . . .

نظر إلى الولدين وافترت شفتاه عن ابتسامة خفيفة وأردف :

- جميل أن تسعيا إلى المشاركة ، لكن . . .

كان الحشد يتزايد بلا توقف بانضمام أفراد جدد إليه . كانت الأيدي تتصافح واتخذت الوجوه هيئة التواضع ، والحزم أيضا . كان العمدة يتحدث إلى عدد من أفراد الحماية المدنية والدرك . وفُردت الخرائط . وجاءت شاحنة بأربعة كلاب يكاد الواحد منها ينفلت من عقاله لشدة مجاذبته رَسَنه . آه ، أخيرا! قال أحدهم .

استغرق تفريق الفرق وقتا طويلا . ووضعت كل فرقة تحت إمرة

دركي أو إطفائي . وصدرت الأوامر حازمة واضحة بينما راح الرجال يهزون برؤوسهم المتقلنسة أن سمعاً وطاعةً .

عَدَّ أنطوان عشرة فرق كل فرقة فيها ثمانية أشخاص .

وجاء فريق التلفزيون وكان لذلك وقعه . وسرَّح المصور عدسته في الحشد الذي كان كل أفراده حريصين على الظهور بمظهر منضبط وملتزم ومسؤول . ولم يكن تعوز المراسلةَ الصحفية الاختياراتُ ، فكل واحد من الموجودين كان له ما يقوله . وكانت امرأة ، لم يرها أنطوان قبل ذلك أبدا ، تعبر عن مدى تأثرها لما حدث وتضم قبضتيها إلى صدرها ، حتى أن من يراها لن يصدق أبدا أنها ليست أم الولد المفقود . وبينما كانت تفيض في شرح أحاسيسها ، كانت المراسلة تشرئب بعنقها مستميتة في البحث عن والدي الطفل . وعندما أبصرتهما ، لم تكلف نفسها عناء انتظار أن تكمل المرأة كلامها ، واخترقت الحشد محرجِلةً ، يتبعها المصور . ووصلا أخيرا إلى الخيمة البيضاء .

ما أن رأتهما مدام ديسميد حتى أجهشت بالبكاء . وتنكب المصور آلته بسرعة .

كان مقدرا للصور التي التقطت عندئذ أن تجوب أنحاء فرنسا كلها في أقل من ساعتين .

كانت حيرة مدام وديسميد وكلماتها تقطع نياط القلب . أعيدوه إليَّ . كلمتان بالكاد مسموعتان .

أعيدوه إلي .

نُطقتا بصوت متكسر ، متهدج .

وبلغ التأثر مبلغه بمن كانوا قريبين وسمعوا ما قالته ، فحل الصمت شيئا فشيئا على الموجودين وإذا هم بلا قصد منهم

خاشعون خشوعا أشبه بنذير شؤم .

رقى الدركي الشاب درج مدخل البلدية وهو يحمل مكبرا للصوت ، بينما راح عدد من الأفراد يوزعون منشورا على الناس .

- أشكركم على تلبيتكم النداء ، لا سيما في يوم كهذا . . .

وتاه الجميع بينهم وبين أنفسهم عُجبا وفخرا إذ أحس كل واحد منهم أنه كريم كرما مضاعفا .

- نرجوكم أن تقرؤوا الإرشادات المكتوبة التي وزعت عليكم بتمعن . لا تحثوا السير ، وأبقوا تركيزكم منصبا على ما ترون . من المهم للغاية أن نمشط كل متر مربع تطأه أقدامنا تمشيطا تاما لكي لا نعود إليه بعد ذلك . هل كلامي واضح؟

وعلت الأصوات أن نعم .

في أثناء ذلك ، كان انتباه أنطوان قد تشتت بوصول القس ومدام أنطونيتّي جنبا إلى جنبا .

- لقد شكلنا تسعة فرق . سينطلق أربعة منها مع مدربي الكلاب إلى المستنقع ، وستتوجه ثلاثة أخرى إلى الجانب الغربي من الغابة ، أما الفريقان المتبقيان فسيتجهان إلى سانت أوستاش .

جمد أنطوان في مكانه . لقد قضي الأمر . وحرره ذلك .

صار الآن يعلم ما الذي سيحدث ، ويعلم ما الذي عليه أن يفعله . بشكل ما ، صارت الأمور أبسط .

- بعد استراحة الغداء ، سيغير كل فريق وجهته تبعا لمدى تقدم البحث في الصبيحة . وإن لم يؤد البحث اليوم إلى نتيجة ، سنستدعيكم غدا أيضا .

وفي هذه اللحظة ، أقبل مسيو كوفالسكي .

كان يمشي الهوينى ، بخطى مترددة ، والصمت يحل عند

مروره . كان الجميع يتنحون عن طريقه ، لا احتراما ، بل لأن الرجل كانت تفوح منه رائحة المتاعب . لقد أخلي سبيله . . . ، هذا ما تمتمت به كل الشفاه . والتقت النظرات ، وقد ارتسم فيها التأهب والحذر . هل أطلق سراحه إلى أجل مسمى؟ لم يكن لأحد بذلك من علم .

وإذ راح مسيو كوفالسكي يقترب من البلدية ، انطلقت ألسنة من تجاوزهم تعبر بأصوات خفيضة عن ما تكن قلوبهم . أطلق سراحه ، حسنا ، قالوا ، ولكن ربما سبب ذلك انعدامُ الأدلة . . . فلا يعتقل أيٌّ كان ، بل فقط من كانوا على علاقة ما بالقضية . لا دخان دون نار . كوفالسكي . . . يقال إن أحوال متجره ليست على ما يرام أبدا ، وهو ما أجبره على التجول في القرى المجاورة ليوازن بين دخله وخراجه .

أما وجه مسيو كوفالسكي ، فلم يكن يشي بشيء من مشاعره . كان هو نفس الوجه الطويل المعقد ، بوجنتيه الهزيلتين ، وحاجبيه الكثيفين . . .

ومرَّ قريبا من أنطوان وأمه . وأدارت مدام كورتان له ظهرها دون تحفظ . وإذ وصل أمام الدركي ، توقف وفتح ذراعيه قليلا ، أنا هنا ، قل لي ما الذي تنتظر مني أن أفعله .

نظر الدركي إلى الأفواج وأحس فورا بعدائيتهم . كان بعضهم يديرون ظهورهم ويشيحون بنظراتهم ، بينما انطلق آخرون أشد عزما وتصميما وساروا في طريقهم دون حتى أن ينتظروا .

– فهمت . . . ، قال الدركي بصوت وشى بنبرة سأم . حسنا ، ستأتي معنا .

سار الحشد في طريقه ، واستأنف الناس أحاديثهم . وكانت

الأرض قد تغطت بالمناشير التي كتبت عليها تعليمات الحماية المدنية .

عندما عاد أنطوان إلى منزله ، ظل مليا متكئا على مرفقيه أمام النافذة ينظر بعيدا . عندما سيستخرجون الجثة ، سينادون ، وعندئذ ستُرى أضواء سيارات الدرك هناك على الطريق وهي تتوجه صوب سانت أوستاش .

أغلق النافذة أخيرا وذهب إلى الحمام .

أفرغ كل ما وجده في الصيدلية من حبوب . كانت مدام كورتان ، شأنها في ذلك شأن سواد الفرنسيين الأعظم ، مصداقا لما يقال عنهم إنهم يستهلكون الدواء بشراهة ، فكان في صيدليتها من كل شيء ، وبكميات ضخمة ، فاجتمعت له كومة كبيرة من الحبوب .

راح أنطوان ، وهو يغالب نوبات الغثيان ، يبتلعها غَرفةً تلو أخرى ، ودموعه تنهمر مدرارا .

١٠

شعر بمد جارف يرتفع من أعماق معدته ويخترقه من أسفله إلى أعلاه وبتشنج صاعق يسحق كليتيه وينفجر في حنجرته فيرفعه عن فراشه رفعا . وأهوى برأسه إلى الأرض وهو يطلق صرخة حلقية انبعثت من أحشائه . وارتسم خط من الصفراء بينما كان هو يختنق ويحاول أن يستعيد توازنه .

كان منهكا ، يتألم ألما شديدا من ظهره . وكان جسده كله ، كلما أحس بالموج المتلاطم يطوح به ، يريد أن ينسلخ من غلافه وينقلب على نفسه ويتميع وينسرب .

دام ذلك ساعتين كاملتين .

كانت أمه تصعد إلى غرفته من حين لآخر ، تبدِّل الدست الموضوع على البساط ، قرب السرير ، وتمسح ملتقى شفتيه ، وتختم على جبينه بخرقة باردة ، ثم تتركه وتنزل .

عندما سكنت التشنجات ، عاود أنطوان النومُ .

ورأى في منامه ريمي . كان منهكا ، خائر القوى هو أيضا . كان ممددا في الحفرة المظلمة الكبيرة ، ولم يعد يمد ذراعيه ، بل يديه فقط ، في محاولة أخيرة . وكان الموت قد أتاه ، هو ذا هنا ، يمسكه من قدميه ، ويجره إليه ، وريمي يغوص ، يغيب . . .

أنطوان!

عندما أفاق ، كان الظلام قد حل . لم يكن يعرف كم كانت

الساعة عندئذ ، لكن الأكيد أن الليل لم يكن قد تقدم بعد ، فلقد كان يسمع صوت التلفاز في الطابق الأرضي . وأصاخ لجرس الكنيسة الذي كان صوته يصل إلى غرفته عندما كانت الريح تهب في اتجاهها ، وكانت الريح تندفع فعلا من مصراعي النافذة . وعدَّ ست دقات ، لكنه لم يكن على يقين من العدد . لعل الساعة كانت تتراوح بين الخامسة والسابعة .

نظر إلى منضدة السرير . كان عليها كأس ماء وقنينة . ودواء معبأ في قارورة لم يعرف من أين جاء .

رن جرس الباب ، وأُطفئ التلفاز .

ثمة صوت رجل ، وهمْس .

ثم سمع صوت خطوات على الدرج وطَلَع الدكتور ديولافوا ، وحده ، مع حقيبته الجلدية الضخمة التي وضعها قرب السرير . مال على أنطوان وللحظة وضع يده على جبينه الملتهب ، ثم نضا عنه معطفه ، دون أن ينبس بكلمة بعد ، وأخرج سماعته ، وأزاح اللحاف ، ورفع سترة منامته (متى لبسها؟ لم يكن يتذكر) وراح يفحصه بصمت ، مركزا نظره على بقعة متخيلة وعائمة .

في الأسفل ، كان التلفاز قد أشعل من جديد ، لكن الصوت كان أَخفضَ . وجسَّ الطبيب نبض أنطوان ، ثم أعاد سماعته إلى الحقيبة وظل جالسا ، وقد أفرج ساقيه قليلا ، وصلَّب يديه ، متأملا بحذر .

كان الدكتور ديولافوا في الخمسين من عمره . وإن كان أبوه ، بإجماع الجميع ، بحارا بروطانيًا[٢] مخر عباب البحر سنين طويلة ،

---

(٢) مِن بروطانيا ، وهي منطقة في أقصى غرب فرنسا .

كان أصل أمه مثارَ تخمينات شتى : خادمة فييتنامية ، عاهرة صينية ، مومس تايلندية . . . وكما هو بيِّن ، فالشائعات لم تكن تمدح هذه المرأة التي لم يكن أحد يعلم عنها شيئا في واقع الأمر .

كان الطبيب مقيما هنا منذ ما يقرب من خمس وعشرين سنة ولم يكن بوسع أحد أن يزعم أنه رآه يبتسم يوما . كان يجوب المقاطعة طوال السنة ، ويستقبل مرضاه حتى ساعة متأخرة جدا . كان الجميع يعرفونه ، ونادوه من قبل مرة أو مرات ، وما انفكوا يفعلون . ولقد حضر العشرات من حفلات الزفاف ، والمناولة ، والمعمودية ، ودفن قوافل من العجزة ، لكن لا أحد كان يعلم عنه شيئا ، أو يعرف له زوجة أو ولدا . كانت ابنة البقالة تنظف له شقته ، بينما كان هو ينظف مكتبه بنفسه . في أيام الأحد كانت نافذته تشرع مهما تكن حالة الطقس ، ويُرى مرتديا بدلة رياضية أكل عليها الدهر وشرب ، وهو يستعمل المكنسة الكهربائية ، يصقل ويمسح ، وإن انتهز مريض ما الفرصة وألقى عليه التحية ، كان الدكتور ديولافوا يفتح بابه ، ويُدخِله ، ويغسل يديه ويفحصه ، بعد أن يضع رذاذ الورنيش ونافضة الغبار في زاوية من زوايا المكتب .

اعتدل أنطوان على وسادته . كانت معدته تؤلمه ألما شديدا من فرط ما تقلبت ، وطعمُ القيء في فمه يقززه .

لم يأت الطبيب بحركة ، فلقد كان مستغرقا في التفكير . كان وجهُه العريض الخلاسي الجامد وسكونُه يشعران أنطوان بضيق بالغ ، لكن رويدا رويدا صار الأمر وكأنه لم يعد موجودا ، أو أنه كان مجرد قطعة أثاث جديدة في الغرفة . وأسلم أنطوان نفسه لتيار أفكاره ، لكن عبثا . لقد حاول أن يقتل نفسه وفشل في ذلك . سيكون عليه أن يبرر فعلته ويشرح دوافعه . وتذكر فجأة انطلاق

حملة التمشيط والأفواج المتوجهة إلى سانت أوستاش . . . ما عاد مضطرا إلى أن يبرر شيئا ، فسيكفيه أن يؤكد ما صار الجميع يعرفونه الآن . وأرهقه ثقل المواجهة إلى حد أنه ناء به قبل أن يحمله وأغمض عينيه وهوى غريقا من جديد بين الوسائد .

- أنطوان ، هل تريد أن تروي لي ما حدث؟

تكلم الطبيب بصوت هادئ جدا ، ولم يتزحزح عن مكانه قيد أنملة .

لم يجد أنطوان في نفسه القوة ليجيب على السؤال . كان موت ريمي شديد القرب منه وشديد البعد في آن ، وكان ذهنه يمور بأمور شتى تفوق طاقته على الاحتمال . أين وضعوا جثة ريمي؟ وتخيل بيرناديت جالسة قرب جثته المسجاة ، تحاول أن تدفئ يده الصغيرة الباردة بيديها . . .

هل كانوا ينتظرون أن يعطيهم الدكتور ديولافوا الإذن الطبي باعتقاله؟ هل كان الدرك يمنعون أمه في الأسفل من أن تصعد إليه؟ لعلهم رأوا أن اعترافاته يستحسن أن يتلقاها طبيب ، فهو ليس راشدا بعد . . . ولم يعد يعرف أيَّ سؤال عليه أن يجيب .

وقرَّبه ظلام الغرفة من ريمي . المكان الذي استخرجوه منه مظلم جدا كذلك .

تخيلَ الرجالَ وهم ينحنون باتجاه شجرة الزان الكبيرة . لم يسمح مسيو ديسميد لأحد غيره بأن ينزل ليبحث عن ابنه في الثقب الأسود . حتى الإطفائيون ظلوا بعيدين مسافة كافية . كل ما فعلوه هو أنهم قربوا نقالة وبطانية كبيرة لستر الجثة . كان مشهد مسيو ديسميد وهو يجذب الولد إليه يقطع نياط القلب . كان ممسكا به من ذراعه ، وظهرت من ريمي رأسه أولا ، وعُرِف شعره الكستنائي

فورا ، ثم ظهرت كتفاه . كانت أوصاله مفككة إلى حد أن من يراه يحسب أنه يصعد إلى السطح في غير ترتيب . . .

أجهش أنطوان بالبكاء .

وأشعره ذلك بارتياح لم يكن يتوقعه . لم تكن تلك الدموع مثل سابقاتها ، عندما كان حرا ، بل كانت سيلا عميقا ومهدئا . دموعا تطهِّر .

هز الدكتور ديولافوا برأسه ببطء ، مُقِرًا شيئا ما ، سمعه هو رغم أن أحداً لم يقله .

راحت دموع أنطوان تنهمر غزيرة . ودون سبب واضح ، كان في تلك اللحظة شيء من السعادة . السعادة التي تمنحها لك راحة لم تعد ترجُوها . لقد قضي الأمر وكانت تلك الدموع دموع طفولته . كان فيها شيء من الحماية وكانت تمده بسكينة سيحملها معه أينما أخذوه .

ظل الطبيب على هيئته تلك يستمع لأنطوان وهو يبكي ثم قام وأغلق حقيبته وحمل معطفه دون أن ينظر إليه .

وخرج دون أن ينطق بكلمة .

هدأ أنطوان وتمخط وأسند نفسه إلى وسائده . ربما كان عليه أن يرتدي ثيابه ليستقبل القادمين . . . لم يكن يعرف ما الذي عليه فعله ، كانت تلك أول مرة يأتي فيها أحد لاعتقاله .

لكن ما سمعه أولا هو خطوات أمه على الدرج . وإذًا سيكون عليه أن يرتدي ثيابه وينزل معها هي . ودَّ لو يفعل ذلك مع غيرها ، فهي ستتشبث به بينما يجره رجال الدرك .

سدَّت مدام كورتان أنفها وهي تدخل الغرفة ، يا لرائحة القيء تلك . . .

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

التقطت الدَّست ووضعته في الرواق ثم عادت ، وفتحت مصاريع النافذة قليلا لتهوية الغرفة رغم أن هزيم الريح كان شديدا في الخارج ، ودخل الهواء البارد . لاحظ على أمه خطا يعبر جبينها بالعرض ، وكان ذلك عادة يشي بأن ثمة ما يقلقها ويشغل بالها .

نظرت إلى ابنها .

- يبدو أنك صرت بحال أفضل ، أليس كذلك؟

ودون أن تنتظر جوابا ، أخذت قنينة الدواء من على منضدة السرير ، وملأت به ملعقة قهوة .

- ذلك الديك ، يا إلهي . . . لقد رميته كله . لا أصدق أنهم يبيعون لحما كهذه!

ظل أنطوان صامتا .

- هيا! قالت . هذا لعسر الهضم . سيشعرك بتحسن .

وأثارت إشارتها إلى مجرد وعكة تساؤلَه وانزعاجَه . ابتلع الدواء ، وانتابه القلق . لم يكن واثقا من أنه يفهم جيدا ما يحدث حوله . وأغلقت مدام كورتان القارورة .

- لقد طبخت حساءً ، سآتيك بصحن منه .

لقد ذكرت الديك المسمن ، وكان يتذكر جيدا أنه لم يأكل منه إلا نزرا . وإن كان عسر الهضم هو ما ألم به ، فأمه أكلت أيضا من الديك ، فلِمَ لم يصبها ما أصابه؟

حاول أنطوان أن يستعيد الأحداث ، لكن ذهنه كان مشوشا إلى حد كبير ، فلم يستطع أن يميز بين ما وقع فعلا وما قد يكون مجرد أضغاث أحلام . قام من فراشه . ولم تقوَ ساقاه على حمله ، فاختل توازنه واتكأ على حافة السرير . تذكر فالنتين . أكانت حلما أم حقيقة؟ ورآها ثانية أمامه بينما كان هو يحاول أن يربط شراك

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

حذائه ، ويريد أن يقوم فجأة لكنه يهوي على فراشه ، كما الآن . . .

ثم جاءت سهرة عيد الميلاد ، وقبل ذلك مسيو ديسميد الذي أحاط خصره بذراعيه . وأخيرا حملة التمشيط التي توجهت إلى الغابة البلدية وإلى أحراج سانت أوستاش . . .

أغمض عينيه ، وانتظر إلى أن تمر الوعكة ثم حاول من جديد . متكئا على الجدران وعلى الأثاث ، تقدم إلى الرواق ، ودفع باب الحمام ، وتشبث بالمغسل ، وفتح خزانة الأدوية .

فارغة .

كان يتذكر بوضوح عندما كان نائما أن الأدوية كانت مبعثرة على منضدة السرير ، بل إن بعضها تناثر على الأرض . . . أين هي الآن؟

عاد إلى غرفته كما جاء منها ، بصعوبة بالغة .

وأشعره الاستلقاء على السرير براحة كبيرة .

- خذ . . .

كانت مدام كورتان قد أحضرت له صينية عليها صحن حساء ساخن ووضعتها على السرير بحذر بالغ .

- لا رغبة لي في الطعام ، قال أنطوان بصوت ضعيف .

- نعم بلا شك ، مع عسر الهضم ، تلك هي الحال ، ينحرف مزاجك لمدة طويلة ولا شيء يثير شهيتك .

كان سماع صوت تلفزيون غرفة الاستقبال يحير أنطوان . لم يكن من شيم مدام كورتان أن تشعله هكذا في رابعة النهار ، بل يمكن القول إن ذلك لم يكن من قِيَمِها . الشاشة تحوِّل المرء إلى أبله .

- قال الدكتور ديولافوا إنه سيمر بك مرة أخرى في المساء ،

ليـرى هل كل شيء على مـا يرام . قلت له إنه لا داعي لذلك ، فأنت بخير ، ولن نقيم الدنيا ونقعدها بسبب عسر هضم أليس كذلك؟ لكنك تعرف طبع هذا الرجل ، وكم هو دقيق في عمله . . . حسنا ، نهايته ، سيعود . . .

راحت مدام كورتان تنقب في الغرفة ، وتنتقل من المكتب إلى النافذة ، تغلق بابا مغلقا وتتحرك دون أن تفعل شيئا ، وتحاول أن تستعيد رباطة جأشها . وكان الارتباك البادي عليها يكذِّب نبرة الحزم والثقة في صوتها وهي تقول :

- ديك زَخِم ، هل تدرك ذلك! آه ، حقا هذه حقا نكتة السنة!

لاحظ أنطوان أنها كانت تتجنب ذكر اسم كوفالسكي . كانت تلك عادتها ، عندما لا نتكلم عن شيء فإنه يختفي ولا يعود موجودا .

- صدقا ، عادت مدام كورتان تقول ، إنه مجرد عسر هضم ، ليس هذا بالأمر المهم! هذا ما قلته له ، للدكتور ديولافوا . كان يريد نقلك إلى المستشفى ، أتصدق! لكنه بالنهاية وصف لك دواءً لتستفرغ وفقط .

بدت وكأنها تُشهده على ما حصل .

- مُقيِّئ ، هذا هو اسمه . لا مانع لي في ذلك . . . حسنا ، ألا تريد شيئا من الحساء الذي طبخته؟

بعد هذا الشرح المستفيض الذي لم يفهم أنطوان الغاية منه ، صارت مدام كورتان فجأة في عجلة من أمرها لتغادر .

- هل أطفئ النور؟ يحسن بك أن تنام . . . هذا هو الدواء الحقيقي ، النوم . . . الراحة!

أطفأت النور دون أن تنتظر رده وأغلقت الباب .

لم يعد يُسمع في الغرفة الغارقة في ظلام دامس إلا صفيرُ الريح وهو يشتد أكثر فأكثر . ربما كانت عاصفة تتحضر .

حاول أنطوان أن يرمم أجزاء ما سمعه وفهمه ، الأدوية التي اختفت من على منضدته ، ومجيء الطبيب ، وتدخُّل أمه . . . ما معنى كل هذا؟

وأخلد للنوم .

رن جرس الباب وأيقظه .

لم يعرف هل غفا غفوة صغيرة فقط أم هل طال به النوم . أزاح عنه الغطاء واقترب من الباب المشقوق وعرف صوت الدكتور :

كانت مدام كورتان تهمس :

- أليس من الأفضل أن نتركه نائما؟

لكن تبع ذلك وقع خطى الدكتور على الدرج .

عاد أنطوان ليستلقي ، واستدار على جنبه وأغمض عينيه .

دخل الطبيب ووقف أمام السرير مليا ، لا يتحرك ، بينما كان أنطوان ، الذي تملكه التوتر ، يحاول أن يتحكم بتنفسه . كيف نتنفس عندما نكون نياما؟ تنفس بعمق وبإيقاع بطيء بدا له كإيقاع النائم .

تقدم الدكتور أخيرا ثم جلس على حافة الفراش ، تماما حيث جلس في زيارته الأولى .

سمع أنطوان دقات قلبه والريح تخفق في الخارج .

- أنطوان ، إن كنت تواجه متاعب . . .

كان يتكلم بصوت خفيض ، مكبوت وحميمي . كان على أنطوان أن يلقي السمع ليعي ما كان يقوله .

- . . . يمكنك أن تناديني متى شئت . ليلا ونهارا . يمكنك أن

تأتي لرؤيتي ، أو تستدعيني ، كما تريد . . . ستشعر ببعض الوهن يوما أو يومين ، ثم سيعود كل شيء إلى نصابه ، ولعلك سترغب عندئذ بالحديث إلى شخص ما . . . لست مجبرا على ذلك ، كل ما في الأمر هو . . .

كانت الكلمات تأتي بطيئة ، وجملُ الدكتور تتوقف دون أن تكتمل ، لتتلاشى نهاياتها في الغرفة كبخار خفيف . . .

- لو أني أدخلتك المستشفى . . . لسارت الأمور على نحو مختلف ، لعلك تفهم . . . هنا ، هكذا ، الآن ، لا أدري كيف . . . ولأجل ذلك جئت . لأقول لك ، مهما حصل ، أعني ، إن حصل شيء ، يمكنك أن تطلبني ، أن تناديني . . . في أي وقت . هكذا إذاً . لتكلمني . . . في أي وقت .

لم يكن قد سبق لأنطوان ، ولا لأحد غيره في المدينة ، أن سمع الدكتور ديولافوا يتكلم بكل هذا القدر .

وبقي على حاله مليا ، ليترك لأنطوان الوقت ، إن كان يستمع له ، ليحفظ الرسالة ، ثم قام وخرج كما جاء . كالتجلي ، كالرؤيا .

كان الأمر فوق طاقة أنطوان على الإدراك . الدكتور ديولافوا لم يكلمه بل وشوش له تهويدة .

لم يتحرك أنطوان . ترك النعاس يحمله وصارع الصدى الذي كان زئيرُ الريح يحمله إلى غرفته ، صدى صرخة تفطر القلب تتكرر ألف مرة . . .

أنطوان!

عندما انتبه من نومه ، كان على يقين هذه المرة ، دون أن يدري لماذا ، أن الوقت متأخر جدا ، مع أن التلفاز في الأسفل كان مشعلا . ومثُلَت أحداث اليوم السابق أمامه بكل وضوح . انطلاق حملة

التمشيط ، والأدوية ، ومجيء الطبيب . . .

كان عليه أن يهرب .

هذا أيضا تذكره : كان يخطط للهرب .

قام من فراشه . لم يزايله الضعف بعد ، لكنه استطاع الوقوف على قدميه . جثا بسرعة على ركبتيه ، وبحث تحت سريره . لا شيء .

لكنه كان متأكدا ، بل على يقين ، أنه وضع هناك حقيبته بعد أن ملأها بالثياب ، وقميصَه ملفوفا كالكرة .

قام ثانية ، وذهب يفتح أدراج خزانته : لقد عاد كل شيء إلى مكانه . والأوراق التي وضعها هناك اختفت .

لا بد من أن يستجلي الأمر .

فتح باب غرفته ونزل الدرج بهدوء . في الطابق الأرضي ، سمع همس التلفزيون . تقدم إلى خزانة المدخل ، وفتح الدرج الأول ببطء شديد وقد انقبضت عضلات وجهه . كان جواز سفره والإذن بمغادرة البلاد هناك ، ظاهرين ، موضوعين في مكانهما بالضبط . . .

أمه ، لا شك في ذلك ، أزالت الأدوية من على منضدة السرير ، وأخفت حقيبة الظهر التي كان واضحا أنها أعدت لفراره ، وخبأت جواز السفر ودفتر التوفير . . .

أيَّ فكرة رسمتها في ذهنها عن محاولة أنطوان الفرار؟ ما الذي كانت تعلمه بالضبط؟ يقينا لا شيء . من جهة أخرى ، ربما كانت تعلم أهم ما في الأمر . هل كانت تتخيل بأي طريقة كان أنطوان متورطا في اختفاء ريمي؟

أغلق الدرج ، وخطا خطوة وأتبعها بأخرى . ورأى عندئذ أمه أمام جهاز التلفزيون ، قريبا جدا من الشاشة ، كما لو كانت امرأة عمياء . كانت تشاهد نشرة أخبار منتصف الليل على القناة المحلية .

كان الصوت منخفضا لا يكاد يسمع :

« . . : عن الطفل الذي اختفى ظهيرة يوم الجمعة . للأسف ، لم تسفر حملة التمشيط في الغابة البلدية البارحة عن أية نتيجة . لم يكن بالإمكان تفتيش كل المنطقة التي قد يكون الولد ضاع فيها في يوم واحد ، وخصوصا أحراج سانت أوستاش . ولقد قرر الدرك إطلاق حملة تمشيط أخرى غدا صباحا .»

كان التقرير يظهر أفواجا من الناس المصطفين يتقدمون ببطء ، جنبا إلى جنب . . .

«شهد مستنقع بوفال عمليات السبر الأولى ، أجراها غطاسو الحماية المدنية الذين سيواصلون بحثهم غدا صباحا .»

شعر أنطوان بقلبه ينقبض وهو يرى أمه منحنية على التلفاز يتآكلها القلق ، وعاودته الرغبة في أن يموت .

«لقد وضعنا خطا أخضر ، يظهر الآن على أسفل الشاشة ، تحت تصرف الشهود المحتملين . لنذكّر بأن الصغير ريمي ديسميد كان يرتدي لحظة اختفائه . . .»

صعد أنطوان إلى غرفته .

لم يكن ممكنا تمشيط الغابة كلها في يوم واحد ، وستنظم حملة تمشيط ثانية . صباح اليوم التالي .

سيعودون إلى هناك .

لن يحظى أنطوان بفرصة ثانية .

مرة أخرى ، أحس بمدى لهفته إلى أن تهب أخيرا تلك العاصفة التي راحت سحبها تتراكم في سمائه منذ يومين .

في الخارج ، كانت الريح تعصف أشد فأشد وتصفق مصاريع النوافذ والأبواب حتى لتكاد تخلعها .

١١

ظلت الريح تعصف ويشتد عصفها طوال الليل ، وبلغت من العنف حدا جعل المطر ، الذي هطل مدرارا حتى ساعات الصباح الأولى ، ينهزم أمامها ويلقي سلاحه منهكا .

كانت العاصفة قد تركت أثرها المدمر على المكان كله وبدلا من أن تضعف كما كان مأمولا ، دخلت المنطقةَ كما يفعل غازٍ أعجبته قوته .

واستيقظت المدينة كلها .

شعر أنطوان بثقل الإجهاد المتراكم عليه خلال اليومين الماضيين ، وهو الذي لم يغمض له جفن في ليلته تلك .

كان قد أمضى سحابة ليله يتخيل المنحى الذي ستنحاه الكارثة وقد صارت الآن قدرا محتوما . بقي في فراشه يستمع لهدير العاصفة . كانت النوافذ ترتج خلف المصاريع ، والريح تندفع إلى المدخنة التي راحت تطن طنينا مكتوما . وأحس بوجود علاقة غامضة بين اهتزاز المنزل تحت العاصفة وبين الوضع الذي آلت إليه حياته . وفكر كثيرا في أمه أيضا .

عن اختفاء ريمي ودور أنطوان فيه ، لم تكن تعلم شيئا محددا . أي شخص آخر كان سيصبح فريسة لأبشع الهواجس ويتملكه الرعب تملكا تاما ، لكن مدام كورتان كانت لها طريقتها . بين خيالها وبين الأحداث التي تزعجها ، كانت تعلي سورا منيعا لا يعبره إلا

جزع منبث تخفف من أثره بفضل كمٍّ هائل من الأفعال الاعتيادية والطقوس المبهمة . الحياة لها دائما اليد العليا ، كانت تعشق هذه الجملة . معنى ذلك أن الحياة عليها دائما أن تسير دون توقف ، لا كما هي على الحقيقة بل كما نريدها أن تكون . ليس الواقع إلا مسألة إرادة ولا جدوى من أن نستسلم لهموم لا طائل من ورائها ، والأصلح لكي نبعدها عنا هو أن نتجاهلها ، تلك هي الطريقة المثلى ، وكانت حياتُها كلها برهانا على نجاعتها المطلقة .

لقد حاول ابنها أن ينتحر بأن ابتلع ما في خزانة الأدوية من حبوب ، ليكن ، يمكن أن نرى الأمور بهذا المنظار . لكن إن حولناها إلى عسر هضم سببه ديك مسيو كوفالسكي ، فستتحول إلى مجرد حدث لا أهمية له ، سحابةِ صيف ، قليلٌ من الحساء ليومين وتعود المياه لمجاريها .

لم يكن من السهل على أنطوان أن يفصل أفكاره عن المناخ الكئيب الذي كان سائدا ، وعن صفير الريح التي بدت وكأنها تزلزل البيت والتي كانت تئز أزيزا كأنها محرك غاضب .

قرر أنطوان أن ينزل ، وتساءل هل نامت أمه أم لا . كانت ترتدي نفس ما ارتدته في اليوم السابق ، وكان جهاز التلفزيون في غرفة الاستقبال لا يزال مضاءً ، وقد خُفض صوته .

كان الفطور الذي حضرته ، والأواني الاعتيادية الموضوعة على الطاولة ، لا تختلف عنها في سائر الأيام ، لكنها لم تستطع أن تفتح المصاريع ، وكان الأمر وكأنه إفطار في منتصف الليل ، بينما كان الهواء يجوس خلال المنزل ويُميل لمبة المطبخ .

– لم أستطع فتح . . .

كانت تنظر إلى ابنها بفزع . لم تلق عليه تحية الصباح ، لم

تسأل عن صحته . . . عجزها عن فتح المصاريع صعقها تماما . كان صوتها يشي بجزع شديد . هذا الطقس الذي ينذر بالخراب لن يهدئه حساء ساخن . . .

- لعلك تستطيع أنت . . .

خلف هذا الطلب كانت تختفي أشياء أخرى كثيرة رآها أنطوان دون أن يفهمها حقا .

اقترب من النافذة ، وأدار المقبض ، فدفعه المصراع دفعة شديدة حتى كاد أن ينقلب ويقع . ونجح في إغلاقه مرة أخرى مرتكزا على المقبض .

- من الأفضل أن ننتظر إلى أن تهدأ العاصفة . . .

جلس ليتناول إفطاره . كان يعلم أن أمه لن تسأله عن شيء . كانت تمسح بسكويتها بالحركات نفسها ، وكان المربى في مكانه المعتاد على الطاولة . لم يكن أنطوان جائعا . وبعد دقائق من حوار صامت كشف عن كل ما بينهما من سوء فهم ، أخلى الطاولة وعاد إلى غرفته .

كانت لعبة البلايستايشن قد وضعت في علبتها من جديد ، فأخرجها وبدأ يلعب ، لكنه بقي مشغول البال .

عندما سمع صوت التلفاز يرتفع ، عبَر الرواق ونزل بضع درجات . سمع إعلانا عن عاصفة قوية قادمة في غضون ساعات . كانت الأرصاد تتوقع هبوب رياح قوية ، وتنصح الناس بالمكوث في بيوتهم .

ولم تكن تلك إلا البداية .

جاء التصديق بعد أقل من ساعة .

كانت النوافذ تهتز كأوراق الشجر ، والريح تندفع في كل

مكان ، والمنزل يرتج مصدرا طقطقة مخيفة .

تملك مدام كورتان القلق وصعدت إلى العلية لكنها لم تصمد فيها أكثر من خمس دقائق : كان القرميد يرتعش تحت العصف ، وتسرب الماء في عدة أماكن وجعل يرشح على الجدران ، وعلى الأرضية . وعندما نزلت كان وجهها شاحبا من الخوف .

انتفضت وصرخت عندما سُمع دوي اصطدام . . . كان مصدره الطرف الشمالي من المنزل .

- دعي الأمر لي ، قال أنطوان .

لبس معطفه وانتعل حذاءه . كان على مدام كورتان أن تفعل شيئا لتمنعه لكن الرهبة شلتها ولم تدرك الخطر الذي يتعرض له حتى فتح الباب . ونادته لكن بعد فوات الأوان ، كان قد أغلق الباب وخرج .

كانت السيارات المركونة على طول الرصيف تتمايل تمايلا مخيفا ، والرعد يهُرُّ ككلب ضخم يتهيأ للوثوب ، بينما رشقات البرق تلقي ضوءا أزرق على المنازل التي بدأت سقوف بعضها تتمزق .

على الجانب الآخر من الشارع ، تمدد عمودان برقيان فوق بعضهما . وترى ركاما من الأغشية والدلاء والألواح التي حملتها الرياح يمر أمامك حتى لتكاد تلمسه بيدك أو بوجهك . وكانت صفارات سيارات الحماية المدنية تُسمع من بعيد دون أن تُعرف وجهتها .

كانت الريح قوية إلى حد أنها كانت قادرة على رمي أنطوان إلى الطرف الآخر من الحديقة بل إلى أبعد . كان يجب التشبث بشيء متين ، لكن الناظر إلى السيارات وسقوف المنازل كان

سيتأكد من أنه لا شيء في ظروف كهذه متينٌ . منثنيا على نفسه ، تقدم إلى طرف المنزل وهو يتشبث ببطء . نظر إلى زاوية الجدار وانحنى في آخر لحظة قبل أن تمر صفيحة قصديرية دوارة على بعد سنتيميترات من رأسه . جثا على ركبتيه ، وخفض رأسه ما استطاع واحتمى بكلتا ذراعيه .

كانت شجرة التنوب قد وقعت على أرض الحديقة . كانت شجرة عمرها عشر سنوات غُرست في عيد الميلاد ، ومرَّت صور الاحتفال العائلي أمام عيني أنطوان ، آنذاك لم يكن أبوه قد غادر بعدُ المنزل .

كانت المدينة كلها قد جرفتها حركة دائمة تلويها وتثنيها ، حتى أنها تكاد أن تنخلع من نفسها .

قام أنطوان ، وتشتت انتباهه للحظة . كان ذلك كافيا لترفعه هبة ريح مفاجئة ، ووقع على الأرض على بعد متر ، وحاول أن يتماسك لكنه كان يطاعن قوة لا تقهر ، وتدحرج على الأرض حتى بلغ جدار الحديقة واصطدم به . تكور على نفسه عند الجدار ، ودفن رأسه في ركبتيه ، وقد انقطعت أنفاسه .

استعاد وعيه . وبدت له العودة إلى باب البيت مهمة مستحيلة .

ذكرته واجهة بيت آل ديسميد بحملة التمشيط الثانية التي كان يفترض فيها أن تنطلق في تلك الصبيحة . في هذه الساعة ، كان يفترض في الجميع أنهم في طريقهم إلى سانت أوستاش لولا أنه لا أحد في الخارج طبعا ، فلن يكون ممكنا حتى المشي إلى زاوية الشارع .

زحف حتى السياج الفاصل بين حديقة منزلهم وحديقة آل

ديسميد وألقى نظرة . كانت الأرجوحة ملقاة على الأرض ، وكل شيء آخر كنَّسته الرياح ورمت به على السور الصغير ، بما في ذلك أكياس القمامة . كان الكيس الذي يحوي بقايا الكلب قد تمزق ، وبرز منه جزء من هيكل أوليس ، متوبِّرًا مبقورا وداكنا . أحس أنطوان بالرعب من هذا المنظر . نظر إلى المنزل . كان الهوائي المقعر المثبت على الزاوية ينوس بشكل مخيف .

لولا أمُّه وخوفُها من ألا تراه يعود لظل في مكانه جالسا ومسندا ظهره على الجدار الصغير يتفرج إلى النهاية على المنزل يتطاير قطعة قطعة .

تمدد أخيرا على الأرض لئلا يكون للريح ممسك عليه وزحَف . ولَزِمه أكثر من ربع ساعة ليقطع الحديقة على تلك الحال . ونجح في الالتفاف على المنزل والدخول من الباب الخلفي الصغير الذي كان أقل عرضة للرياح . ووصل منهكا .

هرعت أمه إليه وضمته إليها . كانت تلهث وكأنها هي التي خرجت وهي التي كان عليها أن تواجه العاصفة .

- يا إلهي! وتركتك تخرج في طقس كهذا . . .

كان مستحيلا معرفة متى تنتهي هذه الكارثة . كان المطر قد توقف عن الهطول تماما وابتعدت العاصفة . لم تبق إلا الرياح التي جعلت تزداد شدة وسرعة مع مرور الوقت .

خلف نوافذ ومصاريع مغلقة ، صار هو وأمه كالعميان ، كالمساجين ، ليس في وسعهما إلا أن يستمعا للمنزل وهو ينهار كسفينة في الإعصار . كان الهوائي قد اقتلع من مكانه دون شك : فلقد انطفأ التلفاز عند الحادية عشرة صباحا . ثم جاء دور الكهرباء بعد ساعة . ولم يعد الهاتف يعمل أيضا .

بقيت مدام كورتان جالسة في المطبخ ، تشد بيديها على قدح القهوة الباردة . وتملك أنطوان إحساس بالعطف تجاهها ، ولم يشأ أن يتركها وحدها وجاء ليجلس إلى جانبها . ولم يتكلما . كانت المعاناة بادية على وجه أمه حتى أن أنطوان شعر بالرغبة في أن يضع يده على يدها ، لكنه أحجم عن ذلك لأنه لم يكن يعلم أيَّ باب سيفتحه فِعل كهذا ، في ظل ظروف كهذه . . .

كان يعرف مكانا في مصراع غرفة الاستقبال يمكن رؤية الشارع منه . وهاله ما رآه . لقد اختفت السيارتان اللتان كانتا هناك قبل قليل ، ومرت في الشارع شجرة طولها متران أو أكثر ، واصطدمت هنا وهناك بالجدران والأبواب متدحرجة بسرعة جنونية . . .

دامت ذروة العاصفة ما يقرب من ثلاثة ساعات .

حوالى الساعة الرابعة زوالا ، عاد الهدوء .

عندما لم يعد أحد يصدق أنه سيعود .

بدأت أبواب المنازل تنفتح بحذر ، الواحد تلو الآخر .

وقف سكان بوفال وقد عقدت الدهشة ألسنتهم أمام الأضرار التي خلفتها عاصفة سماها خبراء الأرصاد الجوية الألمان «لوثر» .

لكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم مجبرين على العودة إلى منازلهم .

كان المطر الذي انسحب وترك مؤقتا مكانه للعاصفة قد عاد الآن يطالب بحقه في المساهمة في الكارثة .

١٢

وهطل على المدينة بقوة مخيفة وبكثافة بلغت من الشدة أن أظلمت السماء في دقائق معدودات . وإذ سكنت الريح تماما ، نزلت خيوط الماء على المدينة عمودية . وسرعان ما تحولت الشوارع التي غمرت من جديد بالمياه إلى جداول ثم إلى أنهار جرفت كل ما أسقطته رشقات المطر ، قبل ساعات من ذلك ، من أوساخ وصناديق بريدية وملابس وعلب وأخشاب ، بل إن جَرْوًا شوهد وهو يصارع التيار ويحاول السباحة عبثا ليعثر عليه في اليوم التالي ميتا أمام جدار . وأما السيارات التي كانت العاصفة قد طردتها قبل ساعات من ذلك فلقد دارت على نفسها في السيل الجارف وعادت أدراجها من حيث جاءت .

سمع أنطوان صوت سقطة قادما من القبو ، وفتح الباب وحاول أن يضيء النور لكن التيار الكهربائي لم يكن قد عاد بعد .

– أنطوان ، لا تنزل . قالت مدام كورتان

لكنه كان قد أمسك بمصباح الجيب المعلقة على الجدار ونزل بضع درجات . وأذهله ما رأى : كان الماء بارتفاع أكثر من متر ، وكل ما لم يكن معلقا كان يطفو ، معدات التخييم ، وصناديق فيها ملابس ، وحقائب . . .

أغلق الباب بسرعة ، وقال .

– يجب أن نصعد .

كان عليهما أن يستعدا بسرعة ، إن غمرت المياه الطابق الأرضي كما كانت على وشك أن تفعل ، فلا أحد سيعلم متى سيكون ممكنا النزول إليه من جديد . وبينما كانت الزوابع تدق الباب وكأنها تحاول الدخول عنوة ، جمعت مدام كورتان بسرعة مؤنا وضعتها على الدرج وكلَّ ما بدا لها ثمينا ، حقيبة اليد ، ألبومات صور ، علبة أحذية فيها وثائق رسمية ، نبتة في أصيص (لماذا هذه دون غيرها ، لا أحد سيعلم أبدا) ، ووسادة مشغولة بالصنارة جاءتها من أمها ، كأنها كانت تتهيأ لخروج كخروج موسى من أرض مصر . جال أنطوان في أرجاء المنزل ليقطع التيار عن كل الأجهزة الكهربائية . كان مستوى المياه يرتفع بسرعة مروعة . مرت أولا تحت الباب المؤدي إلى القبو ثم غمرت الأرضية وامتدت شيئا فشيئا إلى الغرف كلها . حملا ما جمعاه إلى الطابق العلوي وعادا ليجدا أن مستوى الماء ارتفع بسنتيمترين آخرين أو ثلاثة ، ولم يكن ثمة ما يوحي بأن شيئا سيوقف تقدمه .

ظل أنطوان جالسا على الدرج . كان الماء قد وصل إلى الدرجة الأولى وكان مستمرا في الارتفاع . على السطح كانت تسبح وتتأرجح باسترخاء وسائدُ الكنبة ، وكتيبات برامج التلفزيون وكراسات الكلمات المتقاطعة وعلب فارغة ومكنسة المطبخ البلاستيكية . . .

وبدأ هذا الوضع يقلقه . سيأويان إلى الطابق العلوي ، ولكن هل سيَعْصِمُهُمَا ذلك من الماء؟ وتذكَّر تقارير صحفية شاهدها عن فيضانات بلغ فيها الماء سقوف المنازل . كان هنالك أناس جاثمون فوقها يتشبثون بالمداخن . هل سينتهي بهما الأمر مثلهم؟

عادت العاصفة إلى المدينة ، وهزم الرعد فوق رؤوسهم كما لو

أنه كان في الغرفة . كان البرق يخضب النوافذ بضوء أبيض ساطع يعمي الأبصار . كان المطر يهطل دون توقف والماء يواصل ارتفاعه .

قرر أنطوان أن يلحق بأمه . كانت الريح قد سكنت ، فجالت مدام كورتان في أرجاء الطابق وبطريقة أو بأخرى فتحت مصاريع الغرف كلها .

ومن النافذة اكتشفا المشهد الجديد الذي تقدمه زاويتهم من المدينة . كان الماء يغمر كلَّ شيء بارتفاع حوالى ثلاثين سنتيميترا ، كلَّ شيء ، الساحات والحدائق والأرصفة ، وراح الآن ينحدر على الطرقات بسرعة شديدة ، أسمر فاتحا ، فائرا ، هائجا كنهر أُطلق من محبسه فجأة . كانت العاصفة قد بقرت سقوفا كثيرة وتطايرت مئات القرميدات .

بأي حال كان سقف منزلهم؟ رفع أنطوان رأسه : لون السقف تغير ، صار أدكن ، وبدأ الماء يقطر في عدة أماكن منه . وتساءل ألم يكن البيت كله سينهار عليهما . لكن مغادرة البيت كانت أمرا مستحيلا ، فلقد رأى من النافذة شاحنة التسليم الخاصة بالمتجر يجرفها السيل ، تتبعها أخرى ، وكأن سدا انهار لتوه ، فلم يعد شيء يمسك شيئا ، ومرت بدورها سيارة آل موشوت البيجو وهي تدوم حول نفسها ببطء كخذروف ضخم ، وتصطدم بحائط هنا ثم بلافتة مرورية التوَت من أثر الضربة . بعد بضع دقائق ، صار السيل عرِمًا يجري بموج كالجبال ، فحمل سيارة البلدية التي انقلبت على نفسها وجرف معها بوابة دار البلدية .

وطفقت مدام كورتان تبكي . كانت خائفة بلا شك ، مثله تماما ، لكنها فوق كل شيء كانت تبكي ما عرفته طوال حياتها وها هي الآن تشاهده يزول بسرعة محيرة . لا شك في أن كل من كان

يشاهد ذلك قد اعتبره ابتلاءً موجها له دون غيره .

لم يتمالك أنطوان نفسه أن ضم أمه إليه ، لكن عبثا . كانت مدام كورتان غائبة ، وقد صعقها وفتنها مشهد السيل وهو يجري في الشارع ، مدمرا كل شيء ، محطما كل ما يعترض سبيله ، لا يبقي ولا يذر . ورأى أنطوان كل أثاث طابق المدرسة الأرضي يمر أمامه في موكب مدهش ، وكأن قطع الأثاث قفزت إلى الماء دفعة واحدة ، وصدمه ذلك . كان الفيضان يقترب من حياته ويغمرها .

وفكر فجأة بريمي .

سيرتفع الماء ، ويرتفع ، ويبلغ قمة التل وأحراج سانت أوستاش ويزحزح ريمي من مكانه ، وإذ تتحرر جثته ، فستطفو وتخرج من مخبئها . وفي غضون دقائق ، سترى المدينة كلُّها جثة ريمي الصغير تجوب الشوارع كشبح ، وسيكون مستلقيا على ظهره ، فاتحا ذراعيه على مصراعيهما ، فاغرا فاه ، وسيُعثر عليه على بعد كيلومترات من هنا . . .

كان التعب قد بلغ بأنطوان مداه فلم يعد قادرا على البكاء هو أيضاً .

وبقيا على حالهما لساعات طويلة . كان أنطوان يذهب بين الفينة والأخرى لينظر أين وصل مستوى الماء في ارتفاعه من الطابق الأرضي ، ووجد أنه يكاد يبلغ مستوى الطاولة في غرفة الطعام .

ثم راحت العاصفة تبتعد شيئا فشيئا .

في الثالثة زوالا ، كانت الأمطار تنزل على بوفال شديدة كثيفة لكنها لم تكن كتلك السيول التي انصبت في بداية اليوم . لم يستطع أنطوان وأمه أن يغادرا الغرفة فالطابق الأرضي كله غمرته المياه بارتفاع أكثر من متر . كان السقف يقطر من كل مكان ، والفرش كلها مخضلّة ، ولا ملجأ من الرطوبة . وبدأ الجو يبرد .

وحُبِسا في منزلها بلا كهرباء ولا هاتف ، فكانا منكوبين ينتظران الغوث .

حلقت طوافة الحماية المدنية مرة تستطلع الوضع ، ثم لم يرها أحد بعد ذلك . لقد تُركت المدينة لتواجه مصيرها وحدها . ولا أحد كان يقدر على الخروج من منزله ما لم تنحسر المياه .

وأرخى الليل سدوله على ذلك المشهد الحزين الذي لم يكن أنطوان وأمه يريان منه إلا ما تريه لهما النوافذ .

عند الثامنة مساء ، ورغم أنه لم يكن ثمة نور يضيء الشوارع ، بدا الأمر وكأن الماء بدأ ينحسر . كانت السيول المنحدرة قد هدأت وفي الطابق الأرضي كذلك بدأت المياه تتراجع رويدا رويدا . كان منسوب المياه ينخفض انخفاضا محسوسا ، لكن الجو كان يعبق برائحة الكارثة بشكل غريب لأن الرياح ، بعد أن أفسحت مكانها للأمطار والعواصف ، عادت لتطالب بحقها في أن تكون هي مسك الختام .

كان الماء يشتد كلما زاد جريانه . ومن جديد عاد الإحساس بالمنازل تتزلزل من أصولها وبالأبواب تلتوي وكأن أيد عملاقة تعصرها .

وراح صوت رشقات المطر يرتفع ، ومعه أزيز المداخن والنوافذ والأبواب . . .

بالكاد تسنى لأنطوان ولمدام كورتان ما يكفي من الوقت ليغلقا مصاريع الأبواب والنوافذ في الطابق كله من جديد . وتبعت العاصفة الأولى عاصفة أخرى .

بعد لوثر التي سبقتها ببضع ساعات ، سميت هذه العاصفة «مارتن» .

وكانت أعنفهما وأشدهما تدميرا .

اقتُلعت إلى غير رجعة السقوف التي كانت قد ثُقبت قبل ذلك ، واستأنَفت السيارات التي ثبتتها السيول طريقَها على غير هدى ، تدفعها هبات الرياح التي بلغت سرعة بعضها مائتي كيلومتر في الساعة . . .

تكورت مدام كورتان على نفسها في ركن من أركان الغرفة ، وقد تقوس ظهرها .

بدت ضعيفة إلى أقصى حد ، وقلب ذلك كيان أنطوان . وترسخ له مرة أخرى يقينه من أنه لن يقدر أبدا على فعل أي شيء قد يحزنها .

وأتاها ليلتصق بها .

وظلا على تلك الحال طوال الليل .

١٣

عند الفجر استيقظت المدينة وهي تترنح من هول الصدمة . فُتحت أبواب المنازل الواحد تلو الآخر . وأطل السكان برؤوسهم تباعا وخرجوا وقد استبد بهم الذهول والرعب .

ووقفت مدام كورتان ، التي هدها التعب ، هي أيضا على حجم الدمار . كان الطابق الأرضي كله مغطى بالطين ، والأثاث مبللا ، وأَثَرُ الماء يرسم خطا مستقيما بعلو متر أو أكثر من الأرض ، والبيت كلُّه يعبق برائحة الحمأ ، وما العمل؟ لم يعد هنالك تيار كهربائي ، ولا خطوط هاتف . . . وساد هدوء جديد ، كأنه زمن معلق ، مع ذلك الشيء الذي تشمه حولك ويقول لك إن الأمر قد قضي . وأحست مدام كورتان هي أيضا بذلك ، كما أحس به الآخرون . ورآها أنطوان تستقيم ببطء . تنحنحت وتقدمت بخطوات أكثر ثباتا . وخرجت ورأت شجرة عيد الميلاد الممددة على الأرض ، وتقدمت بضع خطوات ، واستدارت إلى السقف . وطلبت عندئذ من أنطوان أن يذهب إلى دار البلدية لعله يأتي منها ببعض المساعدة .

لبس أنطوان معطفه وانتعل حذاءه وعَبَرَ الحديقة المشبعة ماءً . قد يبدو هذا الكلام غريبا ، لكن إن أمعنا النظر فسنجد أنه وأمَّه كانا يُعدَّان من المحظوظين ، فلقد جُنِّب سقف بيتهما بمعجزة . لقد زال عدد من القرميدات من مكانه ، وكثير منها تطاير وتحطم على

الأرض ، لكن الضرر كان محدودا .

كان آل ديسميد أقل حظا . كانت المدخنة التي أطاح بها الريح قد تهدمت وثَقبت السقف وعبرت المنزل من أعلاه إلى أسفله وصولا إلى القبو ، جارفة معها كل الأدوات الصحية ونصف المطبخ .

كانت بيرناديت في الخارج ، وقد التفعت ببرنس حمام ارتدت فوقه معطفا أكبر منها . كانت تنظر إلى أعلى . في اختراقها للمنزل ، كانت المدخنة قد أخذت معها فرش غرفة ريمي . كانت مخيفة فكرة أن الصبي كان سيُباغَت في فراشه وأن السقف كان يمكن أن ينهار فوقه . . . كان سيموت من فوره . . . بدت بيرناديت وكأنها لم تعد تشعر بشيء إذ غمرها حجم الكارثة التي حلت بها منذ يومين . وكانت قامتها النحيلة أشبه بالحطام .

ظهر مسيو ديسميد من نافذة غرفة ريمي ، وبدا مذهولا هو أيضا ، وكأنه جاء يبحث عن ابنه فلم يجده .

ونزلت فالنتين بدورها درجات المدخل لتلحق بأمها في الحديقة . كانت ترتدي الملابس نفسها لكن سروال الجينز الأحمر وسترة السكاي الضيقة كانا متسخين وكأنهما أمضيا الليل بطوله في عراك مع خصم عنيد . كانت شعثاء الشعر شاحبة الوجه وعلى كتفيها شال أسكتلندي كان لأمها دون شك ، ومكياجُها يرسم على وجهها ذيولا داكنة . لم يعلم أنطوان من أين أتته تلك الصورة ، لكن في مشهد نهاية العالم ذاك ، بدت له مراهِقةُ البارحةِ المتعجرفةُ المثيرةُ مومسا مبتدئة دُفعت إلى الرصيف .

أماً المنزل المجاور ، منزل آل موشوت ، فتطايرت مصاريع أبوابه ونوافذه ، وتحطمت مظلة الباب وتشوَّكت الحديقة بقطع كبيرة من

الزجاج ، كصحون تتزاحم مع عدد هائل من قطع القرميد المحطمة .

ورأى أنطوان وجه إيميلي التعب ملتصقا بالنافذة ، وأومأ لها بيده إيماءة سريعة لكنها لم تجب . كانت تنظر إلى نقطة غامضة في مكان ما من الشارع . كانت ، وهي واقفة مسمرة جامدة الوجه تؤطرها النافذة ، تشبه صورة بنت صغيرة من الزمن الغابر .

والداها أيضا كانا منهمكين . كان مسيو موشوت ، بحركات مقطعة كالتي يأتي بها رجل آلي ، يملأ أكياسا بلاستيكية بكل ما كان مبعثرا في الحديقة . وكانت زوجته ، التي طالما وجدها أنطوان ذات جمال يأخذ بالألباب ، تسحب إيميلي من كم ثوبها وكأن وقوفها لتتفرج على الشارع أمر لا يليق .

في طريقه إلى وسط المدينة ، طالع أنطوان مشهدُ مدينة كأنها تعرضت لقصف بالقنابل .

لم تبق سيارة واحدة في مكانها . كانت الرياح قد حملتها فجنحت إلى مخارج بوفال ، وأمسكتها أعمدة جسر السكك الحديدية ، فتكدس بعضها فوق بعض في جبل من حديد . كانت الدراجات النارية ، ودراجات السكوتر ، والدراجات الهوائية الأخف وزنا ، قد تبعثرت ، فصرت تجدها في الأقبية وتحت السيارات وفي الحدائق وفي النهر ، وفي كل مكان . وتحطمت واجهات محلات عديدة فدخلت إليها الرياح ونشرت في المدينة مواد صيدلانية أُشبعت ماءً وخردوات مفككة ، وهدايا دكان التبغ الذي يملكه مسيو لوميرسيي . كان أولئك الذين لم يفقدوا إلا أربع أو خمس دزينات من القرميد من المحظوظين ، لأن الآخرين بكل بساطة لم يعد لهم سقف .

كانت رافعة ورشة مجاورة قد وقعت وتمددت على المغسل

الذي لم يعد هيكله الذي بني في القرن الخامس عشر إلا أثرا بعد عين . في الحدائق وعلى ركام المنازل المدمرة ، تجد أحيانا مهدا ، دمية ، تاج عروس وأشياء صغيرة بدت وكأن الله وضعها بمهارة ليبين أن كل شيء معه يجب ألا يُفهم فهما حرفيا . عندما يعود القسيس الشاب (الذي كان منهمكا بلا شك في إفهام رعيته في المقاطعة كلها أن ما يصيبهم كان في الواقع خيرا ، ولم تكن تلك بالمهمة السهلة . . .) سيرى بنفسه أن الله لطيف في أقداره ، وأنه أيضا ماكر محتال : لقد جُنِّبت الكنيسة ويلات العاصفة إلى حد ما ، ما عدا نوافذها الدائرية التي تحطمت زجاجياتها كلها إلا واحدة تمثل القديس نيكولا ، الذي يعتبره الكثيرون شفيع اللاجئين .

كانت الريح قد اقتلعت دُلَبَة ساحة البلدية من أصولها فتمددت في عرض الطريق الرئيسي وسحقت شاحنة صغيرة ، وشطرت المدينة إلى شطرين لا يقل أحدهما خرابا عن الآخر . وارتطمت مقطورة جرفها طوفان السيول من المخيم البلدي بجدار دار البلدية ، وتبعثرت على الرصيف أغطية بلاستيكية وفرش وأبواب خزائن وقناديل أسرة ومخدات ومؤن .

عند البلدية وجد أنطوان عشرة أشخاص أو يزيدون جاءوا كلهم يستغيثون . وبدا كل واحد منهم وهو يصف ما لحقه من أضرار أشدَّهم مصابا : هنا أطفال رضع ، وهنا أقرباء يحتاجون لمن يؤويهم ، وهناك منزل يريد أن ينقض . وكان الجميع على حق .

نزل مسيو وايزر من مكتبه يبدو عليه الانهماك ، وبيده أوراق . كان ثيو يتبعه . عندما وصل إلى ساحة البلدية أمام النفر المجتمعين ، حاول العمدة أن يقول ما لم يكن أحد يود سماعه . لا بد أن أفراد الحماية المدنية كانوا مرهقين ، وبأي حال كان من

المستحيل استدعاءهم لأنه لم تعد هنالك خطوط هاتفية . لا بد أن المحافظة ، ومعها شركة الكهرباء الفرنسية ، قد رسمت خطة تدخل لإعادة التيار ، لكن لا أحد كان يعلم هل سيتم ذلك في غضون ساعات أو أيام . . . وارتفع الصراخ .

– علينا أن ننظم أنفسنا بأنفسنا ، صاح رئيس البلدية وهو يرفع الأوراق . علينا أولا أن نضع قائمة بالاحتياجات . قاعة المجلس البلدي ستستقبل كل المطالب التي ستسمح لنا بتحديد الأولويات .

لجأ مسيو وايزر في ظرف كهذا إلى لغة رسمية لعلها تعبر عن كفاءته وروحه التطوعية :

– لم تصب قاعة الرياضة بأضرار بليغة . علينا أن نسرع بفتحها لنستقبل فيها كل من لم يعد لهم مأوى ، ونقدم طعاما للجميع ونبحث لهم عن الغطاء . . .

كان مسيو وايزر يتكلم بصوت حازم . وسط كل ذلك الهباء ، صارت البديهيات التي كان يقولها مطمئنة كمهمة واضحة المعالم نكلف بتنفيذها . وتابع :

– لكي نعيد حركة السير إلى بوفال ، علينا أن نحرك الدلبة التي وقعت . ولنفعل ذلك ، تلزمنا سواعد . . . سواعد كثيرة . ليمد أولئك الذين لم يلحقهم ضرر بالغ يد العون لمن هم في حاجة أمس .

وجاءت مدام كيرنيفيل ، في غاية من الاضطراب .

– الأستاذ فالينير ممدد في حديقة بيته! قالت . لقد مات ، قتلته شجرة .

– هل أنت . . . واثقة مما تقولين؟

وكأن الأضرار المادية لم تكن كافية ، فجاء الموت ليكملها .

– نعم! لقد هززته ، وهو لا يتحرك ولا يتنفس . . .

وأعاد ذلك أنطوان إلى موت ريمي . ورأى نفسه هو أيضا من جديد يحاول إيقاظه .

– علينا أن نذهب ، قال رئيس البلدية . حالا . . . لنعيده إلى بيته .

وتوقف . لا بد أنه كان يفكر في ما سيكون عليه أن يفعله لو تأخرت النجدة في الوصول ، كيف سيتعاملون مع ميت؟ أو مع موتى كثيرين؟ وأين سيضعونهم؟

– من سيهتم بابنته؟ سأل أحدهم .

ومسح مسيو وايزر بيده على رأسه .

في أثناء ذلك ، وصل أشخاص آخرون ، من بينهم عضوان في المجلس البلدي ذهبا ليصطفا خلف رئيس البلدية . وارتفعت بعض الأصوات تقترح ملجأً ما ، وأخرى تقول إنها تعرف من أين يمكن الحصول على البطانيات ، وتطوع أحدهم ليبقى في قاعة الرياضة . وبدأت حركة تضامن تطل برأسها على استحياء ، وأعلن مسيو وايزر أن اجتماعا سيعقد بعد ساعة في قاعة المجلس البلدي وأن بإمكان الجميع المشاركة فيه ، وعندئذ سيقررون بشأن كل شيء . . .

دوى صوت كالزئير خلف الجمع .

والتفتت الرؤوس .

– وابني إذاً؟ صاح مسيو ديسميد . من سيساعدنا على إيجاده؟

توقف على بعد أمتار ، ذراعاه تتأرجحان ، وقبضتاه

مضمومتان . . . المذهل في صيحته هو أنها لم تكن تحمل الغضب الذي كان يُنتَظر منه . ما كانت تعبر عنه هو محض شعور بالنكبة .

- ألا يفترض بنا أن ننظم عملية تمشيط صباح اليوم؟

صار صوته أقل حدة وكانت نبرة سؤاله أقرب إلى نبرة رجل تائه يسأله عن طريقه .

كان الحاضرون كلهم قد شاركوا ، في اليوم السابق ، في حملة التمشيط التي نظمها الدرك ولم يكن أي منهم متهما في اهتمامه بمحنة مسيو ديسميد ، لكن الهوة بين ما كان يطالب به وبين الواقع الذي كان يراه الجميع كانت من الاتساع حتى أن أحدا لم يجرؤ على أن ينبري بالشرح والتفسير .

تنحنح مسيو وايزر ، وهو الذي كان يقع على عاتقه التفسير ، لكن صوتا قويا حازما أوقف تقدمه :

- روجي ، هل تدرك حقا ما نحن فيه؟

والتفت الجميع .

كان مسيو موشوت قد شبك ذراعيه متخذا دور الواعظ ، وكان ذلك من عادته . كان والد إيميلي دائما يتزر بإزار الفضيلة والأخلاق . وكان قبل أن يتم تسريحه رئيس عمال صعب المراس مدققا لم يراوده الكرم أو تتطرق الرحمة إلى قلبه قط . على بعد أمتار منه ، وقف مواجها مسيو ديسميد ، عدوه الحميم . كان الجميع يتذكرون اللطمة التي كالها له والد ريمي عندما كانا يعملان معا ، يومها تراجع مسيو موشوت بمترين وتهاوى جالسا على سطل نُجارة ، وتعالت ضحكات لتضيف إلى الإهانة مذلة السخرية . وفصل مسيو وايزر المذنبَ ليومين لكنه أبى أن يطرده . دون شك ، كان يرى ، شأنه في ذلك شأن كل الآخرين ، في هذا الموقف الذي كان غريبا

أكثر منه عنيفا حقا ، انقلابا عادلا للأمور .

– كل وسائل الاتصال مقطوعة ، واصل مسيو موشوت ، المدينة منكوبة ، وثمة عائلات بأكملها صارت في العراء ، أتظن أنك تستحق أن تُقدَّم على غيرك؟

كان كلامه صحيحا وظالما إلى حد مرعب ومدفوعا برغبة في الانتقام دنيئة إلى حد تبوخ معه العزائم . ووَدَّ أنطوان نفسه لو أنه ينبري للرد عليه .

لو حصل ذلك في ظرف آخر ، لاندفع إليه مسيو ديسميد ولكان عليهم أن يحجزوا بينهما . لكن ذلك لم يكن ضروريا ، فلم يأت مسيو ديسميد بأي حركة . كان ذلك هو الجواب الذي توقعه ، وأن يأتيه بذلك الشكل المخجل لم يكن ليغير في الأمر شيئا .

وتدخل العمدة بفتور :

– مهلا ، مهلا ، قال ، لكنه لم يجد الكلمات المناسبة .

لم تكن استحالة مساعدة مسيو ديسميد هي وحدها التي تثير الشعور بالاختناق ، بل أيضا الانطباعُ بأن اختفاء ابنه الصغير ، مهما كان مأساويا ، صار الآن ثانويا وأن المصيبة التي حلت على الجميع أزاحته فلن يعود أبدا شأن الجميع .

لم يعد أحد مستعدا للاستمرار في البحث عن ذلك الطفل ، وصار اختفاءه أمرا واقعا يجب تقبله .

لو أنه كان قد تاه وظل حيا خلال الساعات الماضية ، فهو لم يعد كذلك الآن .

وبلغ بهم الأمر أن يتمنوا أن يكون قد اختطف . . .

وأتبع ذلك صمت رأى فيه مسيو ديسميد تجسيدا للوحدة التي سترافقه من الآن فصاعدا .

راضيا كل الرضا عن النصر الذي أحرزه ، رغم أنه كان نصرا بلا شرف ، تقدم مسيو موشوت إلى العمدة وعرض عليه خدماته ، إن كان ثمة ما يمكن فعله للمساعدة في أي مكان . . .

في طريق عودته ، حاول أنطوان أن يحصل على بعض الأدوات من أجل تنظيف المنزل ، وعلى مصباح جيب أو بطاريات . لم يكن يحمل معه مالا ، وفي يوم كهذا لن يمتنع أحد عن بيعه بالدين ، لكن ستارَ متجر الخردوات الحديديَّ المحدب من أثر العاصفة كان لا يزال مسدلا . وخطرت بباله عندئذ فكرة أن يذهب إلى الكنيسة ليأخذ بعض الشموع .

عند باب الكنيسة التقى بمدام أنطونيتي ، كانت تحمل حقيبة ثقيلة ، وحدقت فيه بإصرار ساخر .

كانت كل الشموع قد اختفت من على أوعية العرض .

١٤

هاتان العاصفتان المتتاليتان ، وتلك الأمطار الطوفانية ، كل ذلك كان له وقع الصاعقة إلى حد أن كل ما سبقه امَّحى بشكل ما من ذهن أنطوان . قبل ساعات من كل ذلك ، كان يتخيل برعب فكرة أن جثة ريمي قد تتزحزح من سانت أوستاش ، يجرفها السيل فتقطع المدينة ، رآها تطفو على ظهرها كسمكة ميتة وتمر أمام منزلها ، منزل والديها . . . لن تسير الأمور على هذا النحو . لقد جلبت الأحداث ، مهما كانت مأساوية ، لأنطوان استراحة لم يكن يتوقعها . ربما ستكتشف الجثة على بعد كيلومترات من بوفال ، ولا شك في أن العاصفة قد محت الكثير من القرائن . . .

أو ربما لم يكن ذلك إلا أمرا مؤجلا وفي غضون أيام قليلة ، ستستأنف عمليات البحث . وإن كانت جثة ريمي لا تزال في مكانها ، فهي لن تكون مخبأة بما يكفي لئلا تكتشفها عملية تمشيط ثانية .

صار مصير أنطوان الآن رهنا بشَكٍّ عميق راح يتعلق به شيئا فشيئا .

كانت مدام كورتان قد أكبت على تنظيف المنزل مسلَّحة بمكنسة وببعض الممسحات ، وكانت تلك مهمة لا نهاية لها . . . وشرح لها أنطوان الإجراءات التي اتخذتها البلدية ، إجراءات لن تقدم كثيرا في وضعهما ولن تؤخر .

- لقد تخلوا عنا! تمتمت .

- لقد مات الأستاذ فالينير . . .

- حقا؟ كيف؟

توقفت مدام كورتان ، خمارها على رأسها ، ويداها لا تزالان تمسكان بالممسحة فوق الدلو .

- يبدو أن شجرة سقطت عليه . . .

عادت مدام كورتان إلى عملها ، ببطء أكبر . كانت من أولئك الذين كثيرا ما يطغى التفكير عندهم على الوظائف الأخرى .

- وابنته ، ماذا سيحل بها؟

كان تأثر أنطوان عميقا أمام ذلك الاحتمال التي تراءى له . من سيدفع ، يوم الأحد ، الفتاة الصغيرة الناحلة على ممشى الكنيسة الرئيسي؟ من سيُنزِهها صيفا في وسط المدينة ، ويوقفها أمام المحلات التي لن تدخلها أبدا ، ويشتري لها المثلجات التي ستأكلها بوقار ، وهي جالسة مع زبائن آخرين على رصيف مقهى باريس؟

الأمور في بوفال تتطور عادة ببطء ، والأحوال تتبدل بالتدريج . لكن السرعة والعنف اللذين راحت الأحداث تتسارع بهما منذ ثلاثة أيام قد أخذت القرية الصغيرة على حين غرة . كان المشهد يتبدل بسرعة ، بسرعة كبيرة جدا .

وفكر أنطوان في مسيو وايزر الذي ، ككل الناس هنا ، لم يكن يحبه أبدا . لكنه فكر أيضا في ما بذله من جهد ليحشد القوى المتوفرة . لقد أظهر ، في ظروف كهذه ، عزيمة لا تني مسخَّرة كلُّها للجماعة ، بينما كان سقف مصنعه -كما سيُعرَف بعد ذلك خلال النهار- قد اقتُلع وكان عليه التعجيل بفعل ما من شأنه أن يحمي الآلات والسلع وينقذ ما يمكن إنقاذه بعدُ ، ولم يكن أحد ليلومه لو

أن فكر في نفسه ، كما فعل معظم الآخرين .

بما أن بيتهما لم يتهدم والسقف لم يزل في مكانه ، قال أنطوان ، ألم يكن الأجدر بهما مثلا أن يذهبا لمساعدة آل ديسميد؟

- وتظن ألاَّ عمل لي غير ذلك؟

خرج جواب أمه مندفعا بعفوية صادمة .

زُحزحت الدُّلبة من الطريق في بداية الظهيرة أمام مشاهدين صامتين . كم كان عمرها؟ كانت أقدم من ذكريات السكان . والآن صارت الساحة عارية ككف اليد .

كانت أشجار كثيرة قد وقعت على الطرقات حول بوفال ، فمنعت الفنيين من التدخل . وتعذرت الاتصالات طيلة يومين .

وأخيرا عادت الكهرباء ، وتبعها الهاتف .

كان منزل آل كورتان تفوح منه رائحة الحمأ ، والأثاث كله تلف وصار يجب استبداله . وبدأ بملء بعض الأوراق للتأمين واستمارات من أجل المقاطعة التي وعدتهما بمساعدات عاجلة ، لكنهما في الواقع سينتظران مجيئها طويلا وأغلبها لن يصل أبدا . كانت بلانش كورتان تعمل بكد ، في صمت وتركيز ، لكنها كانت تنزعج لأهون سبب ، فتصبح ردودها وتصرفاتها مفاجئة وعنيفة .

وانكب أنطوان على إنجاز بعض الأعمال للمصلحة العامة برفقة ثيو وكيفين وبعض الأصدقاء . كانت العواصف قد دفعت بالخلافات بين أنطوان وثيو إلى مخزن الذكريات ، وتنافس أولاد المدرسة كلهم في إظهار استعدادهم لمساعدة العائلات المنكوبة ، مهملين عائلاتهم في بعض الأحيان ، وبدوا كأنهم جيش من الكشافة .

أخيرا ، استطاع أنطوان أن يفلت من الرقابة ، وهو الذي لم يعد يحتمل الانتظار ، وتوجه صوب سانت أوستاش .

كانت مئات من الأشجار في الغابة البلدية قد وقعت . وفي الأماكن التي ضربها الإعصار ، رسم سقوط الأشجار ممرات مدهشة مستقيمة تماما .

في سانت أوستاش ، كان المشهد مروعا أكثر . ببساطة ، كان الدخول إليها مستحيلا ، وبدت الأحراج وكأنها دُكَّت دكا ، فسويت بالأرض . . . ما عدا بعض الأشجار النادرة التي ، لسبب غامض وغير مفهوم ، صمدت وبدت كأنها رواصد منصوبة في أرض يباب .

قفل أنطوان راجعا وهو يفكر .

كانت مدام كورتان قد استخرجت من القبو راديو ترانزستور قديما زودته ببطاريات جمعتها من عدة أجهزة بالبيت . كانت تميل برأسها على الراديو الصغير المخشخش ، وكأن الزمن عاد للوراء إلى فترة الاحتلال النازي . . .

- أنطوان ، اصمت ، دعني أنصت!

كان نقيب الدرك يؤكد أن التحقيق في اختفاء الصبي ريمي ديسميد «سيستمر دون هوادة» ، لكن ضواحي بوفال كانت مدمرة إلى حد أنه لن يكون بالإمكان تنظيم حملات تمشيط جديدة . الدرك ، المستعد والمعبأ ، الخ .

كانت الآثار التي أحدثتها العاصفة في المقاطعة موضوع برنامج «ملف المساء» .

وشرح مسيو وايزر لمحاوره كيف أن جهده كله كان منصبا على إقناع الشركات على المجيء لحمل مئات الهكتارات من الأشجار

التي وقعت على الأرض لكي لا تذهب هباء ، وهي ملك للبلدية .

أما أحراج سانت أوستاش ، التي دار حولها سجال طويل بين ورثتها الكثيرين -ناهيك عن أولئك الذين لم يستطع أحد أن يصل إليهم- ولم تكن تمثل أي قيمة تجارية ، فستبقى على حالها .

صعد أنطوان إلى غرفته . لقد مات ريمي ، واختفى .

قضي الأمر .

صار ريمي مجرد ذكرى ، وسيبقى كذلك مدة مديدة . وعندما سيدخلون من جديد إلى الأحراج ، ذات يوم بعيد ، فلن يجدوا من الطفل الميت إلا رمما بالية .

مكتبة

وعلى أي حال سيكون أنطوان قد ابتعد .

فهو لا يفكر منذ الآن إلا في شيء واحد : أن يترك بوفال .

ولا يعودَ إليها أبدا .

٢٠١١

١٥

لم تنل السنين أبدا من مبادئ مدام كورتان شيئا . وتعلم أنطوان باكرا جدا أن التصدي لها متعب ولا طائل من ورائه . حسنا إذاً ، سيذهب إلى حفلة مسيو لوميرسيي في المساء ، سيصل في حدود السابعة ، أعدك بذلك . وكل ما حصل عليه في المقابل هو أنه لن يطيل البقاء فيها . كان التحضير للامتحانات ذريعة لا تقاومها أمه .

قرر أن يمشي قليلا في انتظار أن تتصل به لورا . كان يصيبه الملل بسرعة عندما لا تكون بجواره ، ويَوحَش لوجودها ، ويشتاق لذراعيها الهشتين الرَّخصتين ، ولأنفاسها البليلة . كان مستعجلا للقائها . . . وتملكته رغبة عارمة في مضاجعتها . كانت شابة سمراء مثيرة جدا ، لا تعرف الحدود ، وتعتبر الرغبةَ واللذة ضرورتين لا تقلان أهمية عن الهواء والغذاء . كانت ذكية وعلى درجة لا بأس بها من الجنون ، فكانت تندفع بلا ترو في قصص مقلقة ، لكنها كانت تملك حسا حادا بالاستقامة يجعلها دائما تبتعد عن الخطر عند أول إنذار . هذه الفتاة التي كانت تعد بطبيبة ممتازة كانت أيضا قادرة على الخوض بأنطوان في مغامرات ملؤها الشغف ، بقوة قَلَّ أن يوجد لها مثيل . كانت الحياة مع لورا ألعابا نارية ، وعداً أبدياً انغمس فيه أنطوان بسعادة وشغف . كانت لورا الضفة المشرقة في حياته . كان أحيانا يعشق لحظات البين بينهما ، الحزينة والواعدة

في آن . وأحيانا ، كاليوم ، يثقل البعد عليه ، فيشعرُ بوحدة رهيبة . وكانت العلاقة مع لورا متفجرة منذ البداية ، على صورة المرأة الشابة نفسها التي لم تكن تتصور العلاقات الغرامية إلا شغوفة عابرة وقابلة لأن تُنقَض . وإذ بعلاقتهما تدوم ، وبثلاثة سنوات تمضي عليهما معا . كانا قد اجتمعا على رغبة مشتركة في ألا يكون لهما أولاد ، وكان ذلك أمرا نادرا عند امرأة بمثل عمرها ومناسبا تماما لأنطوان ، فهو لم يكن يتخيل أبدا أن يحمل على كاهله عبء طفل ومسؤوليته وحياته ، كان ذلك مستحيلا ومجردُ التفكير فيه يصيبه بالهلع . ثم أن أنطوان ، الذي لم يتوان لحظة عن الابتعاد ما استطاع ، كان قد عبَّر عن رغبته في التطوع في النشاط الإنساني ، وهو ما فكرت فيه لورا أيضا ، فصارت عُرَى علاقتهما ، التي انعقدت على جنسانية مزدهرة ومتفلتة ، أوثق بحَبْلِ هذا المشروع المشترك . ويوما قالت له لورا «في مجال النشاطات الإنسانية ستكون الأمور أيسر من وجهة نظر إدارية إن كنا متزوجين . . .» ، جملة قالتها بشرود ، كما لو أنها ذكرت هكذا شيئا يجب إضافته إلى قائمة المشتريات ، لكن ذلك جعل أنطوان يسبح في فلك من الأفكار الجديدة وجعل شيئا فشيئا يترك أثرا في ذهنه .

صارت إمكانية زواجه من لورا الآن أمرا مبهجا ، وصالحته فكرة أنها هي من خطبته بعض الشيء مع نفسه .

كانت تلزمه بعض البطاريات لفأرة حاسوبه المحمول ، فخرج قاصدا وسط المدينة .

لم يكن يستطيع ، عندما كان يخرج من منزل والدته ، منْعَ نفسه من النظر إلى حديقةِ مَا كان يوماً ما منزلَ آل ديسميد . بعد أن تم ترميمها وتجديدها وبناؤها من جديد تقريبا ، صارت تؤوي الآن

زوجين في الأربعين وابنتيهما التوأم . كانت علاقة مدام كورتان بهم ودية لكنها كانت باردة أيضا فهم ليسوا حقا من هنا .

بعد العاصفة ، حصل آل ديسميد على سكن اجتماعي في آبيس ، وهو حي على أطراف بوفال . كان مسيو ديسميد قد نجا بأعجوبة من موجة التسريحات التي ضربت العمال مطلع الألفية الجديدة وجعلتها ضرورية الحالةُ التي آل إليها مصنع وايزر . وسرت إشاعة تقول إنه لم يسرح من عمله رأفة بحاله . فراح مسيو موشوت يطلق بهذا الشأن إشاعات خبيثة سرعان ما توقفت من تلقاء نفسها لأن مسيو ديسميد صرعه تمزق في أم الدم ومات في فراشه أثناء نومه .

أما مدام ديسميد فشاخت كثيرا ، وظهر ذلك في علامات وجهها ومشيتها الثقيلة . كان أنطوان يصادفها أحيانا ، صارت بدينة تمشي ببطء وكأنها كانت تنظف البيوت طوال حياتها .

لم تحافظ والدة أنطوان على صداقتها معها . بل إنها تصرفت كما لو أنهما كانتا متخاصمتين ، وأن قصة سرية ولا يمكن تجاوزها فرقت بينهما . ومنذ أن انتقلت بيرناديت إلى حي آبيس ، لم تعد الفرصة تسنح لهما كثيرا لتلتقيا ، إلا في بعض المرات وهما تتبضعان ، لكن الأمر لم يكن يزيد عن تبادل التحية ، كانت العاصفة قد كنست ما كان بينهما من تضامن الجيران . ولم ينتبه أحد لذلك ، ولا حتى مدام ديسميد . في تلك المرحلة العصيبة والغامضة ، خمدت صداقات كثيرة ، وولدت أخرى غير متوقعة أحيانا ، فالعواصف التي ضربت المدينة قد أعادت كليا رسم خريطة العلاقات بين السكان . وفي ما يخص أمه ومدام ديسميد ، كان أنطوان طبعا يعرف أكثر بكثير من غيره ، لكن كل ذلك كان ينتمي

لفترة لم يعودا يتكلمان عنها إلا فيما ندر ، وصارت مدام كورتان تسميها «عاصفة سنة ٩٩» ، وكأنه لم يحدث في بوفال أبدا شيئ جدير بالذكر إلا سقوط الأشجار وطيران أسقف بعض المنازل .

ظلت مهمومة زمنا طويلا ، تتابع بانتباه الأخبار المحلية ، وتطالع الصحيفة كل صباح ، وهو ما لم تكن تفعله أبدا قبل ذلك . ثم سكن قلقها شيئا فشيئا ، فأطفأت جهاز التلفزيون ولم تجدد اشتراكها بالصحيفة اليومية . استدار أنطوان يمينا باتجاه المدينة . دائما كان ينتابه الإحساس نفسه . كان يكره كل شيء ، هذا المنزل ، وهذا الشارع . كان يمقت بوفال .

كان قد غادرها منذ الثانوية ، مثيرا دهشة أمه أن فضل النظام الداخلي . واليوم ، هو لا يزال يعود لزيارة أمه ، لكن زياراته صارت متباعدة أكثر فأكثر وقصيرة إلى أقصى حد ممكن . كان الجزع يلازمه أياما قبلها ، فيغادر بسرعة ، مختلقا دائما أعذارا جديدة .

في حياته اليومية ، كان ينسى . كان موت ريمي ديسميد حدثا عابرا مضى عليه الزمن ، ذكرى أليمة من ذكريات الطفولة ، فتمر أسابيع دون مشاكل . لم يكن أنطوان لامباليا ، جريمته هي التي لم يعد لها وجود . ثم فجأة ، طفل صغير في الشارع ، أو مشهد في السينما ، أو رؤية دركي ويندلع في نفسه خوف لا يقهر ولا يمكن التحكم به . كان الهلع يتملكه ويبتلع حياتَه وَشْكُ الكارثة ، وكان عليه أن يبذل جهدا خارقا ليخفض كل هذا الضغط متوسلا في ذلك بالأنفاس العميقة الطويلة والإقناع الذاتي ، وكان يراقب اختلاجاتِ خياله كمحرك ارتفعت حرارته فجأة ونرقب بجزع متى يبرد .

الواقع هو أن الرعب لم يكن يفارقه أبدا . كان يغفو وينام ، ثم

يعود . كان أنطوان يعيش مع اليقين بأن جريمته ، إن عاجلا أم آجلا ، ستدركه وتدمر حياته . كان معرضا لعقوبة السجن لمدة ثلاثين عاما ، تخفض إلى النصف لأنه كان قاصرا زمن الواقعة ، لكن خمسة عشر عاما هي حياة بأكملها لأنه لن ينعم بحياة عادية أبدا بعد ذلك ، فقاتل طفل لا يعود أبدا شخصا عاديا من جديد لأن قاتلا في الثانية عشرة من عمره لا ينظر إليه أبدا على أنه شخص عادي .

كان التحقيق لا يزال مفتوحا فلم يكن أنطوان يأمل حتى في أن تسقط الجريمة بالتقادم .

إن عاجلا أم آجلا ، ستهب عاصفة بقوة لا يتوقعها أحد ، وبشدة يضاعفها قدمها ، ستدمر كل شيء في طريقها ، حياته وحياة أمه وأبيه ، ولن تأتي لتقتله فحسب ، بل ستدخله التاريخ ، وسيصبح اسمه ووجهه أشهر من نار على علم ، ولمدة طويلة جدا ، ولن يصمد أمام كل هذا أيٌّ مما حققه وفعله حتى اليوم ، سيكون «قاتل الأطفال» ، «الطفل القاتل» ، «المجرم النائم» ، حالةً جديدةً يدرسها علم الإجرام وتضاف إلى سجلات أطباء الأمراض العقلية عند الأطفال .

لأجل كل هذا كان يريد أن يغادر أكثر من أي شيء آخر ، أن يغادر بعيدا . كان يعلم أنه سيبتعد عن بوفال وثمة صور لن تكف عن ملاحقته حتى وهو في أقاصي الأرض ، لكنه على الأقل سيتخلص من عبء مصادفة من كانت لهم علاقة بمأساته ، من قريب أو من بعيد .

كانت لورا تجده أحيانا هشا ، محتدا ، متصببا عرقا ، وفي أحيان أخرى على العكس من ذلك محطما ، مفرغا من كل طاقته

وقواه ، مكتئبا . لم تكن تفهم نوبات الهلع التي تصيب أنطوان دون سابق إنذار ، حتى أنها أحيانا كانت ترى أن مشروع أنطوان في التطوع للنشاط الإنساني صار على المحك . فلأجل ذلك ، ولأنها كانت امرأة لا تقبل أبدا بأن تظل جاهلة ببواطن الأمور إلى ما لانهاية ، كانت من حين لآخر تعود وتذكر الأمر . عبثا . أنطوان لم يأخذها معه أبدا إلى حيث عاش . عندما سيقبل بذلك ، عندئذ بلا شك سيتسنى لها أن تتحدث مع أقربائه ، وتفهم ، وتساعده أخيرا .

كان يقترب من دار البلدية عندما جاءه اتصال لورا :

- وإذاً ، قالت ، ما أخبار والدتك . . .

لم تكن مدام كورتان تعلم بوجود لورا . كان ذلك سر أنطوان الغامض واللاعقلاني الذي أزعج الفتاة لبعض الوقت ، لكنها لم تكن ممن يولون اهتماما كبيرا للتفاصيل الاجتماعية البحتة ، فصارت تتخذ من الأمر برمته مادة للمزاح ولا يزيدها شعور أنطوان بالحرج منه إلا تسلية .

- أتمنى أنها لا تعتب علي كثيرا لأني لم آت . . .

هذه المرة ، لم يشعر أنطوان بأي حرج ، كان يريد لورا . كان الجنس دائما بالنسبة له مضادا فعالا للقلق . ودون إبطاء ، راح يتمتم لها بأشياء بدائية لاهفة ما لبثت أن أخرستها . كان يكلمها كما لو كان ممددا فوقها وكانت هي مغمضة العينين ، ثم يمسك لتمر لحظات صمت طويلة مشبعة بالرغبة وهو يستمع إلى أنفاسها المتوترة .

- هل أنت معي؟ سألت أخيرا .

صار الصمت فجأة غير الصمت . لم يعد أنطوان ممددا عليها ،

صار بعيدا ، وأحست بذلك .

- أنطوان؟

- نعم ، أنا هنا . . .

كان صوته يصرخ بعكس ما قال .

لطالما رأى ، على واجهة محل مسيو لوميرسيي ، في الزاوية اليمنى ، صورة لريمي ديسميد تزداد اصفرارا كل عام . ولم يكن اختفاء الطفل يفتأ يظهر في أحاديث الناس ، فلا أحد يمكنه أن يقبل لغزا كهذا ، لكن البلاغ صار قديما ، وعندما كان يسقط على الأرض ، لم يكن أحد يعيده إلى مكانه ، ولم يعد أحد يراه إلا في مقر الدرك ، وسط عشرة نداءات أخرى من مناطق مختلفة ، وهنا ، عند مسيو لوميرسيي .

- أنطوان؟

لقد نُقل النداء من مكانه . لم يعد كما في السابق ملصقا على طرف الواجهة بل تحول إلى المركز . ولم تبق نفس المطبوعة القديمة الألوان ، بل استبدلت بصورة حية ، أكبر وجديدة .

إلى جانب الطفل ذي الخصلة الملساء والقميص الحاملِ صورةَ فيل أزرق صغير ، كانت هنالك صورة مراهق يشبهه شبها غريبا ، أنتجت بالحاسوب بفضل الاستعانة ببرنامج لتشكيل الصور كلف بتخيل ريمي ديسميد في السابعة عشر من عمره .

- أنطوان!

لم يعد البلاغ يصف الملابس التي كان يرتديها في تلك الفترة أو يكتفي بذكر تاريخ اختفائه ، في الخميس ٢٣ ديسمبر ١٩٩٩, كان أنطوان يرى في واجهة المحل انعكاسه هو وقَدْ تركّب بشكل عجيب على وجه هذا المراهق الذي لم يعرفه وكان وحده يعلم أنه

ليس موجودا . ما كان كل واحد في بوفال يتمناه ، أن الطفل ريمي لا يزال حيا ، وأنه كبر في مكان ما ونسي من يكون ، كل ذلك كان وهما ، كذبة .

وفكر في مدام ديسميد . هل كانت تضع على الصوان نسخة من هذا البلاغ؟ هل كانت تنظر كل صباح إلى هذا الطفل الذي لم تكف عن حبه دون شك وهذا الشاب الذي لم تكن تعرفه؟ هل كانت تتمنى رؤيته حيا يوما ما أم أنها عدلت عن ذلك؟

رد أنطوان أخيرا على لورا ، لكن حبل التواصل بينهما كان قد انقطع . واستأنف مشيه ، كان يشعر بالتوتر ، وتركت الإثارة الجنسية عنده مكانها لقلق متفش . نعم ، ها أنا ذا ، قال للورا ، لكن كان يريد أن يركب سيارته ويهرب .

- متى تعود؟ سألت لورا .

- بسرعة ، بعد غد . . . غدا . لا أعلم .

ود لو يقول : حالا .

تخلى عن فكرة التسوق ، فعاد إلى المنزل ، وصعد إلى غرفته وراح يقرأ ويكتب ملاحظاته ، لكن ذلك البلاغ هزه فظل مهموما مكدرا . والحق أنه مهما فتش في نفسه وتساءل ، فهو لم يكن يرى أي تهديد قد يظهر له الآن ، ما عدا اكتشاف الجثة . صحيح أن التحقيق رسميا لم يغلق أبدا ، لكن أحدا لم يعد يجِدُّ في البحث عن ريمي ديسميد . كان سلوكه لا عقلانيا ، لكن كان يساوره إحساس بأن الخطر تجسد في المدينة نفسها ، وأنه لا يكون إلا عندما يقترب هو منها .

كان قد دفع نفسه دفعا إلى الذهاب صوب سانت أوستاش مرة أو مرتين . ووجد المكان على حاله ، كما تركته العاصفة قبل اثني

عشر عاما . كانت الأشجار المكدسة فوق بعضها تتعفن في مكانها ، وكان مستحيلا الدخول إلى قلب الغابة . وكان يعرف حق المعرفة ، وهو الطبيب ، ما ستؤول إليه جثة ريمي ديسميد بعد عشرة أعوام . . .

وفجأة ، مع هذه الصورة الحديثة على واجهة محل مسيو لوميرسيي ، هو ذا الطفل الميت يعود إلى الحياة بشكل ما وتعودُ إليه واقعيةٌ دقيقةٌ وحاضرةٌ كتلك التي يراها في كوابيسه . ما تغير مع السنين ، وكان يُحزِن أنطوان ، لم يكن واقعُ أنه حكم عليه بألا يُحدِّث أحدا كائنا من كان بالأمر أبدا ، بل بالأحرى رؤيتُه لسُلَّم الأولويات وهو ينقلب ، فاليوم لم يعد الصبي القتيل هو المهم . كلُّ جهده وكل اهتمامه صارا منصبين على نفسه ، وعلى تطلعه إلى الأمن ورغبته في الإفلات من العقاب . لقد مر عليه الآن زمن منذ أن انتبه آخر مرة من نومه فزعا وهو يرى يدي ريمي الصغيرتين الطريتين تتأرجحان أمامه ويسمع صيحته المخيفة تستنجد به . في هذه المأساة ، لم يعد البطل هو الضحية بل القاتل .

سرعان ما أشارت الساعة إلى السابعة والنصف مساء ، ولم يكن يليق به أن يتأخر أكثر من ذلك ، فانطلق .

كان مسيو لوميرسيي يحتفل بعيد ميلاده الستين . كان ذلك في نهاية حزيران ، والجو معتدلا يكاد يكون صيفيا . مشواة في الحديقة وموسيقى وشرائط زينة ، وكل العُدَّة . كان المكان يعبق برائحة الشواء ، ووضعت هنا وهناك براميل صغيرة من النبيذ الأبيض والأحمر . كان المدعوون يأكلون في صحون من ورق تثنى على طاقين ، مستخدمين سكاكين لا تقطع شيئا .

كانت الحياة تجري في بوفال بإيقاع كأنه دقات الساعة ،

فالمدينة التي هزتها في مضى سلسلة من المآسي والألغاز قد عادت لسيرورتها الهادئة ، الثابتة أو تكاد ، والناس الذين كان أنطوان يعرفهم فيها لم يتغير فيهم شيء بعد عشر سنين ويوشك أن يخلفهم جيل آخر لا يكاد يختلف عنهم إلا في أمور لا تذكر .

- لقد أحسن تنظيم الحفلة ، أليس كذلك؟

كانت مدام كورتان تقوم بأعمال التنظيف لبضع ساعات في الأسبوع في بيت مسيو لوميرسيي ، الرجل المستقيم شديد اللياقة ، كما كانت تقول . وكان هذا يعني في قاموسها أنه ، بخلاف مسيو كوفالسكي (الذي كانت قد كفت عن العمل عنده منذ مدة مديدة ولم تعد تذكره في حديثها أبدا) ، يؤدي دائما ما عليه في وقته ودون تأخير .

صافح أنطوان بعض المدعوين ، وتناول كأسا ، ثم أخرى وأكل شيئا من الشواء . ومرَّ ، كما أوصته أمه ، بمسيو لوميرسيي يهنئه ويشكره . . . الخ .

كانت مدام كورتان تحمل بيدها كأس شامبانيا وتتحدث إلى مدام موشوت . الغريب في الأمر هو أن التيار نفسه الذي جرفها بعيدا عن بيرناديت ديسميد جعلها تقترب من والدة إيميلي التي كانت امرأة شديدة الجمال ذات وجه قاسية تعابيرُه وكانت دائما تمضي شطر وقتها في الكنيسة وشطره الآخر تصرِّفُ شؤون منزلها . عندما تحسنت أحوال مصنع وايزر ، أعيد مسيو موشوت إلى عمله ، لكن نفق البطالة الطويل التي مر به ترك فيه مرارة وسخطا باديين على وجهه ، فلم يعد أي شيئ يعجبه . أما مسيو وايزر ، الذي كان في الوقت نفسه محنتَه عندما اضطر إلى تسريحه من عمله ومخلِّصَه عندما أعاده إليه ، فلقد مثَّلَ جل حقده على عالم كان

يرى أنه حاد عن طريقه بلا رجعة . وقبل بالعودة إلى مصنع وايزر برضى وقور ، مَثله في ذلك مَثل رجل عاد أخيرا ، بعد ظلم حل به وأطال المكث بساحته ، إلى مكانه الذي يليق به . كان هنالك دائما شخص ليكرهه ، ولزمن طويل كان ذلك الشخص هو مسيو ديسميد . الآن وقد مات ، صار مسيو وايزر هو الأول على قائمة من يكرههم ، حتى أن الرجلين الذين وقفا متباعدين إلى أقصى ما كانت تسمح به حديقة مسيو لوميرسيي لم يكن أحدهما ليرى الآخر ولو اصطدم به طوال السهرة . ويقال إن مسيو وايزر كلما تعين عليه أن يصدر له أمرا في المصنع لم يكن يناديه إلا «سيدي رئيس العمال» .

أما زوجته فظلت بالنسبة لأنطوان لغزا مستغلقا ، تناقضا يمشي على قدمين . نادرا ما كانت تلك المهووسة بالطقوس المختبئةُ في جسد عارضة أزياء تتكلم أو تبتسم ، وجعلها ذلك تبدو كذبا بمظهر البريمادونا ، الحسناء اللامبالية ، وهو المظهر الذي كان أنطوان يعتقد أنه يخبئ شكلا من أشكال الهيستيريا .

– أهلا ، دكتور . . .

– ها ، مرحبا ، دوك!

شقراءَ مبتسمة ، كانت إيميلي تمسك بقدح البلاستيك برقة كما لو كان فاكهة ، بينما كان ثيو ينهي قطعة نقانق ويلعق أصابعه . لم يكن أنطوان قد رآهما من زمن ، فلم تسنح الفرصة لذلك . قبَّل إيميلي ، ومسح ثيو يده بخرق بفوطة ثم مدها له . كانت هيئته ، سروال جينز مخرق وسترة مشدودة وحذاء مدبب ، تصرخ بأنه لا يرى نفسه منتميا إلى هذا الإقليم الريفي وبأنه من طينة أخرى . وذهب حاملا معه كأسيهما .

كان أنطوان يحس بالارتباك في حضرة إيميلي ، فلقد كانت تنظر دائما إليه بطريقة خاصة .

- وكيف أنظر إليك؟ سألته بفضول .

لم يكن من السهل على أنطوان أن يشرح لها الأمر . كانت دائما تبدو وكأنها على وشك أن تسأله سؤالا ما . أو كأنها مندهشة مما كان يقوله أو يفعله .

مع مرور الوقت ، زاد شبه إيميلي بأمها وهي التي لم تتوقف أبدا عن التعلق بها تعلقا لا يعلو عليه شيء . ولم يكن غريبا أن ينتهي بها الأمر إلى أن تشبهها كل ذلك الشبه . هكذا كانت بوفال ، مدينة يشبه فيها الأبناء آباءهم في انتظار أن يحلوا محلهم .

تحدثا قليلا عن الحفلة . وسألها أنطوان عن حياتها وما جَدَّ فيها . كانت تعمل في بنك كريدي آغريكول ، فرع مارمونت .

- ومخطوبة ، قالت وهي تشهر خاتما بنهم .

آه فعلا ، كانت بوفال مدينة لا يزال الناس فيها يخطبون .

- لثيو؟ سألها .

انفجرت إيميلي ضاحكة وهي تضع يدها على فمها .

- كلا ، قالت ، لثيو ، مستحيل . . .!

- وما أدراني . . . تمتم أنطوان ، وقد ضايقه أن يبدو سؤاله سخيفا إلى هذه الدرجة .

أشهرت خاتمها مرة أخرى .

- جيروم رقيب في القوات البرية . هو الآن في مركز خدمته في كاليدونيا الجديدة لكنه ينتظر نقله إلى فرنسا ، في سبتمبر ، وعندها سنتزوج .

شعر أنطوان بغيرة غريبة ، لا لأن في حياتها رجلا بل لأنه هو

لم يدخل إليها أبدا . حتى في المدرسة في الماضي لم يتواعدا قط . كان يخالجه الإحساس بأنه فوت على نفسه كل الفرص وبأنه ليس من أولئك الذين كانت تجدهم فاتنين ، بل فقط من أولئك الذين لا نعاشرهم إلا لأننا نعرفهم منذ زمن بعيد . وكان ذلك يشعره بالضيق كلما تذكر كم غَشَت الفتاة الصغيرة خيالاته وغذتها في بداية مراهقته . كم كانت مجنونة الأفكار التي رسمها في ذهنه عن شقرتها ، واحمر وجهه .

– وأنت؟ قالت .

– أنا أيضا . . . علي أن أؤدي التربص وأنهي تدرجي كطبيب مساعد وبعد ذلك سنغادر . . . لنتطوع في المهام الإنسانية .

هزت إيميلي برأسها موافقة بخشوع . المهام الإنسانية ، ذلك أمر جيد . كان واضحا من تعابير وجهها أن ذلك كان مصطلحا غير مفهوم ، مجرد كلمة ، لكن جديرا بالاحترام لما يحمله من دلالات أخلاقية . كان حديثهما قد وصل إلى نهايته . ماذا سيقولان الآن؟ بقدر ما كان بينهما من الذكريات ، كانت هنالك أيضا أمور كثيرة لم تُقل . نظرًا إلى الحديقة ، إلى المحتفلين وهم يصرخون ويضحكون ، إلى المشواة وهي تدخن ، وسمعا الموسيقى المنبعثة من المكبرات التي وضعت على طول جدار المنزل الذي كانت ترى فيه ، تحت الملاط الذي أعيد طلاؤه ، الأثر القديم الدال على المستوى الذي بلغه الماء يوم الفيضان .

عاد ثيو بأقداح البلاستيك ، وعاد ثلاثتهم إلى الحديث عن أمور عامة . وفجأة رآهما أنطوان مرة أخرى في ساحة الكنيسة ، مساء قداس عيد الميلاد . وفكر في ذلك العراك الذي اندلع عندما نشر ثيو تلك الإشاعة الخبيثة . . .

شرب جرعة من النبيذ وهو ينظر في الفراغ .

كان دائما يجد نفسه قد عاد إلى نهاية سنة ١٩٩٩ كلما ذهب إلى بوفال . ما حدث في تلك الفترة كان ينتمي إلى حياة أخرى ، حتى بوفال أدارت الصفحة ومضت قدما ، لكن لغز اختفاء ريمي ديسميد لم يتم حله قط ، ولأجل ذلك كان الجمر النائم تحت الرماد ينتظر أقل نفس ليستيقظ . عندما كان يجد نفسه محاطا هكذا بالناس ، كان يحس بالخطر وشيكا ، فكل شيء حوله كان مشبعا بالعلامات وقابلا لتأويلات شتى وباعثا على القلق . . .

- أنطوان . . .!

مرت لحظات قبل أن يتعرف على فالنتين ، لا بد أن وزنها ازداد كيلوغراما كل سنة . استدارت منزعجة إلى ولد يصرخ ، قلت لك توقف! بحركة سريعة من يدها وكأنها كانت تحاول التخلص من دَبُّور مُلحّ . كانت تحمل رضيعا يمضغ حفنة من رقائق البطاطا . وإذ بزوجها ، الرجل الوسيم ذي البنيان المتين والأسنان المهترئة ، يأتي ويحيط منكبيها بذراعيه كما ليؤكد ملكيته لها .

استمر أنطوان في مصافحة الأيدي الممتدة له ، والتسليم على هذا وذاك . كان ثيو قد بقي إلى جانبه كأنه كان يريد أن يقول له شيئا وينتظر أن تسنح له الفرصة لذلك . كانت نظراتهما تلتقي من فوق أكتاف المدعوين إلى أن مال عليه ثيو .

- أنا أيضا ، كلهم يزعجونني . . .

- لا ، ليس الأمر كذلك . . .

أطلق ثيو ضحكة صغيرة .

- دع عنك ذلك . . . إنهم حمقى . . .

انزعج أنطوان من كلام ثيو . هو أيضا كان يشعر بأنه لا ينتمي

لهذا المكان وأنه من طينة أخرى أكثر حداثة ويرى هذه المدينة القديمة جامدةً ضيقةً . كان يكرهها لكنه لم يكن يحتقرها . أما ثيو فلطالما كان متكبرا ، فلا غرو في أنه صار ينظر اليوم إلى بوفال بعين الازدراء . كان مقدما على إطلاق مشروع ستارت آب لم يفهم أنطوان تماما الهدف منه . كان الأمر يتعلق بالأنظمة الخبيرة ووظائف الشبكة . . . كان قاموس ثيو مرصعا بكلمات وعبارات أنكلوسكسونية لم يكن أنطوان يفقه فيها شيئا . واكتفى بأن اتخذ هيئة من اقتنع ، مثل أولئك الذين يجهلون لغة ما وتعبوا من البحث عن معاني الكلمات ، فيوافقون على ما يسمعون . أما إيميلي التي عادت لتقف معهما فلم تكن تستمع لما يقولان . أحاديث الرجال لا تهمها .

ثم افترقوا . راح أنطوان يشرب . أكثر قليلا مما ينبغي له ، كان يعلم ذلك ، خصوصا أنه لم يكن أبدا ممن يتحملون كميات كبيرة من النبيذ .

لقد وعد أمه ، وجاء . ولقد أنذرها أيضا بأنه لن يطيل البقاء ، وحان موعد الرحيل .

من المستحيل أن يحيي الجميع . كان عليه أن يحتال ليخرج دون أن يكدر أحدا . وصب لنفسه شيئا من النبيذ ليستجمع شجاعته واتجه إلى السياج بلامبالاة ، لم يكن أحد ينظر إليه ، ووضع قدحه على طاولة وخرج وأغلق وراءه باب الحديقة ، أف .

- أتغادر؟

انتفض أنطوان .

كانت إيميلي جالسة على الحائط الصغير تدخن سيجارة .

- نعم ، أقصد لا . . .

ضحكت إيميلي ضحكتها الحادة الصافية التي لاحظها أنطوان

قبل قليل . كانت تلك عادتها ، بسبب أو بغير سبب ، تنفجر تلك الضحكة التي كانت ستجعلها تبدو امرأة رائعة لولا أنها كانت تزيد عن الحد ، إلا أن تكررها كان مزعجا . كأن تلك الضحكة كانت تعوض إيميلي عما لم تكن تعرفه من كلمات .

- هل تضحكين من كل شيء؟ قال .

ندم على سؤاله لكن لم يكن يبدو على إيميلي أنها أحست بما فيه من خبث . وأجابت بإيماءة غامضة يمكنها أن تعني أي شيء .

- حسنا ، أنا ذاهب ، قال أنطوان .

- وأنا أيضا . . .

وانطلقا معا .

أشعلت إيميلي سيجارة ثانية امتزجت رائحتها ببرودة الليل وبالعطر الخفيف الذي كانت تتعطر به فصارت زكية . كاد أنطوان أن يستسلم للإغراء ، كما حدث له مرتين أو ثلاث مرات قبل ذلك ، ولم يعجبه ذلك لكنه استسلم . وخف التوتر مع نهاية اليوم ، مخلفا وراءه تعبا شديدا . سيجارة ، لم لا . . .

عادت إيميلي إلى الحديث الذي كانا قد بدآه في وقت سابق من السهرة . واعترفت بحيرتها إزاء مشروع أنطوان . العمل الإنساني . لماذا لا يريد أن يكون طبيبا . . . عاديا؟ أيّ طاقة كانت تلزمه ليجيب على سؤال كهذا . . . وأوجز أنطوان القول :

- طبيب العائلة ، هذا ممل . . .

هزت إيميلي برأسها . ثمة أمر لم تكن تفهمه .

- إن كنت تجد ذلك مملا فلم تدرس الطب؟

- لا ، ليس الطب هو ما أجده مملا ، بل أن أكون طبيب عائلة ، أترين . . .

ووافقته ، لكن شيئا ما في هذه النظرية كان يتجاوز إدراكها . ونظر إليها أنطوان خلسة . يا إلهي ، تلك الوجنتان الناتئتان ، ذاك الفم ، وجذور الشعر ، هناك ، على الرقبة ، ذاك الزغب الأشقر . . . كانت ترتدي صدارا فُكت أزراره الأولى ، فكشفت عن صدر عارم ، وعندما كان أنطوان يتأخر في المشي قليلا ، كان يرى جسدا مذهلا . . .

كانت تتكلم :

– لأنه ، حسنا ، رغم كل شيء ، أن تكون طبيبا . . . لا بد من أنه من الرائع أن تداوي الناس . . .

كان هنالك شيء مؤلم في اكتشاف أن امرأة شابة لذيذة ومثيرة بكل ذلك القدر يمكنها أن تكون بلهاء بكل ذلك القدر أيضا . كان تعبر عن نفسها مستعينة بالعموميات ، وبأفكار تكاد ، إذ تصل إليها مكتملة وجاهزة للاستعمال ، لا تحتاج إلى المرور برأسها . كانت تقفز في حديثها ، دون سبب وبلا تمهيد ، بين مواضيع كلها ترتبط بالقليل الذي كانت تعرفه : سكان بوفال . وبينما راح أنطوان يقطّعها ويقيس ، عن قرب ، درجة الكمال في بعض تفاصيلها (حاجباها ، أذناها ، لقد نجحت هذه الفتاة حتى في أن تجعل من أذنيها فتنة ، كان ذلك مذهلا) ، كانت إيميلي تعود إلى ماضيهما ، إلى طفولتهما ، إلى جيرتهما ، إلى ذكرياتهما . . .

– عندي الكثير من صورنا في المدرسة! وفي مركز الترفيه . . . مع رومان وسيباستيان وليا وكيفين . . . وبولين!

كانت تتحدث عن أشخاص لا يذكرهم أنطوان لكنهم كانوا بالنسبة لها يبدون في غاية الحضور . كأن المدينة وحياتها نفسها لم تكونا إلا في ساحة الاستراحة تلك بعد بضع سنين .

– آه ، تلك الصور ، لا بد لك من أن تراها ، سيتقطع لها قلبك . . .

كان ضحكتها الصغيرة ترن في الليل ، أنثوية ولذيذة ولا تحتمل . ما الذي كان يسليها إلى هذا الحد ، الله وحده يعلم .

بالنسبة لأنطوان ، لم تكن تلك الصور المدرسية تثير ذكريات جميلة بل على العكس من ذلك تماما ، فصورة ريمي ديسميد التي أرقت طفولته كلها قد التقطت في ذلك اليوم . تلك كانت العادة ، في ذلك اليوم يرتبون لك خصلات شعرك ويلبسونك قميصا جديدا ، وتذهب إلى المدرسة كأنك ذاهب إلى الكنيسة في يوم الأحد .

– سأرسل لك بعضا منها ، إن شئتَ!

بدا لها الاقتراح محمسا حتى أنها توقفت عن المشي للحظة . ونظر إليها . إلى وجهها المثلث الجميل ، وعينيها الصافيتين وشفتيها المخمليتين . . .

– أجل ، إن شئتِ . . . ، قال .

وخيَّم الحرج عليهما لبرهة . أغضى أنطوان عينيه ، وتابعا المشي .

من وسط المدينة ، كان لا يزال بإمكانهما سماع أصداء الموسيقى من بيت مسيو لوميرسيي . قرب دار البلدية ، وإذ فرغت جعبته من المواضيع ، ذكر أنطوان شجرة الدلبة التي أطاحت بها العاصفة .

– أجل أجل ، قالت إيميلي ، تلك الدلبة!

تركت بضع لحظات تمر أظلَّت خلالها الدلبة حديثهما بظلها ، ثم تابعت :

- تلك الدلبة نوعا ما كانت قصة بوفال . . .

لم يعلق أنطوان ، ما الذي تريدين قوله . . . وخيم عليهما الصمت من جديد . حرارة يوليو المعتدلة ، والليل ، والنبيذ ، وهذا اللقاء من غير موعد ، وهذه الفتاة الفاتنة ، كل ذلك كان يدفع به دفعا إلى البوح عما في صدره والعودة إلى أسئلة كان قد طرحها على نفسه .

- أية أسئلة؟ قالت .

كان صوتها يشي بسذاجة لا تخفي وراءها شيئا .

- حسنا ، مثلا . . . أنت وثيو . . . ما حدث بينكما . . .

هذه المرة ، لم تؤثر ضحكة إيميلي القصيرة الصافية فيه .

- كنا في الثالثة عشرة!

توقفت في وسط الطريق واستدارت إليه وقد تملكتها الدهشة .

- هذه ليست غيرة ، أم أنها كذلك؟

- أجل .

لم يتمالك نفسه . وندم فورا على ردة فعله تلك التي لم تكن أكثر من حالة مزاجية . فهو في واقع الأمر كان يلوم نفسه أولا على خضوعه الطويل لسحر الفتاة وإغرائها . واليوم يلومها هي لأنها ليست أكثر مما هي عليه .

- كنت مغرما بك . . .

كان ذلك محض إثبات يشوبه الحزن . وتعثرت إيميلي فتمسكت بكم ثوبه ، لكنها أفلتتها فورا ، كأنها فعلت شيئا جعله المقام غير لائق . وأحس أنطوان بأنه أمسك بالجرم المشهود .

- اطمئني ، أنا لا أبوح لك بحبي . . .

- أعلم .

لما وصلا إلى منزلها ، إذ بأنطوان يرى وجه إيميلي مرة أخرى خلف النافذة ، يوم العاصفة الكبيرة .

- بدوت منهكة . . . وبدوت في غاية الجمال أيضا . حقا . . . في غاية الجمال . . .

جعلها هذا الاعتراف المتأخر تبتسم .

دفعت باب السياج وتقدمت إلى داخل الحديقة لتجلس على الأرجوحة فأصدرت صريرا خفيفا . وتبعها أنطوان . كانت الأرجوحة المعلقة أضيق بكثير مما تبدو ، أو ربما كانت تميل قليلا . . . وشعر أنطوان بخصر إيميلي ساخنا رخصا ، وحاول أن يتزحزح لكنه لم يستطع .

دفعت إيميلي برجلها قليلا فتأرجحا . كان هنالك ضوء باهت وأصفر قادم من مصباح الشارع . كل شيء كان صامتا حولهما ، ولم ينبسا ببنت شفة .

وقربتهما حركة الأرجوحة من بعضهما أكثر . عندئذ فعل أنطوان شيئا كان يعلم تماما أنه لا يجدر به فعله : أمسك بيد إيميلي فردت بأن التصقت به .

وتبادلا القبَل . وفشلا في ذلك فشلا ذريعا منذ البداية .

لم يحبب طريقتها في التقبيل لكنه لم يتوقف لأن ذلك في نهاية المطاف لم يكن مهما فهما لم يكونا حبيبين . وبفضل ذلك ، كان كل شيء أسهل .

كانت تلك مغازلة عابرة ، حبا عاديا ، نتيجة السنوات الطويلة التي التقيا فيها دون أن يلمس أحدهما الآخر . صار بإمكانهما اليوم أن يفعلا لأنه لا شيء يجبرهما على ذلك . كانا صديقين منذ الطفولة . كل ما كان بينهما هو قصة طويلة عليهما حلها . ليقفا

على جلية الأمر . لكي لا يبقى في نفسيهما منها شيء . كانت الفتاة التي طالما رغِبَها مختلفة كل الاختلاف عن المرأة الفاتنة والحمقاء التي كان يحتضنها بين ذراعيه ويريدها في هذه اللحظة بشدة .

كان وضعهما غريبا وأدرك كلاهما ذلك لكنهما كانا أيضا يعلمان أن ما بدأ الآن كان سيستمر ويجري إلى أن يصل إلى منتهاه الطبيعي والمتوقع . . .

وبقيا لبرهة ملتصقين ببعضهما ، دون أن يعلما ما الذي عليهما فعله ، ولا يجرؤ أحدهما على النظر إلى الآخر ، ثم طفقا يضحكان . واخترقهما شيء باق من طفولتهما ، انطباع بأنهما نجحا في الاحتيال على الراشدين ، وعلى الحياة .

وقفا لا يعلم أحدهما ما عليه أن يقول للآخر ، على عجلة من أمرهما لأن يفترقا وينتهيا من الأمر كله .

قهقهت إيميلي بضحكتها القصيرة ، وضمت ساقيها . . .

طبعت قبلة سريعة على شفتي أنطوان ومضت . وقبل أن تفتح الباب لتدخل ، أرسلت له قبلة أخرى من أطراف أصابعها .

حتى الفراق كان فاشلا .

لو لم تكن نهاية الطفولة في حياة أنطوان قد حلت عندما عرف الموت ، عندما قتل ريمي ، لكان أرّخ لها يقينا بداية من تلك الليلة .

في طريق عودته نظر إلى هاتفه .

كانت لورا قد اتصلت به أربع مرات دون أن تترك له رسالة . وطلب رقمها لكنه قطع الاتصال بسرعة . أن يكلمها ، أي أن يكذب عليها ، كان ذلك فوق ما يحتمل . كانت نهاية السهرة

كارثية ، ولم يستطع أن يفهم كيف بلغت الأمور ذلك المبلغ . الرغبة ، نعم . أما ما بقي ، الآن ، منها ، من الرغبة ، فحدث ولا حرج . . . كان سيقاتل من أجله .

وعدل عن مكالمة لورا ، سيتذرع لها بأن . . . سيرى ، سيجد شيئا ليقوله .

كانت والدته قد أبقت له على غرفته بعد أن غيرت ورق الجدران والأثاث ، وخزنت المكتب الذي كان يجلس إليه عندما كان تلميذا وكرسيه وسريره القديم وقسما كبيرا مما كان في الغرفة بعناية كبيرة في القبو ، لكن بعض الأشياء نجت بأعجوبة من عملية الإبعاد ، خريطة للعالم ، صورة لزين الدين زيدان ، حقيبة ظهر ، حق للأقلام ، دمية متحول جي آي ميغاترون ، ووسادة عليها علم إنكلترا . كان ذلك اختيارا غريبا لم يستطع أنطوان أبدا أن يجد له تفسيرا .

كان يكره هذا الديكور الذي يذكره بمرحلة من حياته حرص على إبعادها عنه ، لكن ولأنه لم يكن يأتي إلا نادرا ولأن أمه قد أتعبت نفسها في ترتيب الغرفة ، لم يجد في نفسه الشجاعة ولا القدرة على أن يرتب كل شيء في الصناديق ويضعها على قارعة الطريق كما كان يرغب كل مرة .

اهتز الهاتف . لورا من جديد . كانت الساعة تقارب الواحدة صباحا . كان منزعجا في أمسيته تلك ، منزعجا في غرفته تلك ، منزعجا في مكانه ذاك ، في حياته ، ولم يجرؤ على أن يرد .

عندما كف الجهاز عن الدوران حول نفسه ، تنفس أنطوان الصعداء ، وسمع أصواتا قادمة من الشارع . كانت أمه عائدة إلى المنزل ومعها مدام موشوت . ما الذي كان سيحصل لو أنهما فاجأتاه مع إيميلي وهما يتطارحان الغرام على الأرجوحة كالمراهقين؟

صار الوقت متأخرا الآن على الذهاب إلى الفراش والتظاهر بالنوم . جلس إلى الطاولة كأنه كان يعمل . كان لجوؤه إلى حيلة كتلك سخيفا ومهينا ، ولكن أنى له أن يفعل شيئا آخر .

رأت مدام كورتان نور غرفته مضاء فصعدت .

- أنت تعمل لوقت متأخر جدا يا عزيزي ، يجدر بك أن تنام!

الكلمات نفسها منذ سنين ، تكشف عن فخرها بأن لها ابنا مُجِداً ، ابنا يشق طريقه إلى النجاح . اقتربت وفتحت النوافذ لتغلق المصاريع ، وتوقفت إذ تذكرت شيئا ما .

- بالمناسبة ، أتعلم أنهم سيعيدون تهيئة سانت أوستاش؟

شعر أنطوان بفقار ظهره ترتعش .

- كيف ، تهيئة . . . ماذا ، تهيئة . . .؟

كانت مدام كورتان قد عادت إلى النافذة .

- حسنا ، لقد وجدوا الورثة . واشترت البلدية المكان لكي تبني عليه حديقة تسلية للأطفال . سيأتيها الناس من كل الناحية ، كما يقولون ، حسنا يفعلون ، إن صدقوا . . .

أمام كل شيء جديد وكل مبادرة ، كان رد فعل مدام كورتان الأول هو الشك العميق .

- يقولون إنهم أجروا الدراسات وأن العائلات سيعجبها الأمر وأنه سيوفر مناصب عمل . سنرى . هيا ، عليك أن تنام الآن ، أنطوان .

- من أخبرك بذلك؟ عن الحديقة . . .

- ثمة إعلان ملصق في دار البلدية منذ شهرين ، ولكن ما العمل ، أنت دائما غائب . . . ولذلك تفوتك حتما أشياء كثيرة . . .

في صباح اليوم التالي ، انطلق أنطوان ليركض باكرا جدا ، ولم يكن قد أغمض له جفن في ليلته تلك .

عند دار البلدية ، في واجهة الإعلانات الرسمية ، قرأ الإعلان عن بناء حديقة سانت أوستاش التي كانت مخططاتها متاحة لمن يريد الاطلاع عليها في دار البلدية .

أعمال التمهيد ستنطلق في شهر أيلول .

١٦

كانت العطلة عذابا لا ينتهي . قلقا لا يحتمل . لقد اجتاز الامتحانات بنجاح لكنه خرج منها مجهدا منهكا . ولم يرد أن يعود إلى بوفال أبدا . كان ذلك جنونا منه ، فلا مناص له ، إن عاجلا أم آجلا ، من أن يزور أمه لكنه تذرع بسفر طويل له مع لورا في فصل الصيف لم يدم على الحقيقة أكثر من أسبوعين إذ لم يكن معهما ما يكفي من المال . كان نشر صورة حديثة لريمي ديسميد صدمة له ، لكن الإعلان عن بدأ الأشغال في سانت أوستاش كان نذيرا بكارثة لم يكن من السهل عليه أن يعرف متى ستحل بساحته وكيف . وعاد بخياله لينغمس من جديد في أحلك فترات حياته ، فترة لخصت لوحدها طفولته كلها . سيجدون الجثة ، ويفتح التحقيق من جديد ، وتستأنف الاستجوابات . وكان هو من بين آخر من شاهدوا الطفل حيا ، فيستدعونه لا محالة . سيسقط المحققون احتمال الاختطاف ويركزون جهودهم على المدينة وعلى سكانها وعلى الأقارب وعلى الجيران ، وسيقودهم البحث حتما إليه ، ويقضى الأمر . وبعد اثني عشر عاما لاحقته خلالها قصته وأنهكته ، لن يقوى على الكذب .

خلال ذلك الصيف ، فكر أنطوان في الهرب . بحث عن وجهة لا تسلم المجرمين لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أنه لن يهرب ، فليست له القدرة ولا الذهنية اللازمتان ليعيش فارا خارج بلده

(حتى الكلمة نفسها كانت تناقض شخصيته!) . وبدت له حياته صغيرة ، ضيقة ، وهو لم يكن رجل عصابات طمَّاحا ، صلفا ومنظما ، بل مجرد قاتل عادي حالفه الحظ حتى الآن .

قرر أن يبقى وينتظر وغرق في استسلام كالح وقلِق .

الآن وقد كبر ، لم يعد السجن يخيفه . ما كان يرعبه هو الزوبعة التي ستثور : المحاكمة والجرائد وقنوات التلفزيون ووسائل الإعلام إذ تغزو بوفال وتلاحق أمه ، وعناوين الصحف والمقابلات التي ستجريها مع المختصين وتعليقات كتاب الحوليات ، والصور وتصريحات الجيران . . . كان يتخيل إيميلي وهي تتباله أمام عدسة الكاميرا ولن تتباهى بما فعلاه معا . سيحاول رئيس البلدية أن يبرئ مدينته ولكن عبثا يفعل : فبوفال ضمت الضحية والقاتل معا لا تفصل بينهما إلا عشرات الأمتار . سيُبكون مدام ديسميد ليصوروها ، وستكون فالنتين معها ، تحمل ولدا ، وبخشوع شديد سيسألونه السؤال ، السؤال الأبدي : كيف يتحول المرء إلى قاتل في الثانية عشرة من عمره؟ سيحب الجميع الخبر لأن كل واحد منهم سيجد نفسه طبيعيا على وجه عجيب مقارنة به . وستؤرخ قنوات التلفزيون للحالات المشهورة وترجع في الزمن إلى أبعد ما يقدمه أرشيف الشرطة . ستطهر جريمة بوفال شعبا بأكمله من نوازع الجريمة لديه ، وسيستمتع كل من أراد بتحميل الإثم لفرد واحد وبرؤيته يعاقب لأجل فِعل قد يرتكبه أي شخص .

سيرقى في دقائق معدودات إلى مصاف خيرة المجرمين . سيكف عن الوجود .

لن يعود شخصا . سيصبح أنطوان كورتان علامة .

كان ذهنه يغلي ويقلب صورا تنذر بالشر ، ثم نزل أنطوان فجأة ،

إذ تذكر أنه لم يكلم لورا ولم يستمع لها ولم يجب على أي من أسئلتها .

كانا يسكنان شقة صغيرة في حي بعيد عن الجامعة لكن قريبٍ من المستشفى الجامعي .

بقدر ما كانا يمارسان الجنس ويبالغان في ممارسته خلال السنوات الثلاث الماضية ، صارت لقاءاتهما منذ عودة أنطوان في جوان الماضي متباعدة . كانت لورا تستثيره من حين لآخر ، وكان أنطوان يستسلم عندئذ لألعاب لا تتطلب منه استدعاء رجولته . كانت لورا تنتظر أياما أفضل بشيء من القلق وما يكفي من الإحباط . لم تعرف أنطوان سعيدا أبدا ، كان رجلا غامضا صموتا وقورا وقلقا ، وذلك تحديدا هو ما حببها فيه . كان رجلا جميلا لكن المرح كان يمسخه . كان وقاره يمنح من حوله الانطباع بصلابته ، وهو انطباع سرعان ما تكذبه نوبات قلق مفاجئة . في هذه المرحلة ، بلغ إحساسه بالضيق أبعادا مقلقة . وتخيلت لورا أشياء ضمن حدود إدراكها ، مفترضة أنه يواجه بعض المشاكل العائلية . أكان يعيد التفكير في مهنته كطبيب؟ وإذ بها تصل إلى ذلك الاحتمال الذي كان ممكنا لا سيما وأنه كان يبدو مستحيلا : كانت لأنطوان عشيقة .

كان على لورا أن تبذل جهدا لتغار ، ولم تكن تنجح في ذلك . وإذ يئست ، قبلت بالتفسير النفسي ، وهو بالمحصلة أكثر التفسيرات طمأنة بالنسبة لطبيب : إن لم نستطع حل المشكلة ، فلعل جُزيئة كيميائية ، إن أُحسن اختيارها ، أن يكون لها أثر طيب .

كانت لورا على وشك مفاتحته بالأمر عندما اكتشفت صدفة أن أنطوان يتناول يوميا جرعة كبيرة من المهدئات .

انقضى يوليو وبعده أغسطس .

طبعا قلقت مدام كورتان أن لم يعد أنطوان لزيارتها منذ منتصف يونيو . كانت تعُدُّ زياراته بدقة شديدة وتحفظ غيبا تواريخها خلال السنوات الخمس الماضية . الغريب في الأمر هو أنها لم تكلمه قط في الأمر لتعاتبه واكتفت بالانتباه إلى أنه لم يكن يأتي كثيرا ، وكأن بُعدَه عنها كان نتيجة اتفاق ضمني مؤسف لكنه ضروري .

عندما كان ذهنه يصطدم ، عدة مرات في الأسبوع ، بخبر بدأ الأشغال قريبا في حديقة التسلية في سانت أوستاش ، كان أنطوان يتذكر ذلك اليوم الأخير الذي أمضاه في بوفال ، وتلك الساعات الرهيبة الضائعة ، وصورة ريمي مراهقا وتلك السهرة التي لم يكن ليذهب إليها أبدا لولا إلحاح أمه عليه ، وتلك اللحظات الحمقاء مع إيميلي .

كيف أفضت الأمور معها إلى ما أفضت إليه ، ظل ذلك لغزا . لقد أرادها لجاذبيتها وباسم استحواذ صبياني ، وكان في ذلك قليل من الرغبة وكثير من الانتقام . ولكن ماذا عنها؟ ما الذي أرادته؟ هو أم شيء آخر؟ هل كان الأمر مجرد انقياد منها؟ كلا ، فلقد بدت على العكس من ذلك فاعلة لا منفعلة . كان يتذكر لسانها الكلي الوجود ، ويدها ، وكيف استدارت وتقوست وحدقت في عينيه وهما يتطارحان الغرام .

من بعيد ، كان دائما مترددا بشأن هذه المرأة . كان يستعيد جمالَها -الذي يحتل ، في سلم المعايير لديها ، المرتبة العليا- ومعه تفاهةَ حديثها الباعثةَ على اليأس ، ويتذكر حماسها الصبياني وهي تتحدث عن صورها المدرسية القديمة .

ولا شك في أن الأفكار التي تراودها كانت تلازمها طويلا مهما كانت بسيطة ، ففي منتصف سبتمبر أخبرته مدام كورتان على الهاتف أن إيميلي قد جاءتها تطلب عنوانه .

- لترسل لك شيئا ، لم تقل ما هو .

قصة الصور تلك ، في الحقيقة ، كانت قد راودته هو أيضا .

رأى نفسه يفتح الظرف ويطلع على الصور ، وفي أحلامه غطى وجهَه وجهُ ريمي وهو في السادسة من عمره ثم وهو في السابعة عشرة ، وكانت نتيجة ذلك الانصهار شيئا يشبه صورا تجمدت على صفائح جنائزية لأطفال ماتوا صغارا .

تذكر خزانة آل ديسميد ومكان الإطار الغائب الذي بدا وكأنه ينتظر إحقاق الحق .

وقطع على نفسه وعدا بأن يرمي الصور حالما تصله دون حتى أن يفتح الظرف . لم يكن مجبرا على أن يبرر أفعاله ، فهو لم يكد يلتق بإيميلي في بوفال خلال السنين الماضية وبما أنه ، لحسن حظه ، لم يعد يذهب إليها كثيرا . . .

بداية تشرين الثاني .

وإذ بإيميلي تظهر ، لا على شكل ظرف بريدي فيه صور فوتوغرافية ، بل إن ما حصل هو أن إيميلي ذاتها ، بلحمها وشحمها ، هي من جاءت ، ترتدي فستانا مطبوعا سخيفا بلا مراء ، لكنه لم يستطع أن يخفي جمالها . متبرجةً متعطرةً مسرَّحةَ الشعر متألقةً كأنها ذاهبة إلى حفل زفاف دقَّت جرس الباب . وفتحت لورا ، صباح الخير ، إسمي إيميلي ، أود أن أقابل أنطوان .

بالنسبة للورا كان ذلك اكتشافا .

لم يكن ضروريا أن تنطق الزائرة بكلمة أخرى . استدارت لورا ،

أنطوان ، الزيارة لك! وأمسكت بسترتها وانتعلت حذاءها . وأراد أنطوان ، الذي بهته ذلك الحضور غير المتوقع ، أن يتصرف ، انتظري ، كان الأوان قد فات ، وكانت لورا قد خرجت ، ووقع خطواتها العصبية يُسمع على الدرج . أطل أنطوان ، وصرخ باسمها مناديا ورأى يدها تنزل سريعا على الدرابزين حتى الطابق الأرضي . وتساءل إلى أين ذهبت وتملكته نوبة غيرة مفاجئة ، واستدار فتذكر سبب كل ذلك .

دخل الشقة وقد بلغ الغضب به كل مبلغ .

لم يكن يبدو على إيميلي الإحراج مطلقا .

- هل لي أن أجلس؟ سألت .

ولتشرح سبب سؤالها ، أضافت :

- أنا حبلى .

امتقع أنطوان . وتحدثت إيميلي مليا عن «أمسيتهما» ، وكان ذلك مشهدا شاقا . وصفت لقاءً مؤثرا ، ورغبةً ولدت بينهما فجأة ، رغبةً من وسط الحشا ، وفيما يخصها هي «متعةً لم تذق مثلها في حياتها» . . . لم يكن لها أن تتحدث بالنيابة عنه ، أما أنا ، ولا أريد أن أفيض في الحديث عن نفسي ، فلم أنم لحظة واحدة منذ ذلك اليوم ، لقد وقعت في حبك من جديد حالما رأيتك ، وأنا واثقة من أنني كنت دائما مجنونة بحبك حتى وإن لم أكن أريد الاعتراف بذلك . . . إلخ . ولم يصدق أنطوان ما سمعته أذناه . كان الموقف سخيفا إلى درجة أنه لم يكن ليمنع نفسه من الضحك لولا أنه أدرك عواقب مجيئها وفهم أن وراء الأكمة ما وراءها . . .

- الأمر أن . . .

توقف ليتخير كلماته . كان الطبيب فيه يصرخ بكلام لم يكن

الرجل يريد أن يقوله . وكان عليه أن يغصب نفسه غصبا ليسأل :

– ولكن ما قال لك أن . . . أنك حبلى مني أنا ، أعني ، أنت تفهمين ما أقصد قوله . . .

كانت إيميلي قد هيأت ردها ، فوضعت حقيبتها عند قدميها وساقا على ساق .

– لا يمكنني أن أكون حبلى من حبيبي . . . أقصد من جيروم فهو غائب منذ أربعة أشهر .

– لكن قد تكونين حبلى من رجل آخر!

– أجل طبعا ، انعتني بالعاهرة ، هيا افعل!

كانت إيميلي غاضبة مما سمعته ، وكان واضحا أنها لم تتوقع أبدا أن يُطرح عليها سؤال كهذا . وكان على أنطوان أن يعتذر :

– لم يكن هذا ما . . .

توقف ليجري الحساب وأذهلته النتيجة : ثلاثة عشر أسبوعا قد مضت على ما كانت إيميلي تصر على تسميته «أمسيتنا» .

بكل بساطة ، لم يعد الإجهاض القانوني ممكنا الآن .

صار كل شيء واضحا : لقد انتظرت انقضاء الأجل القانوني لكي تأتي وتكلمه!

– نعم ، يا أنطوان ، هذا ما فعلته! لا أريد أن أجهض ، هذا لا يجوز . أولا ، والداي . . .

– أنا لا آبه لوالديك!

– أما أنا فآبه لهما ، والحبلى هي أنا!

وتساءل أنطوان كم ستطلب ثمنا لإنهاء الأمر . هل سيكون بمقدوره تحمل النفقات؟

– وأنت والد الطفل ، أضافت وهي تخفض بصرها كما رأتهم

يفعلون في التلفزيون .

– ولكن ، ماذا تريدين يا إيميلي؟

– لقد أخبرت حبيبي . . . أقصد ، جيروم ، بانفصالي عنه . لم أقل له الحقيقة كلها ، فلا أريده أن يظن بنا سوءا ، لكن هذا لا يهم .

– ماذا تريدين؟

قطبت حاجبيها الشقراوين الجميلين وقد دَهَشَها أن يطرح أنطوان سؤالا بمثل هذا الغباء .

– أريد لهذا الطفل أن يعيش! أليس هذه طبيعة الأمور؟ أريده أن يحظى بكل الفرص التي يستحقها!

أغمض عينيه .

– أنطوان ، يجب أن نتزوج ، والداي . . .

قفز أنطوان من كرسيه مهتاجا ، وصرخ :

– مستحيل!

وأخافها ، فانكمشت في جلستها . كان لا بد من إقناعها بسخف فكرة كهذه . وحاول أن يستعيد رباطة جأشه . قرب كرسيه وجلس أمامها وأمسك بيديها .

– إيميلي ، هذا مستحيل ، أنا لست مغرما بك ، فلا يمكنني أن أتزوجك!

كان لا بد من إيجاد حجج تستطيع فهمها :

– لن أكون قادرا على إسعادك ، هل تفهمين ما أقول؟

لم تقنع الحجة إيميلي ، فهي لم تفهم جيدا ما يعنيه . والواقع أنها ظلت طوال شهرين تمني نفسها بأن أنطوان «سيجعل الوضع قانونيا» ، ولم تهيئ نفسها لأي احتمال آخر .

- يمكننا أن نوقف هذا الحمل ، قال أنطوان بإصرار ، سأتحمل التكاليف ، اطمئني . سأجد المال ، سأعثر على عيادة جيدة ، لا تخشي شيئا ، أؤكد لك ذلك ، سأهتم بكل شيء ، لكن عليك أن تتخلصي من الجنين لأنني لن أتزوجك .

- تطلب مني أن أرتكب جريمة!

وضعت إيميلي قبضة يدها بعصبية بين نهديها .

وصمتا مليا .

- هل فعلت ذلك عمدا؟ قال ببرود .

- ولم سأفعل ذلك؟ أعني ، أنىّ لي أن . . .

كانت إيميلي تحاول جاهدة أن تعبر عن فكرة بسيطة . لم تكن تعلم من أين تبدأ لكنها بدت صادقة .

تحطم أنطوان على صخرة البديهية : كان ذلك حادثا . إيميلي نفسها كانت تفضل أن تتزوج حبيبها الرقيب ، لكن جديدا جد في الأمر وحصل بينهما ما حصل في «أمسيتهما» تلك ، ومهما تكن تلك الأمسية فاشلة ، فما حصل قد حصل ، وإيميلي حبلى وأنطوان هو من أحبلها .

قرر أن يقاوم ، فوقف .

- أنا آسف يا إيميلي ، لكن لا . أنا لا أريد هذا الطفل ، أنا لا أريدك ، ولا أريد أيا من هذا . سأجد المال ، لكني لا أريد أطفالا ، أبدا ، هذا يفوق طاقتي على الاحتمال ، ولا أظنك ستفهمين .

كانت المرأة على وشك البكاء . وتراءت له إيميلي تعود إلى بيتها وهي تحمل معها خبرا كهذا . لم يكن يتصور أنها جاءت دون أن تهيء لمقابلته مع والديها ، مع أمها المقدسة . كان يرى من هنا قبيلة موشوت مكتملة ، الأب ، متيبسا كشمعة من شموع الفصح ،

والأم متلفعة بشالها من صوف الموهير . . . كيف ظنوا أن أنطوان سيستسلم ، ويتزوج ابنتهم ، كان ذلك أمرا لا يصدق .

لم تنح الأمور المنحى الذي توقعته إيميلي ، فقامت واقتربت من أنطوان .

وضعت يديها على رقبته وقبل أن يجد الوقت ليفعل أي شيء ، ألصقت شفتيها بشفتيه في انتظار أن يفعل أنطوان شيئا (لا شك في أنها هي نفسها كانت تتساءل عن جدوى هذا الطقس الذي يتبعه كل الرجال ، لكنها -رغم أنها لم تكن تشعر بأي شيء- كانت تمارسه مؤمنة بل بحماس شديد ، لكن بلا تصور ولا مشروع ولا موهبة) .

أشاح أنطوان بوجهه وفك ذراعي إيميلي وتراجع بهدوء .

شعرت الفتاة بالصد وأجهشت بالبكاء . كانت وهي تبكي جميلة جمالا مذهلا ارتبك له أنطوان . لكنه في ذهنه كان قد أوثق نفسه بالسارية لكي لا يضعف ويتبع السيرينات[٣] ، وكان يكفيه أن يتخيل للحظة واحدة شكل الحياة التي كانت تعرضها عليه لكي يستجمع قوة لا قِبَلَ لأحد بها . واكتفى بأن وضع يده على كتفها .

---

(٣) إشارة إلى الأوديسة . يروي هوميروس قصة السيرينات ، الحوريات ، وهن إلاهات بحرية نصفهن نساء ونصفهن طيور يجلسن على مدخل مضيق ميسينا في صقلية ويخلبن البحارة بغنائهن الساحر فيذهبون إليهن وتتحطم مراكبهم على صخور المضيق . عند مروره بهن أثناء سفره الطويل ، يربط عوليس بطل الأوديسة نفسه بسارية مركبه ويسد أذنيه لكي لا يسمع غناءهن ولا يوجه مركبه إليهن . وصارت العبارة تشير إلى كل ما هو مغرٍ وزائف أو خطير - المترجم

قبل دقائق ، كان يكرهها . الآن صار يرأف لحالها .

خطرت بباله فكرة سريعة ، من غير آل موشوت كان يعلم؟ لم يكن يفكر في نفسه ، فإلى بوفال هو لن يعود أبدا ، بل كان يفكر في أمه . كان الأمر برمته مؤسفا .

– تتخلى عنا . . .؟ قالت إيميلي .

كانت فعلا تجد سهولة كبيرة في التلفظ بأغرب العبارات . من أين كانت تأتي بها . . .؟

وتمخطت بصخب .

– لا أملك لك شيئا يا إيميلي ، أنا آسف . سأهتم بكل شيء : سأجد عيادة لائقة وسأتحمل التكاليف كلها ولن يعلم أحد شيئا ، كوني واثقة من ذلك . لا زلت شابة وأنا على يقين من أنك وحبيبَك جيروم ستنجبان أطفالا كثرا ، معه ذلك ممكن ، أما معي فلا . عليك أن تحزمي أمرك سريعا ، يا إيميلي . . . وإلا فلن يعود بوسعي أن أساعدك .

كانت إيميلي تهز رأسها موافقة . لقد جاءت وفي ذهنها فكرة محددة لكن الأمور لم تسر كما اشتهت لها أن تسير . لقد قالت الجمل التي هيأتها ولم تكن ترى أمامها شيئا آخر لتفعله ، فقامت وقد أُسقِط في يدها .

للحظة تصور أنطوان أنها كانت تجد بعض المتعة في الوقوف موقفا يتيح لها أن تؤدي دورا : كانت تعيسة ، وفي حياتها حدث مأساوي ، وكانت بطلة ، كما في التلفزيون .

تركت على الطاولة ظرفا كبيرا . الصور المدرسية . يا إلهي ، لقد أحضرتها معها . . .

ما الذي ظنته ، أنهما سيجلسان على السرير يستعرضانها

ضاحكين متراصين؟ أن أنطوان ، مفتونا مسحورا عاشقا ، سيضع يده على بطنها ويسألها هل يتحرك؟ وصعقته كل تلك السذاجة .

بعد ذهابها ، بقي يفكر مليا فيما قد ستؤول إليه المسألة . وبرقت له بارقة أمل : كان حتى تلك اللحظة يخرج بمعجزة سالما من كل المواقف وكل الفخاخ التي وضعتها الحياة على طريقه . عندما ظن أنهم على وشك أن يجدوا ريمي ، لم يعثر عليه أحد ، وعندما اعتقد جازما أنهم سيعتقلونه ، نفذ من بين أيديهم ، وإيميلي ، رغم حملها ، ارتدت خائبة على عقبيها . . . وإذَا هو يؤمن بأن هذا الحظ ربما سيستمر . ولأول مرة منذ مدة مديدة راح يذكر الحظ . وانزاح عن كاهله عبء ثقيل .

انتظر لورا بهدوء لم يكن يتوقعه .

ودخلت . أي فرق بينهما وبين المرأة التي كانت هنا آنفا .

- لو هوَّيت المكان ، أنا أشم رائحة العواهر!

قالت ذلك وأمسكت بحقيبتها وراحت تضع فيها بلا نظام كل ما وجدته أمامها .

ابتسم أنطوان . لم يجد يوما في نفسه أبدا كل تلك القوة وتلك الثقة . أمسكها من منكبيها وأرغمها على أن تستدير إليه ودون أن يمحو عن شفتيه ابتسامته قال :

- حسنا ، لقد أقمت علاقة لمرة واحدة رفيقة من رفيقات الدراسة لا تعني لي شيئا . واليوم جاءت تلح علي فطردتها . أحبك .

كان أنطوان مقنعا لأن كل كلامه كان حقا ليس فيه من الكذب شيء إلا ما أغفله ولم يذكره ، لكن ذلك لم يكن مهما في لحظته .

صار فجأة لا يقهر ، تنبعث منه قوة أذهلت لورا نفسها . كانت تحمل بيديها ثوبا والابتسامة على شفتي أنطوان لا تزايلها . وأجبرها على أن تتزحزح قليلا .

بحركة حازمة دقيقة نضا عنها كنزتها ، وهبت نفحة رغبة فذهبت بكل شيء . . .

وأغمي عليها .

١٧

كتبت إيميلي الرسائل . في الأسبوع مرتين أو ثلاث مرات . كانت لورا تضعها على الطاولة وهي تبتسم بنفاد صبر واضح . وقرأها أنطوان ، في البداية على الأقل . رسائل لا ترابط فيها ولا منطق وإن كان فحواها دائما هو : «لا تتخلّ عني وعن طفلنا!» . كانت إيميلي تكتب بخط كخط الأطفال (فبدل النقاط على الحروف كانت ترسم دوائر صغيرة) وترصف قوالب جاهزة يفترض فيها أن تصف حالة اليأس التي أوصلها إليها أنطوان . وتتابعت العبارات من هذا القبيل ، فمن «لا تتخل عن فلذة كبدك» ، إلى «النار التي أضرمتها فيَّ» ، إلى «موجة الرغبة» التي «غمرَتْها» ، إلى تلك الأمسية التي خرجت منها «بمتعة إلى حد الإنهاك» . . . سطحية مؤلمة وتشف بوضوح عن الطينة التي جبلت منها تلك المرأة .

كانت تلك الرسائل بلهاء لكن حيرتها كانت حقيقية لا كذب فيها . وإذ حرَّم عليها الإجهاض تدين والديها (وربما تدينها هي أيضا) ، كانت ستصبح ما يسميانه فتاة أما ، تربي طفلا بمفردها . . . وفكر في حياتها القادمة . أحيانا لم تكن الأفكار التي تراوده مبهجة جدا : كان يقول لنفسه إنه لن يعجزها أن تتزوج من جديد وإن كانت أما لطفل ، فهي امرأة جميلة . أما أبواها فسيستمتعان حتما بحمل صليب كهذا ، وسيحملانه والكرامة بادية عليهما كما

يليق بمن يقدم نفسه قربانا ، وفي النهاية سيكون الجميع سعداء .

بداية أكتوبر ، والطقس ممطر في كل أنحاء فرنسا . ركض أنطوان ليلحق بالترامواي وزلت قدمه وكاد أن يقع لولا أنه تدارك نفسه .

بعد أيام من ذلك ، لم يحالف أمَّه مثلُ حظه ، فدهستها سيارة وهي تعبر الشارع الرئيسي . سمع صوت مخنوق وشوهدت مدام كورتان ترتفع من على الأرض وتهوي على الرصيف بعنف . وأدخلت المستشفى وتم إخطار ابنها بما حصل .

كان أنطوان ولورا في الفراش (لم يكفا عن ذلك منذ شهر . إن للخوف من الفراق أحيانا لأثرا لا يستهان به . . .) .

رد أنطوان على الاتصال ، وتجمدت ملامحه بينما بقيت لورا تنتظر . لم تشرح الممرضة التفاصيل ، لكن الأفضل هو أن تأتي بأسرع وقت ممكن . . .

هز أنطوان النبأ فركب أول قطار إلى سانت هيلار ووصلها في وقت متأخر . حتى ولو جئت في خارج أوقات الزيارة ، قالت الممرضة ، فسندخلك . ركب سيارة أجرة واستُقبل بحذر شديد بلغ حدا دفعه إلى أن يسلك طريقا مختصرا مجديا ، أنا طبيب .

ولم ينخدع زميله بذلك . . من كان يقف أمامه كان أحد أقرباء المريض لا أكثر ولا أقل .

- أصيبت والدتك برضٍّ في الجمجمة . لم يكشف الفحص السريري عن أي شذوذ ، وصور السكانر مطمئنة لكن الغيبوبة عميقة . . . هذا كل ما يمكنني قوله الآن .

لم يقترح عليه أن يريه الصور واكتفى بإخباره بالحد الأدنى . لقد فعل ما كان أنطوان سيفعله بالضبط لو كان في مكانه .

كانت مدام كورتان نائمة . اقترب وجلس وأمسك يدها وانخرط في البكاء .

في أثناء ذلك ، تكفلت لورا بحجز غرفة له .

لوتيل دي سانتر .

وصل إليها ليلا . كانت تنبعث من البهو رائحة الورنيش . لم يكن قد شم هذه الرائحة منذ الطفولة ، كأنها رائحة خاصة بالمنطقة . ورق جدران مشجر ، ستائر من الكريتون ، غطاء سرير بضفيرة . . . لقد أحسنت لورا الاختيار : كانت الغرفة تشبه والدته .

استلقى بثيابه ونام . وظن أنه استيقظ ، لا مجال لمعرفة كم هي الساعة ، وكانت أمه هناك ، في الغرفة ، جالسة على طرف سريره .

«أنطوان ، أبك شيء . . .؟ قالت . تنام بثيابك ، ودون أن تخلع حذاءك . . . هذا ليس من عادتك . . . إن كنت مريضا لماذا لا تخبرني؟»

انتفض واستحم فاهتزت الأنابيب وأيقظت الفندق كله بلا شك .

نادى لورا وأخرجها من نعاس عميق ، أنا أحبك ، قالت ، وهي لا تزال نائمة ، أحبك ، أنا هنا . سرح أنطوان نظره في الغرفة ، ولم يكن يريد إلا شيئا واحدا ، أن يتكوم بجانبها ، أن يتنشق رائحة حبها ، أن يشعر بحرارتها ، أن يذوب فيها ، أن يزول ، وهي تقول له ، أحبك ، بصوت وقور ، حاضر وبعيد ، وراح أنطوان يبكي ثم غفا من جديد ، لكنه خرج مع ساعات الفجر الأولى وتوجه مشيا إلى المستشفى .

وتساءل إن كان عليه أن يخطر أباه . لم يكن لذلك معنى ،

فوالداه كانا مطلقين منذ زمن بعيد . سيشعر أبوه بأن عليه أن يأتي ليبدو قريبا من ابنه ، وسيكون ذلك كذبا ، أو ربما سيرفض لأن هذه المرأة لم تعد تعني له شيئا منذ أكثر من عشرين سنة . لم يعد يحيط بأنطوان إلا لورا . ما أعجب ما صارت حياته مختزلة في هذا العدد القليل من الناس .

لم تتقدم حالة مدام كورتان بشراك نعل منذ الليلة السابقة .

قرأ أنطوان الرسوم التخطيطية والمنحنيات وراجع ضبط الآلات بشكل تلقائي . بعد ذلك ، وعندما استنفد كل ما في جعبته من حيل ، عاد ليجلس بجانب أمه .

لقد جاء همٌّ ليحل محل همّ . الآن فقط ، في عتمة الغرفة وبسبب خموله الإجباري هذا ، أدرك ذلك : لم يكن بينه وبين بوفال إلا كيلومترات قليلة .

لم يكن بوسع أحد التنبؤ بما ستفضي إليه الأمور . هل ستموت مدام كورتان؟ هل سيستخرجون جثة ريمي أخيرا؟ وإن فعلوا ، فهل سيكون ذلك قبل موت مدام كورتان أم بعده؟

لم يعد الشعور بالذنب أو الخوف من أن يُفحمه المحققون هو ما ينهك أنطوان ، بل الانتظار . والشك . والإحساس بأنه طالما لم يبتعد من هنا ، فأي شيء قد يحصل وحياته قد تتحطم في ثوان . إن هي الآن إلا أشهر معدودات . وكما في سباقات المسافات الطويلة ، كانت آخر الكيلومترات تبدو له أقساها .

في بداية الظهيرة ، دخل الدكتور ديولافوا كما تعود أن يدخل ، باحتشام وهدوء . كان دائما يبدو وكأنه أخطأ الغرفة وأنه سيخرج حالما يدرك خطأه ، وهو ما كان بلا شك سيفعله عندما رأى أنطوان في الغرفة . وأخفى ارتباكه بلحظة التردد التي تفضح دائما من

وجدوا أنفسهم على حين غرة في موقف لم يتوقعوه .

لم يكن أنطوان قد رآه منذ سنين . لقد شاخ ، لكن وجهه الذي صار الآن شبيها بالرقوق ظل كما كان دائما ، جامدا غامضا . هل كان يتابع حياته الوحيدة الغامضة ، وينظف عيادته كما يفعل كل أحد مرتديا بذلته الرياضية المهلهلة؟

تصافح الرجلان وجلسا جنبا إلى جنب ينظران إلى مدام كورتان ، ثم فهما أن صمتهما كان أشبه بخشوع جنائزي .

- في أي سنة من الدراسة أنت؟ قال الطبيب عندئذ .

- الأخيرة . . .

- آه ، بهذه السرعة . . .

أعاد صوت الدكتور ديولافوا أنطوان إلى تلك اللحظات الغريبة منذ زمن بعيد . «لو أني أدخلتك المستشفى . . . لسارت الأمور على نحو مختلف ، لعلك تفهم . . .» .

كان ذلك صحيحا . لو أن أنطوان أدخل المستشفى ذاك اليوم بسبب محاولة انتحار لفتح تحقيق في الأمر ولتم استجوابه ، ولاعترف بقتل ربمي ولانتهى أمره . هذا هو ما حماه الدكتور ديولافوا منه .

ما الذي كان يعلمه بالضبط؟ لا شيء معينا . لكن أن يحاول ولد في الثانية عشرة من عمره الانتحار بعيد ساعات من اختفاء ابن الجيران بينما المدينة كلها لا تفكر إلا بذلك ، ذلك أمر كان له بلا شك معنى رهيب ويَشِي بضمير يتعذب أشد العذاب . هنا ، هكذا ، الآن ، لا أدري كيف . . . ولأجل ذلك جئت .

«إن حصل شيء ، يمكنك أن تطلبني ، أن تناديني . . .» ، قال له وقتها .

لم يأت ذلك اليوم أبدا . الغريب أن الدكتور ديولافوا عاد ليظهر وأنطوان أقرب إلى الهاوية أكثر من أي وقت مضى .

الآن سيحصل «شيء» ليس للدكتور ديولافوا أدنى فكرة عنه ، لأن جثة ريمي سيعثر عليها قريبا جدا .

t.me/ktabpdf

نظر أنطوان إلى وجه أمه الشاحب .

هي أيضا فهمت «شيئا» ، لكنها لم ترد أن تسبر أغواره . لقد أدركت بحدسها أن ابنها ، دون شك ، كان متورطا بما حصل ، وحاولت أن تحميه من ذلك الشر المجهول القريب ، واستطاع ذلك البناء المؤسس على الأكاذيب والجهل والصمت أن يصمد ما يقرب من اثني عشر عاما .

أنطوان الآن جالس في غرفة المستشفى تلك مع الشاهدين الوحيدين على مأساته ، مع بالغين فضّلا ، في حينه وكلٌ على طريقته ، أن يصمتا .

كانت الدائرة في طريقها إلى أن تغلق .

لا بد من أن ناقلات الحطب في طريقها ، في هذه اللحظة بالذات ، إلى أحراج سانت أوستاش ، والجرافات تحمل الأشجار وتقلبها . ولعل بقايا ريمي ديسميد ، إذ دفنت تحت سلاسل العربات المزنجرة ، لم تتبعثر كلها بعد ، وستنتصب فجأة ، كتمثال الآمِر[٤] ،

---

(٤) إشارة إلى شخصية الآمر ، في مسرحية موليير دوم جوان . الآمر هو شخص يقتله النبيل العابث دوم جوان ويقوم على قبره يسخر منه ويدعو تمثاله إلى العشاء ، وأثناء العشاء يعاقب تمثالُ الآمر ، الذي يرمز إلى القدرة الإلهية ، دوم جوان على كل ما اقترف من آثام . المترجم .

لتطالب بإحقاق الحق أخيرا وبأن يواجَه أنطوان كورتان أخيرا بجريمته ويُعتقل ويُحاكم ويُدان .

نطقت مدام كورتان ببعض الكلمات بصوت لا يكاد يسمع .

كان الرجلان ، كل من على جهته من السرير ، ينظران إليها ويستمعان لما تصدره من أصوات لم يسعهما إلا أن يحاولا فهمَها ، عبثا طبعا .

– وماذا ستفعل بعد ذلك؟ قال الطبيب .

ما الذي يعنيه؟ بحث أنطوان ثم استطاع أن يربط السؤال بحديثهما الذي انقطع .

– آه ، سأعمل في المجال الإنساني . لقد اجتزت المقابلات بنجاح . . . المفروض أن . . .

صمت الدكتور ديولافوا مليا يتأمل .

– نعم ، تريد أن ترحل . . .

رفع رأسه فجأة ، وحدق بأنطوان كمن اكتشف شيئا على حين غرة .

– ما أضيق الأرض هنا ، أليس كذلك!

أراد أنطوان أن يعترض .

– بلى ، بلى ، قال الطبيب ، هو كذلك . أنا أفهم ، أتعلم . . . أعني . . .

وغرق في تفكير عميق انتهى به إلى أن قام وذهب كما جاء ، بخطوات كخطوات القطط صامتةٍ غامضةٍ ، مكتفيا بإيماءة من رأسه وبجملة مدهشة وغريبة :

– أنا أكن لك الكثير من الود يا أنطوان .

لم يصمد حلم أنطوان بألا يعود أبدا إلى بوفال أمام يوم كذلك

اليوم : في نهاية الظهيرة ، طلبت إدارة المستشفى عددا من الوثائق التي تخص مدام كورتان ومن الحاجيات ، وكان على أنطوان أن يحضرها ، فلم يكن ثمة أحد غيره .

كانت فكرة العودة إلى بوفال تخنقه ، فمنزل أمه مجاور لمنزل آل موشوت ولم يكن من الصعب عليه أن يتخيل الموقف الصعب الذي سيقفه لو علمت إميلي بوجوده .

وحاول أن يماطل متذرعا بشتى الذرائع ، سينتظر إلى أن تغتسل أمه ، سيذهب بعد مجيء الطبيب . . . الخ .

تلقائيا فتح التلفزيون على نشرة الأخبار المسائية .

كانت كل القنوات الإخبارية المحلية تعرض بلا توقف خبر الصبيحة الرئيسي : لقد اكتشفت لتوها ، في حديقة سانت أوستاش ، عظام طفل .

التزم الدرك الحذر ، فلم يزد على تأكيد الخبر وامتنع عن أي تخمين بشأن هوية الضحية ، لكن الصحفيين ، شأنهم في ذلك شأن كل السكان ، لم ينصرف ذهنهم إلا إلى شيء واحد : لم تكن تلك إلا جثة ريمي ديسميد ، وإلا لمن ستكون؟

كان أنطوان يتوقع خبرا كهذا . بل إنه أمضى أكثر من عشر سنين وهو يتوقعه ، لكنه في الحقيقة ، كما هي الحال مع خبر موت قريب لنا ، لم يكن مستعدا له حقا .

توالت التقارير الصحفية ، وجعلت مشاكل اللحظة تبدو ثانوية . وعرضت صور الورشة المنقطعة ، والشاحنات المتوقفة والجرافات الصامتة ، وتقنيي الشرطة القضائية بألبستهم البيضاء منهمكين بالعمل حول السيارات التي راحت أضواءها الدوارة تمسح الحواجز التي وضعت لتؤمن المنطقة والتي وقف عندها رجال

ببـدلات وبزات منهـمكين بالعـمل ، لكن كل ذلك لم يكن إلا الإطار العام . ما اجتذب وسائل الإعلام حقا كان ريمي ديسميد . وما من شك في أن الصورة التي استخدمت فيما مضى في بلاغ البحث صارت أكثر الصور مشاهدة وانتشارا في فرنسا في الساعات الأولى التي تلت اكتشاف الجثة . وهرع الصحفيون إلى منزل مدام ديسميد وضربوا الحصار على المبنى . وإن كانوا لم ينجحوا بعد في الحديث إليها ، فهم لم يجدوا أدنى مشقة في جمع التعليقات من الجيران وأصحاب المحلات والمنتخبين المحليين والعابرين وموزع البريد والمعلمين وأولياء التلاميذ . كانوا كلهم متأثرين إلى حد البكاء ، وكانت المدينة تتهيأ بتلذذ ، لتتحد في الألم .

وأذهب الدمارُ الذي أحدثته تلك التغطية الإعلامية كلَّ ما حاول أنطوان أن يتخيله بعقلانية هباءً منثورًا . هيا ، قال لنفسه ، فكِّر ، ماذا سيحدث الآن . . .

في تلك اللحظة قررت لورا أن تخابره . ولم يجد أنطوان في نفسه الشجاعة ليجيب .

بينما كانت مدام كورتان تهذي بصوت أعلى فأعلى ، كان هو يتابع طوال اليوم تطور الأحداث ، والحديث عن تحليل البقايا التي أخرجت من الأرض ، وهوية الضحية المحتملة (عرضت صورة ريمي وهو يبتسم ، بخصلته الملساء والفيل الأزرق على قميصه) ، والانتظار لمعرفة أسباب موته وما يكون قد عاناه من عذاب قبل الموت أو بعده . وأشارت الأخبار إلى إعادة فتح التحقيق الذي طالما أكد الدرك والقضاء والوزارة أنه لم يُحفظ أبدا . وكان الجميع ينتظرون بأمل وخشوع اكتشاف دليل يسمح ببدء تحقيقات جديدة وباعتقال المذنب أخيرا .

تملك أنطوان الغثيانُ وهو يرى امرأة شابة ، تبدي وقارا يليق بالظرف وتقف أمام مايكروفون القناة الإخبارية التي تعمل بها ، في ساحة مبنى البلدية ، يحيط بها جمع من السكان يجللهم الهدوء والخشوع ، دون أن يمنعهم ذلك من محاولة رؤية أنفسهم على الشاشة .

«حسب ما يقوله المحققون ، لا تزال فرضية الاختطاف غير مستبعدة ، لكن الاحتمال الذي يبدو أقرب إلى الصحة هو أن الولد لم ينقل إلى مكان بعيد وأنه ظل محبوسا داخل حدود البلدية . إن ثبت ذلك ، فسينصب التحقيق على المدينة نفسها . . . على بوفال ، حيث نحن الآن .»

لقد عادت القصة إلى نقطة الانطلاق ، والحية تزحف الآن إلى منزل مدام كورتان . كان أنطوان معرضا لاحتمال أن يستجوب من جديد . سيسألون الطفل الذي كانه يوما هل تذكّر أي شيء . كلُّ كذبة سيكذبها ستكون بمثابة سندان يحمله ، ولم يعد يشعر بأنه قادر على ذلك .

كان سيكفي أن يدق دركي بابه لكي يمد له أنطوان معصميه دون أن ينبس ببنت شفة .

ونسي أنه كان عليه أن يذهب إلى بوفال ليحضر الوثائق . ورغم أن مدام كورتان راحت تهذي أكثر فأكثر ، استطاع أنطوان ، الذي هده التعب ، أن ينام ، جالسا على كرسيه ، وعندما انتبه من نومه كانت الساعة قد جاوزت الخامسة صباحا . وبدت سحنته ، في مرآة الحمام الصغير ، كسحنة شخص خرج من السجن لتوه . غادر المستشفى ومشى حتى المحطة حيث وجد سيارات الأجرة تنتظر وصول أول قطار من باريس وركب إلى بوفال ، آملا أن يصل إلى منزل أمه دون أن يلتقي أحدا . وهو ما حصل فعلا .

عندما نزل من سيارة الأجرة ، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يلقي نظرة خاطفة على المنزل المجاور . ومصادفةً أو حدساً منها ، ورغم أن السادسة صباحا لم تكن قد بلغت بعد ، كانت مدام موشوت تقف خلف النافذة ، ثابتة ، خارج الزمن ، وتتبعه بنظراتها ، كان جمالها الشبحي أشبه بالكابوس . وشعر بأنه رأى عنكبوتا على طرف الخيط ، تتأهب للوثوب . . .

وأسرع بالدخول لمنزل أمه .

كان بيت مدام كورتان نظيفا نظافة بدائية . الوثائق في الدرج نفسه حيث وُضعت منذ بدء الخليقة . كان نومه على ذلك الكرسي في المستشفى عميقا ومضطربا ، وكان يشعر بجسمه متيبسا تيبسا رهيبا . واستلقى على الأريكة ونام ثم أفاق في منتصف الصبيحة منهكا ، محبطا ، غائما بعض الشيء ، كما هي الحال بعد السُّكر أو غداة حفلة عيد الميلاد ، والأمران سيان غالبا .

استعمل آلة أمه القديمة ليحضر لنفسه بعض القهوة ووجد طعمها ورائحتها تماما كما عهدهما طوال طفولته .

ولم يغالب رغبته في متابعة الأخبار وأشعل التلفاز . كان وجه المدعي العام يملأ الشاشة ويتحدث عن «هوية الضحية التي عُثِرَ على هيكلها العظمي البارحة» :

«هو فعلا الطفل ريمي ديسميد الذي اختفى يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٩٩»

أفلت الكوبُ من يد أنطوان وانكسر على البساط . بحركة لاإرادية غريبة نظر إلى النافذة كأنه كان يتوقع أن يرى سكان بوفال كلهم مجتمعين أمام منزل آل ديسميد القديم وأن يسمع عبر الزجاج أصواتهم تطالب بالانتقام .

«لم تبلغ فيضانات ١٩٩٩ مرتفعات سانت أوستاش . ولم تتضرر بقايا الولد كثيرا على مر السنين ، إذ حمتها الأشجار الكثيرة التي هوت في تلك الفترة ، وسمح ذلك لخبراء الشرطة القضائية بإجراء التحاليل» .

نظر أنطوان إلى شظايا الكوب المهشم ، كانت القهوة المهرَقَة قد أحدثت بقعة كبيرة داكنة راحت تمتد كبقعة نبيذ على سماط . . .

«لقد ضُرب الطفل ضربة شديدة على صدغه الأيمن هي التي أدت إلى مقتله بلا شك . ولا يزال الوقت مبكرا طبعا لنحدد إن كان قد تعرض لأشكال أخرى من العنف» .

رغم أنه لا شيء مما كان يحدث كان منافيا للمنطق ، إلا أن أنطوان أرعبته السرعة التي راحت تقترب بها التحقيقات نحوه . وإن أضفنا لكل ذلك تعب اليومين الماضيين . . .

تحامل ، وبصعوبة بالغة جمع الأوراق التي كان عليه أن يأخذها إلى المستشفى وطلب سيارة أجرة من فوزيلبير وخرج لينتظرها . كان بحاجة لبعض الهواء .

وإذ بمراسل إحدى الإذاعات ينقض عليه عند باب الحديقة ولا يدع له فرصة ليعود أدراجه .

- أنت تسكن المنزل المجاور للمنزل الذي كان يسكنه ريمي ديسميد عندما اختفى ، هل كنت تعرفه عن كثب ، أيَّ طفل كان؟

تمتم أنطوان ببضع كلمات طُلِب منه أن يكررها :

- أوه . . . ، كان جاري . . .

كان أنطوان مخيبا للأمل : ألا يفهم أن ما يجب هو جواب شخصي أكثر وعاطفي أكثر؟ كان المراسل منزعجا حقا .

- أجل ، طبعا ، ولكن . . . أيَّ طفلٍ كان؟

ووصلت سيارة الأجرة فركبها أنطوان بسرعة .

من النافذة رأى المراسل يستدير إلى شقراء شابة . كانت تلك إيميلي التي خرجت من المنزل وقد التفعت بشال والدتها . كان وزنها قد ازداد . وهي تجيب على أسئلة المراسل ، شيعت بنظرة حاقدة سيارةَ الأجرة التي راحت تبتعد .

كانت مدام كورتان لا تزال بعد غارقة في هذيان متقطع ومعذَّب . تتقلب في فراشها وتحرك رأسها في كل الاتجاهات وتكرر كلمات لا رابط بينها ، اسمَي (أنطوان! كريستيان!) ، وهما ابنها وطليقها ، وأسماء أخرى (أندريه!) لا بد من أنها تعود لفترة طفولتها .

بقي أنطوان إلى جانبها طوال اليوم يمسح جبينها . وخرج عندما جاء وقت غسلها ثم عاد ليجلس منهكا مريضا معذبا .

كان هذيان مدام كورتان يبدو وكأنه دور يتكرر . رأسها يأتي بالحركات نفسها وشفتاها تنطقان بالكلمات نفسها : «أنطوان! أندريه!» . وما جعل البقاء إلى جانبها أصعب هو أن جهاز التلفزيون المثبت في مكان أعلى من الجدار ما فتئ يعرض التقارير الصحفية عن «قضية ريمي ديسميد» .

واستُخرجت صور الأرشيف . لم يكن قد مضى عليها أكثر من اثني عشر عاما ، لكنها بدت قديمة جدا : بوفال وشجرةُ الدلب في ساحة دار البلدية ، منزلُ الصغير ريمي ومسيو ديسميد مستشيطا غضبا في وجه الصحفيين ومحاولا ذبَّهم كأنهم سحابة منتنة ، ومسيو وايزر ، رئيسُ البلدية ، منهمكا في التنظيم صبيحة الحملة ، وتوجهُ فرق البحث صوب غابة البلدية ، ثم صورُ العاصفةِ والطوفانِ

والسيارات المدمرة والأشجار المقطوعة والسكان المنهكين المحبطين . . .

طوال اليوم ، تركت لورا على جوال أنطوان رسائل كان فحواها جميعا شيئاً واحداً : أحبك .

في حدود السادسة زوالا خرجت مدام كورتان من غيبوبتها أخيرا . ونادى أنطوان الممرضات ، وسرعان ما امتلأ المكان جلبة كأنها التعبئة للحرب ، وحملنها ، بينما انتظر أنطوان في الرواق والقلق يتآكله . ومرّت أكثر من ساعة قبل أن تأتي ممرضة لتؤكد له أن أمه استعادت وعيها وأنها ستبقى تحت المراقبة لمدة ليست بالقصيرة وأنه لا داعي للانتظار هنا وأنهم سيعلمونه بأي تطور سيطرأ على حالتها .

ومرَّ ليأخذ حاجياته . كان يعتزم العودة إلى الفندق لينام ، ينام . . .

كان جهاز التلفزيون لا يزال مشعلا بعد . ورفع أنطوان رأسه إلى الشاشة :

«لقد وجد خبراء الشرطة القضائية في عين المكان شعرة يبدو أنها ليست للضحية . ويستحيل طبعا أن نستنتج من ذلك أنها للقاتل ، وإن كان الاحتمال كبيرا جدا . . . تحليل الحمض النووي جار الآن ، وعندما ستعرف النتائج ، وهو ما سيحصل قريبا جدا ، فستقارن بمعطيات الحمض النووي المحصاة في البطاقة الوطنية للبصمات الوراثية . وإن وجدنا تطابقا ما ، فسيكون صاحبُه مطالبا بتفسير وجود شعرة منه قرب جثة الطفل المختفي . . .» .

١٨

قبيل منتصف الليل ، كان أنطوان مستلقيا على سريره في غرفة الفندق عندما سمع وقع خطوات في الرواق ، ودقّ أحد بابه . ودون أن تنتظر ، دخلت لورا ، ووضعت حقيبتها ورمت سترتها . وقبل أن ينطق أنطوان بأي حرف ، كانت لورا قد استلقت فوقه ووضعت رأسها على رقبته . كانت تلهث كمن ركض . طوقها أنطوان بذراعيه ، ولم يستطع أن يحدد على وجه الدقة أيَّ أثر أحدثه فيه هذا الحضور المفاجئ .

في ظروف أخرى ، لكان قَلّبها بلمح البصر ، لكن في ليلة كتلك . . .

كان صعبا عليه تخيل ردة فعل لورا عندما ستعلم أيَّ رجل هو على الحقيقة . بالنسبة لوالدته كان الأمر مختلفا ، فهي كانت تعلم شيئا ما منذ البداية . لورا ستفارقه ، أما أمه فستفارق الحياة . وبعد أن ظلت مستلقية فوقه مليا ، نضت لورا عنها ثيابها وخلعت عنه ثيابه كما لو كان طفلا ، ورفعت الشراشف ليدخلا تحتها معا ، وتكومت بجانبه ملتصقة به ونامت .

كان أنطوان منهكا ، لكن النعاس لم يقاربه . كانت لورا تتنفس بعمق وهدوء . وآلمته تلك الثقة ، فراح يبكي بهدوء شديد .

دون أن تفتح عينيها ، دون أن تتحرك ، مررت لورا إصبعا على خده لتمسك بدمعة وأبقت يدها هناك .

وما لبث أن نام ، وعندما استيقظ كانت ساعته تشير إلى التاسعة والنصف صباحا ، وكانت لورا قد رحلت بعد أن كتبت على هامش ورقة مزقتها من مجلة ، أحبك .

ومر يومان راحت مدام كورتان تتحسن خلالهما ساعة بعد ساعة . لم يكن الشحوب والتعب قد زايلاها بعد ، ولم تكن تأكل إلا النزر اليسير ، لكن كلامها لم يعد مفككا إلا من حين لآخر ، وبدأت تستعيد شعورها بالزمن والمكان وتوازنَها أيضا ، وبعد أن أجري لها تصوير بالأشعة ، سُمح لها بالمغادرة .

حرصا منها ، بلا شك ، على أن تثبت أنها «بكامل قواها العقلية» ، أصرت مدام كورتان إصرارا على أن توضب حقيبتها بنفسها . بين الفينة والأخرى ، كلما اختل توازنها قليلا ، كانت تتكئ بطرف أصبعها على زاوية المنضدة أو على السرير .

واكتفى أنطوان بمناولتها الملابس بينما كانت هي تثنيها وتكدسها بعناية شديدة ، لكن أنظارهما ظلت مسمرة على شاشة التلفاز التي لم تكن تعرض إلا مستجدات «قضية ريمي ديسميد» .

وعرف أنطوان المراسلة الشابة التي رآها أمام مقر بلدية بوفال أياما قبل ذلك .

«لقد تكلم الحمض النووي إذًا وصارت الشرطة تعرف أكثر عن هوية صاحب الشعرة التي وجدت قرب جثة الطفل ريمي ديسميد . يبدو أنه ذكر ، من العرق الأبيض . وإن كان مستحيلا معرفة طوله ، فالأكيد هو أن له عينين بنيتين وشعرا فاتحا . هذا الوصف ينطبق طبعا على عدد كبير من الأشخاص ولا يتيح للمحققين أن يركبوا صورة حقيقية لهذا الشخص .»

كان على أنطوان أن يسمع الخبر مرة أخرى ليستنبط منه

النتيجة التي لم يكن يجرؤ بعد على تصديقها : كان بحوزة الشرطة حمض نووي ، حمضه هو على الأغلب ، لكنه لم يسجل أبدا عند الشرطة ، وطالما بقي الأمر على ما هو عليه فاحتمال أن يدان بجريمة قتل ريمي ديسميد يكاد يكون منعدما . . .

كان من المستبعد أن يعاد فتح التحقيق ، ثم ، أيٌّ اتجاه سيسلكه المحققون . . .

بعد أكثر من عشر سنين ، عادت قضية ريمي ديسميد لترسم بضع دوائر على سطح الماء قبل أن تختفي من جديد .

هل ستعود حياة أنطوان إلى مجراها؟

- حسنا ، مدام كورتان ، كنا نتمنى أن تحتفلي معنا بعيد الميلاد!

لا شك في أن الممرضة ، وهي امرأة سمراء قصيرة ذات عينين براقتين ، كانت تمازح كل الخارجين من المستشفى بالمزحة نفسها وتتوقع لها النجاح نفسه دائما ، لكنها صادفت هذه المرة شخصين متسمرين في مكانيهما ، وقد ابتلعتهما شاشة التلفزيون ، فنظرت إليها هي أيضا .

كانت الكاميرا تصور متجر فوزيلييير الكبير ، وعلى وجه التحديد الباب الجانبي المخصص للموظفين والذي خرج منه مسيو كوفالسكي يحيط به دركيان .

«يبقى المشتبه به الوحيد في هذه القضية مسيو كوفالسكي ، الذي كان يعمل فيما مضى جزارا في مارمونت والذي أطلق سراحه لغياب الأدلة . ولا شك في أن المحققين سيضغطون على هذا الشاهد الوحيد ليحصلوا منه على عينة تمكنهم من مقارنة حمضه النووي بذلك الذي وجد قرب جثة الطفل المسكين .»

صارت حركات مدام كورتان أكثر حدة . كان تجد صعوبة في إخفاء الغضب الذي عهده أنطوان منها كلما جاء ذكر رب عملها ، ذاك الشعور بأن الرجل خدعها ، رغم أنها منذ زمن غير بعيد رسمت له في أذهان الناس صورة الرجل البخيل الجشع . ولا شك في أنها كانت تشعر بكل النقمة والسخط اللذين نشعر بهما عندما نمر ، دون علم منا ، بشخص ثم يتبين بعد ذلك أنه منحرف ومخادع ، بل متوحش .

كانت تلك المرة الثانية التي يشهد فيها أنطوان اعتقاله والمرة الثانية التي يخالجه فيه إحساس غامض ، ليس فيه من الخجل إلا القليل ، بمدى ما سيشعر به من راحة إن حصل خطأ قضائي ما . لن يحصل شيء من ذلك طبعا هذه المرة ، فلن يكذب الحمض النووي كما قد يفعل شاهد ما ، لكن الأمل بأن يدان مسيو كوفالسكي عوضا عنه عاد ليخطر بباله من جديد . ولم يكن أنطوان قد رآه منذ سنين عديدة . هو أيضا شاخ كثيرا وابيضّ شعر رأسه وصار وجهه الهزيل يبدو أكثر نحولا وكان يمشي بخطوات ثقيلة وذراعين متأرجحين .

كان اعتقاله سنة ١٩٩٩ قد أصاب سمعة تجارته في مقتل ، وراحت قِصابته تخسر عاما بعد عام فاضطر إلى أن يبيعها ليعمل رئيسا لقسم القِصابة في متجر فوزيلبير الكبير .

سيطلق سراح مسيو كوفالسكي بعد ساعات ، بعد يوم أو يومين على الأكثر ، وربما سيكون ذلك آخر ما سيطرأ من تطورات على هذه القضية التي أصبحت الآن بذلك مجرد قضية أخرى تضاف إلى أرشيف الشرطة . وأحس أنطوان بصدره ينشرح مع كل لحظة تمر ، وتوالت الصور في ذهنه بلا توقف ، لورا ، وإتمامهما

الدراسة ، وسفرهما إلى الخارج . . .

عادت مدام كورتان إلى منزلها («في سيارة أجرة . . . لو أننا ركبنا الحافلة . . .») ، وهوَّت المنزل («كان بإمكانك أن تفعل ذلك يا أنطوان!») ، ووضعت قائمة المشتريات («انتبه ، بالنسبة للبسكويت ، اشتر هوديبير ، إن لم تجدها لا تشتر شيئا!») . . .

ما لم يكن سهلا على أنطوان تحمله ، لن يعود مجبرا على تحمله عما قريب ، لكنه كان الآن يتلقى ملاحظات أمه بطيبة قلب من فرط سعادته وارتياحه لرؤيتها تعود إلى البيت . «لم أصب بأذى» ، قالت لمعارفها الذين هاتفوها . كان خبر عودتها قد طاف ببوفال من أقصاها إلى أقصاها .

حاول أنطوان أن يؤخر ما أَمكنَه لحظةَ ذهابه إلى المدينة واعتراضِ كل أولئك الناس له ليستفسروا منه عن أحوال والدته . وإذاً ، هل عادت بلانش؟ حسنا ، هذا جيد ، فلشَدَّ ما خفنا ، أتعلم ، أنا لم أكن هناك ، لكنهم رووا لي ما حصل ، والقفزةَ التي قفزتها ، أجل بالتأكيد لقد خفنا كثيرا . . . كان يتساءل أيضا بقلق : هل أذاع آل موشوت نكبة ابنتهم ، كلا طبعا ، لا أحد يعلم . لا إيميلي ولا والداها أرادوا أن يواجهوا وضعا كانوا سينظرون إليه بعين الإدانة لو أن أحدا غيرهم هو من كان يواجهه .

وأومأ له ثيو إيماءة خفيفة من بعيد وهو يصعد درج البلدية بعجلة . وصادف أيضا مادموازيل ، كما كان الناس ينادون ابنة الأستاذ فالينير . كانت تغادر المصحة التي أدخلت إليها عندما توفي أبوها مرتين في الأسبوع لتقوم بجولتها في المدينة تدفع كرسيها ممرضة . كانت تجلس عند رصيف مقهى باريس . في الصيف تتناول المثلجات بينما تمسح الممرضة ما يسيل منها على ذقنها ، وفي

الشتاء يقدمون لها كوب شوكولا ساخنة لتشربه رشفة رشفة . ولم يعد كرسيها المتحرك تلك المركبة العجيبة المبرقشة ، لكن الشابة لم تتغير . لم يزل جسدها تلك الجفنة الجافة ، ولم تزل تُرى على بطانيتها الشطرنجية يداها البيضاوان المتجمدتان ، ولم يزل وجهها إلى اليوم عينين متأججتين في قناع جِنازي .

انتظر أنطوان بصبر دوره في كل محل ذهب إليه ووجد الناس فيه يتبادلون الأخبار دون اهتمام للوقت .

كان يحس بغبطة خفيفة تملؤه كان مردها إلى حد كبير طبعا هو تعب الأيام الأخيرة ، لكنها أيضا كانت تترجم شعورا متزايدا باستعادة الثقة . لو لم تحدث تلك القصة مع إيميلي موشوت . . . حتى تلك القصة ، كان يعتبرها بمثابة عقبة صغيرة إن قورنت بالمخاطر التي تراكمت عليه . . . ماذا ستكلفه ، مبلغا من المال ، ما أهون ذلك . . .

لم يكن يجرؤ بعد على تصديق ذلك .

سينهي دراسته عما قريب ويبتعد عن كل هذا ويبني حياته من جديد .

١٩

كما كان متوقعا ، أفرج عن مسيو كوفالسكي بعد يومين ، وبُرِّئت ساحته ، لكنه ظل متهما عند سكان بوفال الذين لم يكونوا يعدلون عن رأيهم بسهولة . لا دخان دون نار ، تلك هي الحال دائما .

راح القلق يزايل أنطوان شيئا فشيئا وخمد معه اهتمامُ أمه بالأنباء المحلية ، فلم تعد تحدق بشاشة التلفاز بلهفة كما كانت تفعل في الأيام الأخيرة في المستشفى . بالكاد ألقت بالا ، على خلاف أنطوان ، لتصريح المدعي العام وهو يجيب على أسئلة الصحفيين من مقر محكمة المقاطعة :

«لا ، ليس واردا أن نخضع كل سكان بوفال لتحليل الحمض النووي . هذا أمر يتجاوز بكثير مواردنا المالية ، لكن الأهم من ذلك هو أنه لن يكون قائما على أي قرائن موثوقة . فلا سبب وجيها يدفعنا إلى الاعتقاد أن صاحب الحمض النووي الذي نبحث عنه (هذا إن كان هو فعلا قاتل الطفل ريمي ديسميد!) هو من سكان بوفال وليس من مدينة مجاورة أو حتى مجرد عابر سبيل . . . «

– أرأيت! غمغمت مدام كورتان ، كما لو أن القاضي كان يثبت نظرية طالما دافعت عنها .

بزوال هذه العقبة الأخيرة ، صار بإمكان أنطوان الآن أن يغادر : لقد استعادت مدام كورتان قواها ، وحان الوقت ليعود إلى منزله ويستأنف استعداده للامتحانات .

- بمثل هذه السرعة؟ سألت مدام كورتان بتراخ .

ارتدت أمه ، التي أصرت على أن تحضر «وليمة صغيرة» (كانت تصف بالصغير كل ما له أهمية في نظرها) ، معطفها لتذهب إلى وسط المدينة ، حيث ستظهر أمام أصحاب المحلات بمظهر الناجية بمعجزة ، مع مسحة تواضع كاذبة يضحك منها أنطوان .

جمع حاجياته . ولم يشأ أن يهاتف لورا ، كان يريد أن يفاجئها بمجيئه كما فعلت هي .

أثناء الغداء سمحت مدام كورتان لنفسها بقليل من النبيذ . وتناولا طعامهما دون أن يتحدثا كثيرا ، كانا مندهشين لوجودهما هناك معا ، في تلك الظروف غير المتوقعة والتي لشد ما بدت عواقبها ، قبل يومين فقط ، غير مضمونة .

ثم نظرت مدام كورتان إلى ساعتها وهي تغالب التثاؤب .

- لا يزال أمامك بعض الوقت ، قال لها أنطوان .

صعدت لتنام قليلا قبل أن يذهب .

وعجَّ البيت بالصمت .

ثم رن جرس الباب ، ففتح أنطوان .

كان ذلك مسيو موشوت .

لم يتبادل الرجلان التحية ولو بحركة . كانا كلاهما يشعر بالحرج لوقوفه هذا الموقف غير اللائق . وأدرك أنطوان أنه لم يكن قد سبق له أن تحدث مباشرة مع والد إيميلي .

تنحى ودعاه إلى الدخول .

كان مسيو موشوت رجلا فارعَ الطول ، قصيرَ الشعر كالعسكريين ، شامخَ الأنف . وجعله كلُّ ذلك ، إضافة إلى رغبتِه

الدائمة في الظهور بوجه لائق وهيئته المتزمتة ، شبيهاً إلى حد ما بإمبراطور روماني . أو بمدرس من القرن الماضي ، وهو الذي كان يضع يديه وراء ظهره لكي ينفخ صدره ويرفع ذقنه .

كان أنطوان متضايقا ، وهو الذي لم يكن راغبا أبدا بتحمل درس في الأخلاق يلقى عليه . لم تكن المسألة برمتها إلا خطأ . وإن كان آل موشوت مصرين إصرارا على أن يولد طفل إيميلي ، فما حيلة أنطوان؟ لم يكن يشعر بالذنب إطلاقا لكنه أدرك بوضوح ، من هيئة مسيو موشوت الحازمة بل المتهددة ، أنه لن يتخلص من ورطته بأيسر المؤن : لقد جاء ليطالبه بالمال ، ولا شك في أن التوقعات بشأن ما يكسبه الطبيب كانت كبيرة .

ضم أنطوان قبضتيه . سيحاولون استغلال الموقف وهو لم يتحرَّ كما يجب ليعرف حقوقه . . .

– أنطوان . . . ، قال مسيو موشوت ، ابنتي رضخت لغوايتك ، لإلحاحك . . .

– لم أغتصبها!

أدرك أنطوان بحدسه أن السلوك العدواني المتحرر من أي شعور بالذنب هو أنجع الطرق ، فلم يكن بالذي تنطلي عليه الحيلة .

– ليس هذا ما قلته! قال مسيو موشوت محتجا .

– هذا ما كان ينقصني . لقد اقترحت على إيميلي حلا اختارت أن ترفضه . هي حرة في ما تختار لكنها وحدها المسؤولة عن تبعات اختيارها .

كان مسيو موشوت مذهولا مصدوما .

– أنت لا تعني . . .

كان يختنق ، ولا يجد ما يقول . . .

وتساءل أنطوان هل أخبرت إيميلي أباها عن فكرة الإجهاض التي عرضها عليها أم أنه اكتشفها الآن .

- أجل ، قال أنطوان مؤكدا ، هذا بالضبط ما أعنيه . . . لا يزال الأمر ممكنا . أجل ، لم يبق الكثير من الوقت ، لكن الأمر لا يزال ممكنا .

- الحياة مقدسة يا أنطوان! الله يريد أن . . .

- لا تزعجني بهذا الكلام!

كأنه تلقى صفعة لتوه . عبثا كان يحاول التشبه بأباطرة روما ، هو ذا يتقهقر بسرعة ، مؤكدا لأنطوان أنه كان محقا في اتخاذه موقف الهجوم .

أثار صراخ أنطوان فضول مدام كورتان ، وسُمعت خطواتها على الدرج .

- أنطوان؟ قالت وهي تصل إلى آخر درجة .

لم يستدر إليها . وتراءى لمدام كورتان ، إذ أطلت برأسها ، المنظرُ الغريب ، منظر رجلين متواجهين منذرين بالشر مستعدين لحسم الأمور بينهما . . . فعادت إلى غرفتها على رؤوس أصابعها . أما مسيو موشوت الغارق في سخطه ونقمته فلم ينتبه حتى لوجودها .

- ولكن . . . ، لقد جللت إيميلي بالعار!

صار الآن يتحدث بنبرة خفيضة ، وينطق بوضوح كل حرف ليؤكد أنه لم يكن قادرا على أن يصدق ما كان يقوله أنطوان لعِظَمه .

- أوه ، أردف أنطوان ليرد له الصاع صاعين ، أما عن «العار» كما تقول ، فهي لم تنتظرني ، أؤكد لك ذلك .

هذه المرة صارت دهشة مسيو موشوت غيظا :

مكتبة

- أنت تهين ابنتي!

لم يبدأ حديثهما كما كان ينبغي له أن يبدأ ولم يكن أنطوان سعيدا بالإفادة من تفوق سهل كهذا ، لكنه لم يكن ينوي أن يلقي سلاحه فعزم على أن يمضي قدما :

- لابنتك أن تفعل بجسدها ما تشاء ، هذا أمر لا يعنيني ، لكنني لا . . .

- كانت مخطوبة!

- حسنا ، أجل ، لكن هذا لم يمنعها من مضاجعتي .

كان على أنطوان أن يتخلص من ورطته مهما كلفه ذلك والأحرى به ، مع محاور مثل مسيو موشوت ، أن يكون واضحا حاسما .

- مسيو موشوت ، أنا أفهم حيرتك ، لكن ابنتك بصراحة ليست غِرَّة . وإذاً فهي حبلى من رجل ما ، لا مراء في هذا ، لكنني لست مسؤولا عن ذلك أكثر من . . . أكثر من الآخرين .

- كنت أعلم أنك رجل حقير . . .

- وإذاً ، في المرة القادمة أخبر ابنتك أن تختار عشاقها بعناية أكبر .

هز مسيو موشوت برأسه ، حسنا ، حسنا ، حسنا . . .

- بما أنك ترى الأمور بهذه الطريقة . . .

وأخرج من وراء ظهره صحيفة وأشهرها كمذبَّة . كانت تلك صحيفة المقاطعة . ولم يستطع أنطوان أن يعرف إن كان ذلك عدد اليوم .

- بتنا نعلم . . . صار اليوم ممكنا إجراء الاختبارات!

- ماذا . . .؟

امتقع وجه أنطوان .

وأدرك مسيو موشوت أنه يسير في الاتجاه الصحيح .

- سأتقدم بشكوى ضدك . . .

ولاح الخطر لعيني أنطوان ، لكنه لم يستطع أن يدرك عواقبه وتبعاته على حياته برمتها .

- سأقاضيك وأجبرك على الخضوع لتحليل وراثي سيثبت بما لا شك فيه أنك والد الطفل الذي تحمله ابنتي!

صعق أنطوان وفغر فاه دهشة ، غيرَ قادرٍ على تقدير الموقف تقديرا هادئا .

هذا الأحمق يقول أشياء لا يدرك عواقبها .

- اغرُب عن وجهي ، قال أنطوان بصوت مبحوح .

- لا يزال في يدك ، قال مسيو موشوت ، أن تختار طريق الشرف بدلا من طريق العار لك ولإيميلي ، فاعلم أنه لا شيء سيجعلني أعدل عما عزمت عليه! سأذهب إلى المحكمة ، وسأصر على التحليل وستكون مجبرا ، شئت أم أبيت ، على أن تتزوج ابنتي وتعترف بأبوتك لهذا الطفل!

واستدار على عقبيه كجندي وخرج وصفق الباب .

أحس أنطوان بحاجته إلى أن يتكئ على شيء فتشبث بإطار الباب . لا بد من حل ما .

صعد الدرج بسرعة ، ودخل غرفته وأغلق بابه عليه وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا .

هل سيجبر على الزواج من إيميلي موشوت؟

أشعره هذا الاحتمال بالغثيان . وأين سيسكنان ، لن تقبل إيميلي أبدا بالعيش خارج البلد وبالابتعاد عن والديها .

وعلى كل حال ، أيّ قيمة ستكون لملفه عند منظمة إنسانية عندما سيصبح أبا لطفل عمره عام أو عامان؟

أحكم عليه إذا بأن يبقى في بوفال؟

كان ذلك أمرا لا يحتمل .

حاول أنطوان أن يتخيل الوضع بشكل ملموس . سيرفع مسيو موشوت دعوى . سيذهب إلى مكتب قاض ما . . . وسيجد القاضي مطلبه سخيفا . «هذه الأمور لا نفعلها إلا في حالة الاغتصاب يا مسيو موشوت ، سيقول له ، هل اشتكت ابنتك من أنها اغتصبت . . .؟»

لا . واطمأن أنطوان : لن يقبل أي قاض بأن يستجيب لطلب كهذا ، هذا مستحيل .

لكن من جهة أخرى ، لن يفُوتَ القاضي أن يسأل نفسه سؤالا آخر : إن كان واثقا من أنه ليس الوالد ، فلم لا يجري أنطوان كورتان هذا التحليل؟

سيسأل القاضي نفسه حتما عن هذا الرجل الذي يرفض الخضوع لتحليل وراثي . . . بينما اكتُشف لتوه الحمض الوراثي لقاتل ريمي ديسميد . وهو تحديدا الرجل الذي كان فيما مضى من بين آخر ما شاهدوا ريمي حيا . . .

عندئذ ، وتبرئةً للذمة ، سيعاد استجواب أنطوان .

وهو كان يعلم ، يعلم أنه لن يتحمل أبدا استجوابا بشأن ما حصل قبل اثني عشر عاما . كان ذلك مستحيلا . سيحاول أن يكذب من جديد ، ولن يُحسن الكذب ، سيتلجلج وسيهتز لذلك القاضي . لن تكون تلك أول مرة يعتقل فيها قاتل بسبب جنحة . . .

بل إن القاضي قد يجبره عندئذ على الخضوع للتحليل الوراثي . . .

كان الأحرى به أن يستسلم .

ويجري ذلك التحليل ليقطع دابر الشك وإلا فلن تقوم لأنطوان قائمة .

وجلبت له هذه الفكرة بعض العزاء . فإن كان هو والد ذلك الطفل ، سيدفع نفقة ، وهذا كل ما في الأمر! فلم يكن واردا أبدا أن يتزوج هذه . . . بحث عن الكلمة المناسبة ، ولم يجدها .

جاءته ، من وراء الجدار ، أصوات مكتومة ، أشياء ترتطم ، كتلك الأصوات التي يصدرها الأشخاص الحذرون في غرف الفنادق المُصْدِيَة .

كانت تلك أمه تتصرف ، كعادتها ، كما لو أن شيئا لم يكن ، وترتب غرفتها المرتبة ، كما رآها تفعل طوال طفولته .

أن يسمعها ، أن يشعر بوجودها كما لو كان يلمسها ، جمده ذلك حتى النخاع . . . إن ظهر أنه هو والد الطفل ، أي أنه المذنب وأنه يأبى الزواج من إيميلي ، فسيذيعون الخبر في المدينة كلها ويشيرون بإصبع الاتهام إلى آل كورتان . . .

كيف ستصبح عندئذ حياة أمه؟

سيكون عليها أن تتحمل هذه الوصمة على سمعتها . ستكون في أعين الجميع أم رجل جبان لا يواجه مسؤولياته وواجباته . أن تكون محط الأنظار باستمرار ، مدانة ، مهانة ، تلك حياة لم تكن أبدا لتتحملها ، كلا ، كان ذلك مستحيلا .

لم يكن لأنطوان أحد سواها ، ولم يكن لأمه أحد سواه .

لم يكن أنطوان قادرا على تعريضها لمحنة كهذه .

سيقتلها ذلك .

لم يبق أمامه إلا حل واحد : أن يقبل الخضوع للفحص آملا أن تثبت النتائج براءته .

كان ذلك أمرا مشكوكا فيه إلى حد كبير .

لكن كان هنالك أمر آخر في غاية الأهمية .

سمع أنطوان مرة أخرى كلام المراسلة :

« . . .عينة تمكنهم من مقارنة حمضه النووي بذلك الذي وجد قرب جثة الطفل المسكين .»

شعر أنطوان بالدوار وكان عليه أن يجلس . إن خضع لذلك الفحص فالنتائج ، إيجابية كانت أم سلبية ، ستحفظ في مكان ما . . .

سيكون له وجود .

لمدة طويلة ، طويلة جدا . في أي قاعدة بيانات سيحفظون الفحص؟ وأيُّ إدارة ستكلف به؟

ما من أحد كان بإمكانه أن يؤكد أن أحدا لن يقاطع نتيجته ، عاجلا أم آجلا ، مع . . . الحمض النووي لقاتل ريمي ديسميد .

بإمكان أي تشريع يصدر غدا أن يتيح للعدالة مقاطعة كل معطيات الحمض النووي الممكنة . . .

سيكون ذلك سيفَ داموقليس معلقاً فوق رأسه إلى ما لا نهاية .

كان الحل الوحيد هو أن يرفض .

وبذلك عاد أنطوان إلى نقطة البداية . كان ذلك مأزقا لا مخرج منه : سواء عليه أخضع للفحص أم لم يخضع له فالنتيجة واحدة .

ما قد لا يحدث اليوم سيبقى ينذر بالحدوث غدا .

وطوال حياة بأكملها .

- متى ينطلق قطارك ، أنطوان . . .؟

جاءت مدام كورتان دون أن يحس بها أنطوان وأطلت برأسها .

وأدركت فورا أي حالة من الهيجان كان فيها ابنها .

- حسنا ، إن لم تسافر في هذا القطار فثمة غيره . . .

وأغلقت الباب ونزلت .

راح أنطوان يذرع الغرفة ، محاولا لملمة أفكاره ، لكنه كان دائما يصطدم بالحتمية : لم يكن أمامه إلا حل واحد : أن يمنع مسيو موشوت من رفع الدعوى .

أو يتهيأ للعيش في قلق ، وربما لقضاء خمسة عشر عاما في السجن ، بعد محاكمة سيدوي صداها في فرنسا كلها ، المصير الرهيب لقاتل الطفل . . . كل ما استطاع أن يتجنبه حتى الآن .

اثنا عشر عاما كانت قد مرت على الجريمة التي ارتكبها وهو في الثانية عشرة من عمره ، ولعل الفصل الأخير من المأساة التي وجد نفسه في خضمها في ذلك اليوم من ديسمبر ١٩٩٩ يُعرض هنا ، الآن . . .

وهبط الليل .

سمع أمه تذهب للفراش ، دون أن تنبس بكلمة ، دون أن تطرح سؤالا .

حتى الصباح ، مشى في الغرفة طولا وعرضا . كان الوضع بالنسبة له مأساة مكتملة الأركان . لم تكن حياته إلا تلك الهزيمة النكراء التي دفعته إليها دفعا طفولته المحزنة .

عندما طلع النهار ، تساءل إن لم يكن هو من حكم على نفسه بنفسه بالحياة مع إيميلي . لم تكن عقوبة الجريمة التي ارتكبها تتمثل

في قضاء عدد من السنوات في السجن ، بل في عيش حياة بأكملها ، حياة كان يمقتها سلفا ، حياة تجسد كل ما كان يكرهه ، مع أناس لُكْع ، ينفقها وهو يمارس مهنة يحبها في ظروف لا يطيقها . . .

ذلك كان جزاءه : أن يقضي عقوبته حرا طليقا لقاء حياته كلها .

عندما انبلج الصبح ، كان أنطوان قد أقر بهزيمته .

٢٠١٥

٢٠

كان المطر ينهمر دون توقف منذ أكثر من أسبوع . وإن أضفنا إلى ذلك الليل الذي صار يهبط مع نهاية الظهيرة ، غدت الجولة متعبة حقا . وعبثا يحاول أن ينظم أموره ويرسم لنفسه مسارا معقولا ، كانت الاتصالات التي ترده وهو في الطريق ترغمه دائما على المرور مرتين بمارمونت ، وثلاث مرات بفارين . كان ذلك أمرا حتميا .

نظر أنطوان إلى ساعته ، ١٥ :١٨ لا شك في أن قاعة الانتظار كان فيها أكثر من عشرة أشخاص ينتظرون ، ولن يصل إلى المنزل قبل التاسعة . رأى وجهه في المرآة العاكسة . كان قد قرر ، قبل بضعة أيام من زواجه ، أن يترك شاربه ينبت وأن يعفيه . كان الشارب يجعله يبدو أكبر سنا بكثير ، حتى أمه قالت له ذلك ، ولم يكن لذلك أهمية ، لا له ولا لإيميلي . أما هي . . . هذه المرأة كانت غامضة كقارورة حبر . كان غاضبا منها أشد الغضب في البداية ، وأنحى على نفسه باللائمة لأنه انخدع وترك الخوف يتمكن منه بسرعة شديدة . بل إنه فكر في إجراء الفحص الوراثي ، لكنه لم يفعل لأن ذلك لم يكن ليغير شيئا في المنحى الذي اتخذته حياته . كان الوقت قد فات .

وعندئذ ، هدأ من روعه ، ونظر إلى زوجته بعين أخرى . لم يكن مغرما به لكنه فهمها . كانت كالفراشة ، متنقلة متقلبة

متلونة ، تنتابها فجأة نوبات حماسة ، دون سابق تدبير ودون ندم . كانت لا تزال في غاية الجمال ، وتعافت من الحمل في بضعة أسابيع . واستعادت جسدها الذي كان دائما يدهشه ، وعندما يعاشرها تجاريه بصمت «لكي لا يستيقظ الرضيع» ، وتستدير وهي تؤكد له أن الأمر سار بشكل «أفضل من المرة السابقة» ثم لا تلبث أن تنام . إيميلي ، كان أنطوان على يقين من ذلك ، لم تستمتع أبداً . مع أي كان . ولم يعد يتساءل عن علاقتهما ، كل ما كان يهمه وهو الطبيب هو أن يحرص على أن تنتبه لنفسها ، لكن عبثا : هذه المرأة كانت تتفلت دائما من المراقبة .

في البداية ، كان يفطر قلب أنطوان أن يعود إلى البيت دون سابق إنذار ويرى إيميلي تصعد من القبو وهي تملس تنورتها وتمشط شعرها ، ثم يجد في الأسفل عاملَ كهرباء محمرَّ الوجه لم يفتح حتى صندوق الأدوات . ولو أنه كان مغرما بها ، لجعله ذلك حزينا بائسا . في الواقع ، كان حزينا بعض الشيء ، لكن ليس من أجل نفسه . عندما كان يختلس النظر إليها وهما يجلسان إلى المائدة ، في المطبخ ، كان قلبه ينقبض لرؤية كل تلك الخسارة : جمال كئيب لم يكن رأسه يموج بأي شيء .

لقد قبلت إيميلي بحياتها كما قبلت بكل شيء ، من كل الناس . مع ميل إلى القبلات المغتصبة والعلاقات الخاطفة .

إلاَّ ثيو . كان قد حل محل أبيه في مصنعه منذ سنتين وخلفه في البلدية في الانتخابات الأخيرة . ومنذ ذلك الوقت ، صار يؤدي دور رب العمل الجديد ، والوجيه العصري ، فيدير مجلس البلدية مرتديا سروال جينز ويلبس قميصا أبيض ، لكن دون ربطة عنق ، عندما يذهب إلى النصب التذكاري ، ويستقبل ممثلي النقابات

منتعلا حذاءً رياضيا . كان يتظاهر بقربه من الجميع ، رافعا الكلفة معهم . وكان يعاشر امرأة الطبيب ، صديق الطفولة ، ولا أهمية لذلك .

توقف أنطوان بسبب شاحنة حطب كانت تناور على الطريق وسط الغابة البلدية ، وكان عليه أن ينتظر . كان يخشى لحظات الهدوء ، ولأجل لذلك بلا شك انتهى به المطاف إلى أن أحب هذه المهنة ، مهنة طبيب ريفي . ولقد صدقت نبوءة الدكتور ديولافوا ، الذي كان قد أنطوان اشترى منه عيادته قبل سنة ، إما أن تترك هذه المهنة بعد شهرين أو تمارسها حياتك كلها ، ولا توجد منطقة وسطى . وكان على حق . لقد انخرط فورا في مهنته قلبا وقالبا ، ولعله لن يتركها أبدا .

بالنسبة لما تبقى ، كانت الحياة قد استتبت .

إيميلي ، على العهد بها منذ اليوم الأول ، لا تنفك تفطر القلب بما تلفظه من أفكار مبتذلة ، وحموه ينتفخ فخرا أن صارت ابنته زوجة الطبيب . كان طفلهما قد التقطه الحموان لأن أنطوان «تمنعه مشاغله الكثيرة من الاهتمام به» ، ولم يكن ذلك عاريا عن الصحة .

ولد الطفل مكسيم في الأول من أبريل . وما أكثر ما سمع من النكت الظريفة بهذا الشأن . العائلة كلها اشتركت في ذلك ، يا له من أمر مضحك ، ولقد وُلد الطفل فعلا ، لا كَذِب في ذلك ها ها ها! أما اسم مكسيم[٥] ، الذي يدل بوضوح على أوهام العظمة التي تراود العائلة ، فمسيو موشوت ، طبعا ، هو الذي فرضه .

---

(٥) أصل اسم مكسيم هو من اللاتينية مكسيموس ، التي تعني الأكبر ، الأعظم .

بعد الزواج الذي كان جحيما لا يطاق (ثلاثة أشهر بلا توقف لأربعة أشخاص ، واجتماعات عائلية لاختيار بطاقات الدعوة ، واجتماعات في الكنيسة للتمرن على القداس ، ومفاوضات بشأن الطعام ، وتجاذبات بشأن المدعوين ، الجحيم بعينه . . .) ، استأثر حمل إيميلي باهتمام الجميع ، كانت بلا مراء أول امرأة تحمل منذ بدء الخليقة .

كانت إيميلي أُمًا مزهوة بانتصارها ، تشهر بطنها وتقدمه ليراه الجميع ، كعلامة من علامات الغنى ، وتتقدم الناس في الطوابير بابتسامة مظفرة ، وفي المحلات تطلب كرسيا لتجلس وهي تلهث بوضوح إلى أن ينتاب الناس القلق ، فتشرع حينئذ في الحديث بالتفصيل الممل عن الأعراض الباكرة والجانبية لذلك الحمل ، ولا تجَنِّب أحدا شيئا ، بل تعطي كلَّ واحد حصته كاملة غير منقوصة ، الألم ، والإسهال ، والقيء ، والنعاس ، وأنا الذي كنت أظن أنه كان يركل ، ولكن لا ، كانت تلك الغازات! آه ، يا للغازات! كان ذلك بسبب عضلات البطن المضغوطة ، يا لها من مغامرة ، أجل ، كان ذلك منهكا (كان تحب هذه الكلمة كثيرا) ، لكنها أيضا «هدية رائعة من هدايا الحياة» ، وعندما تكون في أفضل أيامها ، ترتجل وتطنب في الحديث عن «أيُ مغامرة قد تخوضها امرأة أجمل من وضع طفل» . كان أنطوان يشعر بكآبة شديدة .

في البداية لم يشعر بأي شيء تجاه ابنه ، لا بالحب ولا بالكراهية . ببساطة ، لم يكن جزءا من حياته . كانت إيميلي ووالدته تتخذان من ذلك الطفل دميتهما طوال الوقت بينما لم يكن هو يراه إلا من حين لآخر . كان يعالجه كما يعالج معظم أطفال البلدية ، كان طفلا من بين كل الأطفال الآخرين .

ثم بدأ مكسيم يمشي ، ثم يتكلم وإذ به ، لدهشة أنطوان ، لا يشبه آل موشوت . كان أحيانا يأتيه الانطباع بأن هذا الطفل يشبهه هو ، وكان ذلك يشعره بالزهو رغم أنه كان دائما يستسخف هذا الشعور عند الآخرين .

ربما كان يرى هذا الشبه لأنه كان يريده . في الوقت الراهن ، كان يكتفي بالنظر إليه . ولم يكن يعلم ما سيكون من أمرهما .

انطلق أنطوان من جديد واستدار يمينا ، يا إلهي ، أكثر من ساعة ونصف الساعة من التأخير ، لا شك في أن قاعة الانتظار كانت مكتظة . ليكن ، سينتظرون ، فهم ينتظرون دائما على أي حال . لقد استطاع أنطوان أن ينتزع التقدير من سكان بوفال بسرعة . هذا الطبيب ، على الأقل ، أمه معروفة .

توقف عند أسفل الدرج وترك المحرك شغالا وخرج وهو يحتمي من المطر ودخل البيت الكبير . لن يطيل المكوث ، لكنه وعد ولذلك جاء . صباح الخير دكتور ، لم نعتقد أننا سنراك في مثل هذه الساعة ، ناولني معطفك ، هي تنتظرك بفارغ الصبر كما تعلم .

أجل ، لكنها كانت دائما تتظاهر بالانشغال بأمر آخر . عندما كان يدخل القاعة ، كانت ترفع إليه نظرة متفاجئة ، آه ، هذا أنت ، أي ريح طيبة تحملك . . .؟

مادموازيل الآن في الواحدة والثلاثين من عمرها ، وكان تبدو أكبر سنا بخمسة عشر عاما . كانت نحيفة بشكل مرعب ، لكن أنطوان كان يعلم علم اليقين أن هذا الهيكل العظمي سيتحدى الموت لعشرات السنين . إن كانت مادموازيل قد تمنت الموت يوما ، فهذه الأمنية قد زايلتها ، كما زايلت أنطوان أمنية الهرب .

قرَّب كرسيا وبحث في خُرجه وبعد أن ألقى نظرة طويلة

حوله ، أخرج منه لوح شوكولا ودسّه تحت بطانية مادموازيل . كان ذلك سراً مَشاعا ، فالجميع كانوا يعلمون أنها كانت تأكل منها وأولهم طبيبها الذي كان مونها الأكبر .

رفعت مادموازيل خلسة طرف بطانيتها لترى نوع الشوكولا وقطبت وجهها امتعاضا :

- أنت لا تتقبل الهزيمة برحابة صدر يا دكتور . . .

كانا قد بدآ بلعب الشطرنج عندما حل أنطوان محل الدكتور ديولافوا في المصحة ، لكنه لم يجد أبدا الوقت ليلعب مباراة بأتم معنى الكلمة . وكانت الفكرة فكرتها هي : صارا الآن يتبدلان النقلات بالبريد الإلكتروني . كان أنطوان يفكر في استراتيجيته وهو يقود سيارته ، ويجيب قبل أن يشرع في فحص مريض ، ويأتيه جوابها أثناء الفحص ، ويرد بدوره وهو يهم بالخروج . كانت مادموازيل على حق : لم يكن أنطوان يتقبل الهزيمة برحابة صدر . ولم يكن السبب هو الهزيمة ذاتها بل تكررها : فهو لم يربح معها أبدا لعبة واحدة . وكان يأتي ليحضر لها الشوكولا كلما انهزم من جديد .

- لا يسعني أن أبقى ، فأنا متأخر بساعتين .

- وليكن ، سيغادر مرضاك إذا ، ولعل ذلك يكون له خيرا لهم! ولعلك تزورهم صباح الغد لتجد أنهم أبلُوا من مرضهم!

الأسطوانة نفسها دائما ، مثل زوجين قديمين . وأمسك أنطوان بأطراف أصابع مادموازيل ، أصابع متجمدة نافرة العظم كانت تمسك بيد أنطوان بنهم ، شكرا ، إلى لقاء قريب .

إلى بوفال ، تحت المطر .

تبدلت المدينة في السنوات الأخيرة . نجحت تهيئة حديقة

سانت أوستاش نجاحا باهرا ، وفي عز الموسم كان الناس يأتونها من كل حدب وصوب . حديقةٌ عائلية ، قريبة ، كانت الفكرة ناجحة أيما نجاح ، واستطاع مسيو وايزر أن يخرج بوفال من عنق الزجاجة فانتُخب ابنه في الدور الأول ، وخلقت السياحة مناصب عمل وكان التجار سعداء ، والمدينة التي يكون تجارها راضين هي مدينة فخورة فرحة .

وتصادف ذلك مع انتعاش صناعة اللعب الخشبية . فبعد أن كانت مبتذلة في التسعينيات ، عادت لتصبح رائجة مع تنامي مدِّ حركات الدفاع عن البيئة بين الفرنسيين ، وعاد الناس ليحبوا قطارات الدردار الصغيرة والبلابل المصنوعة من خشب التنوب ، وارتفع عدد العمال في وايزر ، **نصنع اللعب الخشبية منذ ١٩٢١** ، ليقارب ما كان عليه قبل الأزمة .

قاعةُ انتظار مكتظة ، وحرارةٌ مضمخة بالماء والرطوبةُ تسيل على الزجاج .

فرج أنطوان النافذة ، وهو ما لم يجرؤ أحد على فعله . ألقى تحية عامة وأتبعها بحركة أرادها اعتذارا عن تأخره . وسُمعت همسات الرضا . الناس يحبون أن يكون طبيبهم مشغولا ، فانشغاله ضمان كفاءته .

وعرف من الجالسين مسيو فريمونت وفالنتين ومسيو كوفالسكي . كان الدكتور ديولافوا قد تلقى فكرة أن يستلم أنطوان عيادته منه بكل ما أوتي من حماس . وخشي أنطوان من أن يمنعه حبه لمهنته من أن يتوقف ، أو يدفعه إلى اقتراح شراكة بينهما أو يجعله دائم التدخل ، لكن شيئا من ذلك لم يحصل . فما أن باع العيادة حتى رحل إلى فييت تري ، وهي مدينة تقع على الشمال

من هانوي ، ذهب إليها لكي يعتني بأمه ، وهي عجوز في الثمانين لم يرها منذ ما يقرب من خمسين عاما . وقبل أن يغادر ، ترك لأنطوان بطاقة عن كل مريض في غاية الدقة والتفصيل ، بل إنه أمضى وقتا طويلا جدا -وكان ذلك شرط الطبيب المخضرم- ليفيض في الحديث عن الحالات المستعصية .

وانتبه أنطوان في تلك اللحظة إلى مسيو كوفالسكي كان من بين الزبائن ، ولكنه لم يره أبدا قبل ذلك في العيادة . أما فالنتين ، فعليه أن يفاوضها . كانت تأتي ست مرات في السنة تطلب إجازة مرضية ، ومعها عدد من أطفالها تستدر بهم عطفه أو شفقته . وكان أنطوان دائما ضعيفا أمامها ، فيمتنع دائما في البداية عن كتابة الإجازة المرضية ثم ما يلبث أن يفعل . لم يكن ليقر لنفسه بذلك ، لكن فالنتين كانت تحتل منزلة محرجة في حياته ، فهي كانت قبل كل شيء الفتاةَ التي أصابتها مصيبة اختفاء أخيها الصغير ، أخت الطفل الذي قتله أنطوان .

أخذ أنطوان ما لزمه من وقت ليستعد للجولة الثالثة في هذا اليوم ، فرتب معداته وتأكد من أن كل شيء في مكانه وأعاد محفظته إلى الدرج الأول في المكتب ، الوحيدِ الذي كان يغلقه بالمفتاح ، وكان فعله ذلك أقرب إلى الخرافة منه إلى الأمن الحقيقي ، إذ كان بإمكان طفل في العاشرة أن يفتحه بمقطع ورق في ثوان معدودات . ذاك الدرج هو الذي كان يحتفظ فيه ، دون سبب وجيه ، بجواب لورا على الرسالة التي كتبها لها ، دفعة واحدة ، لورا (وليس حبيبتي ، يجب ألا تترك لها أي منفذ) ، سوف أهجرك (كن بسيطا ، واضحا ، حاسما) ، ثم شرحٌ طويل بخصوص إيميلي المرأة التي لطالما أحبها في واقع الأمر والتي أحبلها والتي سيتزوجها ،

وذلك خير ، لأنني كنت سأجعلك تعيسة . . . الخ . رسالة من تلك الرسائل الغبية الكاذبة المتوقعة التي يكتبها كل الرجال الجبناء لكل النساء اللواتي يقررون أخيرا هجرهن .

وجاء رد لورا فورا ، ورقةً بيضاء كبيرة كتب على أعلاها في بداية السطر : «حسنا .»

طواها وخبأها في الدرج وأغلقه بالمفتاح . بل إنه كاد ينساها مع مرور الوقت .

كتب أنطوان لفالنتين إجازة مرضية لمدة أسبوع ، ثم استقبل مسيو كوفالسكي ، الرجل النحيف ذي الصوت الخافت جدا والحركات البطيئة الدقيقة . واستمع أنطوان إلى دقات قلبه المتعب . وألقى نظرة على بطاقته وهو يقيس له ضغط دمه ، نعم ، لقد تذكر ، كان مسيو كوفالسكي أرمل ، وحسب عمره بسرعة ، ست وستون سنة .

- حسنا ، ثمة فيروس . . .

ابتسم مسيو كوفالسكي بطيبة وتسليم . وكتب أنطوان وصفته التي كان يعلق عليها دائما ويضع دائما سطرا تحت المقادير ، ويجتهد أن يكتب بخط واضح يُقرَأ ، لا تَحذلُق .

خبأ بطاقة المريض ورافقه حتى الباب وصافحه .

كان مسيو فريمونت قد قام من مكانه وراح يتقدم عندما تملك أنطوان اندفاع مفاجئ ودون أن يفكر :

- مسيو كوفالسكي؟

واستدار الجميع إلى الباب .

- آآآ . . . هل لك إلى أن تعود للحظة؟ قال أنطوان .

بحركة من يده اعتذر إلى مسيو فريمونت ، لن يطول الأمر ، إن

سمحت . . .

– أدخل ، أدخل ، قال وهو يشير إلى الكرسي الذي قام مسيو كوفالسكي من عليه لتوه ، اجلس قليلاً .

دار على مكتبه وحمل البطاقة ونظر إليها من جديد .

أندريي كوفالسكي ، ولد بغدينيا ، بولونيا ، في ٢٦ أكتوبر ١٩٤٩ .

كان الحدس الذي تملك أنطوان مقنعا ، من ذلك النوع الذي يبدو لنا لأول وهلة كأنه الوحي ثم ما نلبث أن نراه عبثا وخطلا .

لكن مسيو كوفالسكي خفض بصره إلى ركبتيه فتبين لأنطوان فورا أنه كان مصيبا في ما رآه .

وصمت مليا لا يدري كيف يبدأ . . . لأن الباب الذي قد يفتحه بعد قليل لم يكن يعلم ماذا يوجد خلفه . ولم يكن يعلم أيضا هل سيكون قادرا على إغلاقه . كان لا يزال يمسك ببطاقة مريضه . أندريه .

– قبل بضع سنين ، دخلت أمي في غيبوبة دامت بضعة أيام . . . قال دون أن يرفع بصره .

– أتذكر ذلك ، وسألت عن صحتها في حينه ، لكنها الآن بحال أفضل ، أليس كذلك؟

– أجل أجل ، حسنا . . . في المستشفى كانت تهذي . . . تنادي أشخاصا من أقربائها ، أبي ، وأنا . . . كنت أتساءل . . .

– نعم؟

– أتساءل إن كانت نادتك أنت أيضا . أندريي هو اسمك ، أليس كذلك؟

– أندريي هو اسم المعمودية . الناس هنا ينادونني أندريه . . .

لعل أنطوان كان مخطئا ، لكن السؤال صار يلح عليه ولم يسعه إلا أن يطرحه :

- وهذا هو الاسم الذي كانت تناديك به أمي أيضا؟

نظر مسيو كوفالسكي إلى أنطوان مقطبا . هل سيغضب وينتصب قائما ويخرج ، هل سيجيب . . .؟

سأل بصوت هادئ :

- ما قصدك يا دكتور كورتان؟

قام أنطوان ودار على مكتبه وجاء ليجلس بجانب مسيو كوفالسكي .

لطالما كان يلتقيه وينظر إليه بسبب جسده الغريب الذي كان دائما يثير فيه وفي الكثيرين شعورا بالانزعاج لا يمكن تفسيره . الآن وهو يصَعِّد فيه النظر ، كان الأمر غريبا ، قوة هادئة تنبعث منه ، القوة التي يتخيلها الطفل في أبيه .

كانت الأفكار تتقارع في ذهن أنطوان فلم يعد يعرف كيف يتابع الحديث .

أما محدثه فلم يكن يبدو عليه الحرج مطلقا . كان على العكس من ذلك يعطي الانطباع بأن لا شيء أبدا سيجبره على الإفصاح عما لا يريد أن يفصح عنه .

- إن كنت لا تريد الحديث معي ، قال أنطوان ، فلك مطلق الحرية في أن تغادر يا مسيو كوفالسكي . لستَ ملزما بأي شيء .

فكر مسيو كوفالسكي مليا في ما سيفعله .

- لقد تقاعدت الشهر الماضي ، يا دكتور . أملك بيتا صغيرا في الجنوب . . .

ضحك ضحكة قصيرة قاطعة سريعة .

- أقول بيت ، تجميلا للأمر ، هي في الواقع مقطورة تخييم ، لكن المهم هو أنها ملكي . سأتقاعد فيها إذاً ، ولا أظننا سنلتقي مجددا يا دكتور . كنت قد هيأت نفسي لأن . . . لم أكن أتصور أنك ستسألني اليوم ، هنا ، هكذا . . .

كانت جمله هشة ، مشدودة ، كأنها تقف على خيط ، وكأنها توشك أن تنقض ، أن تتحطم .

- أحدثك عن تقاعدي لأقول لك . . . إن الوقت مضى وانقضى ، ولم يعد لكل ذلك أهمية .

- أجل ، أفهم ذلك .

وضع أنطوان يديه على ركبتيه وهمَّ بالقيام .

لكنه مُنع من ذلك .

- أتعلم ، لقد تملكتني حيرة عميقة ، عاد يقول مسيو كوفالسكي ، عندما رأيتك ذلك اليوم من شهر ديسمبر . . .

للحظة انقطعت أنفاس أنطوان . . .

- كنت أقود سيارتي ، عبر الغابة على تخوم سانت أوستاش ، وفجأة ، على مرآتي العاكسة ، إذ بي أرى ذلك الصبي يقطع الطريق ركضا ، مختبئا ، وعلمت فورا أن الصبي كان أنت .

أحس أنطوان بذعر يسري فيه لم يعرف له مثيلا منذ أربع سنوات عندما ظن أن حياته صارت أخيرا في مأمن . وبينما راحت حياته تغرق في رتابة كأنها الرمال المتحركة ، إذ بكل شيء يطفو على السطح من جديد ، موت ريمي ديسميد ، ويداه الصغيرتان وهما تغيبان في الهوة تحت شجرة الزان الكبيرة المستلقية . . .

بحركة مسح العرق من على جبينه .

رأى نفسه من جديد عائدا إلى بوفال ، متكوما في الحفرة ،

مترصدا السيارات قبل أن يقطع الطريق .

- فتوقفت على مبعدة من المكان . . . ركنت سيارتي ونزلت وذهبت لأرى ما الذي كان يحصل . كنت أتساءل إن كنت بحاجة للمساعدة . طبعا لم أجدك ، كنتَ قد ابتعدت .

كان مسيو كوفالسكي الشاهد الوحيد القادر في تلك الفترة على دفع التحقيقات باتجاه أنطوان . هو نفسه تعرض للاعتقال والمضايقة إلى أن اكتشفت جثة ريمي قبل أربع سنوات واستدعي عندئذ من جديد وأعادت الشرطة استجوابه . . .

- ولَمْ . . .

- كان ذلك لأجل أمك . لقد أحببتها كثيرا ، أتعلم . وهي أيضا ، كما أعتقد . . .

خفض رأسه وقد تنحس لونه من أثر ما باح به من سر كان يبدو عليه أنه يدرك ما فيه من بساطة مبتذلة بعض الشيء .

- قد تجد ذلك سخيفا إذ تسمعه من رجل طاعن في السن مثلي ، لكنه . . . كان حبا جارفا .

كلا ، لم يكن ذلك سخيفا بنظر أنطوان ، فلقد عاش هو أيضا في مضى من حياته حبا جارفا .

- لم أرد يوما أن أقول ما الذي كنت أفعله في ذلك اليوم . . . لأننا كنا معا ، أنا وهي . في تلك السيارة تحديدا . لم أكن أريد أن أعرض سمعتها للشبهات . . . كانت تريد أن تبقى علاقتنا سرا . . . وهذه من الأمور التي يجب احترامها .

لكي تبعد عنها الشكوك ، تصرفت مدام كورتان ببرودة وقسوة وأطلقت على مسيو كوفالسكي أحكاما قاطعة ظهر الآن كل ما كان فيها من قسوة .

راح أنطوان بصعوبة بالغة يعيد تركيب قطع المشهد . توقف مسيو كوفالسكي . ماذا قال لمدام كورتان؟

في السيارة استدارت إلى الخلف ولم تر شيئا ، وتساءلت عما ذهب يفعله . هي لا تريد أن تبقى هنا ، متوقفة على جانب الطريق ، لا تريد أن يراها الناس . . .

نزل مسيو كوفالسكي ، وبحث عن أنطوان الذي رآه لتوه يركض خائفا مذعورا نحو بوفال ، ولم يجده ، فعدل عن ذلك وركب سيارته وانطلق . . .

ماذا قال أحدهما للآخر؟

– لم أخبرها بشيء . كانت تلك إلى حد ما ردة فعل لا إرادية مني ، انتابني إحساس بأن . . . أعني . . . بأن الأمر لم يكن خيرا .

غمرت هذه العلاقةُ بين أمه وهذا الرجل أنطوانَ بإحساس جارف بالضيق لم يستطع أن يلجمه إلا بشق الأنفس . وليس السبب هو أن العلاقة كانت في ذاتها مشينة في نظره . طبعا ، يفاجئنا دائما ويصدمنا أن يكون لأحد أبوينا حياة جنسية حتى لو كان أحدنا طبيبا ، وإذاً ، كان في إحساسه شيء من ذلك دون شك ، لكن كان هنالك أيضا شيء آخر أكثر انبثاثا وغموضا ، أكثر تعقيدا ، يتطلب وقتا وتفكيرا ويقوم على هذا السؤال : متى عرفا بعضهما؟

بدأت مدام كورتان العمل لمسيو كوفالسكي قبل ميلاد أنطوان بكثير . . . قبل سنتين؟ قبل ثلاث سنوات؟ متى رحل والد أنطوان؟ راحت التواريخ ، والسنوات ، والصور تختلط ، ومادت به الأرض .

تملك أنطوان إحساس مفاجئ بالغثيان .

استدار إلى مسيو كوفالسكي فانتبه إلى أنه كان قد قام من مجلسه وبلغ الباب .

– لم يعد لكل هذا أهمية يا دكتور . أتعلم ، في البداية يطرح أحدنا على نفسه أسئلة كثيرة . . . أنا نفسي . . . ثم يأتي يوم نتوقف فيه عن طرح الأسئلة .

هذا الرجل الذي تألم وتعذب كثيرا بلا شك هو الذي كان في هذه اللحظة يفتش عن الكلمات ليواسيه بها .

كان أنطوان يرتجف كمن خرج دون معطف في يوم مثلج .

– ومهما يكن يا دكتور ، لا تخش شيئا .

فتح أنطوان فمه ، لكن مسيو كوفالسكي كان قد غادر .

بعد يومين ، وصله طرد صغير فتحه على مكتبه في العيادة ، قبل أن يبدأ فحص المرضى .

كانت تلك ساعتَه . بسوارها الأخضر المشع .

كانت معطلة ، طبعا .

مكتبة

telegram @ktabpdf

telegram @ktabrwaya

جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

شكر

لم تكن هذه الرواية لترى النور لولا وجود باسكالين .

شكرا لصديقي باتريس لوكونت]القديس مارتن [لأنه كتب الرسالة المناسبة في اللحظة المناسبة . وبمناسبة الحديث عن الأصدقاء ، كيف لي أن أنسى جان دانيال بالتاسا]القديس برنار[وجيرار أوبير ، الصديق اللازم . . .

إن وجدت أخطاء هنا وهناك ، فليس دانيال وينبلوم ولا فرانسواز دوست ولا صاموئيل تيلي هم الملومون ، بل أنا وحدي .

أما هم ، فلهم مني كل الشكر على ما قدموه من مساعدة وما أسدوه من نصيحة .

أنا أتفق تماما مع ما كتبه ه .ج ولز في مقدمة روايته دولوريس : «تأخذ سمة من هذا وسمة من ذاك ، تستعيرها من صديق قديم أو من شخص بالكاد رأيته على رصيف محطة ، وأنت تنتظر القطار . بل قد تستعير أحيانا جملة أو فكرة من خبر عابر في صحيفة . هذه هي الطريقة التي تُكتب بها الرواية وما من طريقة أخرى» .

هكذا فلقد عَرَضت لي ، وأنا أكتب هذه الرواية ، صور وعبارات كنت أعلم أنها لغيري . أما تلك التي استطعت أن أحدد مصدرها فلقد جاءتني (عذرا عن الفوضى) من : سنيتيا فلوري ، جان بول سارتر ، جورج سيمينون ، لويس غيو ، فيرجيني ديبانت ، روزي وجون ، تييري دانا ، هنري بوانكاري ، ديفيد فان ، ناثانيل هاوثورن ، ويليم ماكلفاني ، مارسيل بروست ، يان موا ، أمبرتو إيكو ، مارك دوغان ، ك .أ . ناوسغارد ، ويليم غاديس ، نيك بيزولاتو ، لودفيغ ليفيشون ، هوميروس وغيرهم كثير بلا مراء . . .

ثلاثة أيام وحياة

بيير لوميتر

في نهاية ديسمبر 1999، نزلت بمدينة بوفال سلسلة من النوازل، كان أهمّها بلا مراء اختفاء الصبي ريمي ديسميد.
في هذه المنطقة التي تكسوها الغابات و ينظم حياتها إيقاع رتيب، أثار اختفاء الصبي المفاجئ الذهول واعتبره عدد كبير من السكان نذيراً بين يدي كوارث أخرى قادمة.
بالنسبة لأنطوان، الذي كان الشخصية الرئيسة في تلك المأساة، بدأ كل شيء عندما نفق الكلب...